

عبد الوهاب الأسوانى

النمل الأبيض

بقلم

عبدالوهاب الأسوانى

دار الهلال

الغلاف للفنان :
حلمـى التـونـى

هاهو قصره يمتطى صهوة الربوة ، يعطى ظهره لبيوت القرية الطينية كأنه فارس متغطرس يقود جيشاً من المهزولين ..

فتح لى الخفير البوابة التى تشبه أبواب القلاع .. فى الداخل تسلمنى خادم ربعة فى الثلاثين يسمونه "ابن حميدة" ، سار أمامى بقفطانه الشاهى فى ممشى يشق مربعات النجيل .. على اليمين واليسار صفان من شجر الأثل .. طالعنا مبنى رمادى تتقدمه أعمدة رخامية ، صعدنا بضع درجات من الجرانيت المصقول ، وجدتنى داخل بهو فى اتساع ميدان ، أشار ابن حميدة الى أرائك مخملية وقال : أقعد .

واصل سيره ثم انعطف يميناً ورحت أتأمل ما حولى .. أعمدة من المرمر تحمل سقفاً ازدحم بالزخارف الهندسية ، وثمة صوان بللورى فى المواجهة يضم تحفاً بعضها على شكل تماثيل لملوك الفراعنة ..

لست أدرى لماذا بعث البك فى طلبى وإن كنت أتوقع خيراً ، فالرجل جم التواضع ، يخالط الشريف والوضيع ، يشهد الأفراح ، يعزى فى المآتم ، يعود المرضى ..

سمعت نحنحة ظهر على إثرها توفيق بك الزعيم بقامته المديدة النحيلة ، على كتفيه عباءة قرمزية انسدلت على جلباب أبيض مقفول الرقبة ، صافحنى بحرارة وجلس بجوارى وهو يقول لابن حميدة بلهجة مرحة : هات للأستاذ عامر أحسن حاجة عندنا .

- عصير جوافة يابك ؟
- هـات .

ابتسم وجهه الأسمر المستطيل ، حليق الشارب ، برزت الأكياس

الدقيقة تحت العينين وهو يقول : نحن أهل ، قبيلتنا وقبيلتكم من أصل واحد .

- فعلا ياسعادة البك ..

على الجدار المواجه صورة لجده حلمى باشا الزعيم بزيه العسكرى من طراز القرن التاسع عشر .. يحيط بأنفه المعقوف شارب كالهلال ، تشع من عينيه صرامة تشى بقوة شخصيته ، طربوشه يرتكز على أذنيه ، بجواره يقف ضابط أوربى ذو شارب كث ، لست أدرى أين رأيت صورته من قبل ؟

- أنت مستريح فى وظيفتك ياعامر ؟
- الى حد ما ..
- هل تحب النقل الى وظيفة أخرى بمرتب أكبر ؟
- أدركنى بها فأنا فى حاجة الى تحسين وضعى الاقتصادى .
- أتمنى هذا ..
- ما أخبار والدك ؟.. كم فداناً يزرع ؟
- خمسة ..
- مستعد أن أعطيه خمسة أخرى يزرعها بالمشاركة .

ماسبب هذا الكرم ؟.. هل لكسب أصواتنا فى الانتخابات ، أم لإحساسك بدنو أجلك فأردت التقرب الى الله ؟

- شكراً لك من كل قلبى ياسعادة البك .

لمع شعر رأسه الاشيب تحت أشعة الشمس المتسللة من النافذة ذات الزجاج الملون ، وهو يتأمل ظاهر يديه المعروقتين .. هذا الأنف المعقوف ورثته عن جدك حلمى باشا الزعيم الذى تحاك حوله حكايات كالأساطير ، لكن ماذا وراء هذا الكرم الحاتمى ؟

جاء ابن حميدة بكوبين من العصير ، مد البك يده الى كوب وناولنى اياه ، انتظر حتى ذهب ابن حميدة وقال :

- أخوك اسماعيل مريض ..
- ابنك ؟
- عرضناه على أعظم الأطباء فقالوا إنها حالة نفسية لن يشفى منها إلا

اذا تزوج الإنسانة التى يحبها ..
- زوجوها لـه .

شرب نصف كوبه وقال : المشكلة انها متزوجة .

لم أجد ما اقوله فاستطرد بلهجة رجاء : أنا واثق ياعامر أنك ستقدر الموقف .

وماشأنى بزواج ابنك حتى أقدر الموقف ؟
- من هى ياسعادة البك ؟

عاد للنظر فى ظاهر يديه فتكثف الصمت .. تذكرت الآن الضابط الأوربى الذى يقف بجوار جده .. انه القائد الانجليزى اللورد كتشنر الذى احتل السودان فى بداية القرن .
- أنت إنسان عاقل ياعامر ..
- شكرا لك ، من هى ؟

صمت للحظة قبل أن يقول : الجازية ..
- زوجتـى ؟!
- اضبط أعصابك يأستاذ عامر واخفت صوتك ..
- الجازيـة ؟
- اقعد ياعامر .. الموقف محرج وأنا قلت للدكاترة الموضوع عويص ، لكنى سمعت أنك عاقل ففاتحتك من غير أن يكون معنا أحد ..

لم أع ما قاله جيداً برغم حملقتى فى وجهه ، استطرد :
- نحن أمام أمر فظيع يابنى ، ويمكنك الزواج من أحسن بنت فى البلد ، كل النفقات على حسابى ، وسأعطيك مبلغا من المال يغير كل حياتك .

الرجل يتكلم بجرأة غريبة رغم نبرة الحزن فى صوته .
- يعنى أطلق زوجتى ليتزوجها ابنك ؟
- إياك أن تغضب ، نحن نتكلم كأهل ، الأفدنة الخمسة ستكون لوالدك بالمشاركة ، لكن دون مقابل لعشر سنوات ، ولا تنس الوظيفة المحترمة التى تنتظرك .. اقعد .

ـ لو لم تكن فى سن أبى ، لتصرفت معك بطريقة أخرى .
ـ عيب ياعامر ..

خطوت الى الخارج فسار ورائى وهو يقول فى رجاء :
ـ فكر فى الأمر وعد لى بعد يومين ثلاثة .

لم أعره التفاتاً ، فقال وهو يقف على رأس الدرجات التى كنت أهبطها : أنا واثق أنك ستقدر الموقف .

★ ★ ★

ابتسم أبى وهو يقول ساخرا :
ـ إما أن توفيق بك مجنون ، أو أنت المجنون ياولد لأنك "ولفت" هذه الحكاية من دماغك .
ـ ياأبى صدقنى ، أنا قادم من قصره رأسا .

غاضت ابتسامته أمام نبراتى المخنوقة .. لملم جِرَام الصوف حول كتفيه كأنه شعر بالبرد فجأة : يعنى الكلام صحيح ؟
ـ صحيح يابوى .

ملامح وجهه أوحت بأنه ناء بعبءٍ ثقيل .. مضت فترة دون أن تنم عنه حركة .. حملقته فى وجهى بدت كصورة ثابتة .. ودون توقع ، انتفض واقفاً ونزع الجِرام الصوفى وألقى به فوق سرير نومه كأنه تخلص من العبء الثقيل .. خطا نحو الجدار المواجه ، تناول بندقية المرحوم جدى ، التى حال لونها فبدا كعبها كعرجون النخل .. أزاح مسمار الأمان الى الخلف .. دار بسبابته حول الزناد دون أن يضغط ، أعاد مسمار الأمان الى مكانه ، ترك البندَقية تنزلق ليقف كعبها فوق الحصيرة ، اغمض عيناً وقرب المفتوحة من فوهة الماسورة ، رفع رأسه ونفخ فيها بقوة .. علقها فى المسمار المدقوق فى الجدار الطينى ، ارتدى ثوبه الأسود فوق القميص وخطا الى الخارج وهو يقول :
ـ تعال معى نستشير عمك عرابى .

★ ★ ★

دهش عمى عرابى حينما سمع الحكاية .. قام من فوره ودخل حجرة نومه .. عاد الينا وهو يرتدى ثوباً صوفياً كحلى اللون ويضع على كتفيه عباءة سوداء ، تضاعف حجم رأسه حين لف شالاً صوفياً رمادى اللون فوق عمامته ، قال لنا :

ـ هيا نقابل العمدة ..

انتفض أبى وهو يقول :

ـ العمدة سيتحدث عن الموضوع فى كل مكان .

ـ وافـرض .

ـ نحن لا نريد أن نظهر أمام الناس بمظهر من يطمع فيهم توفيق بك كما طمع أبوه فى عائلة الروابع الجبانة .

وضع عمى عرابى كفه فوق جبهته العريضة كمن يفكر قبل أن يقول :

ـ نطلب من العمدة أن يكتم السر ، لكن لابد أن نكسبه الى صفنا .

ـ لا .

نطقها أبى بحزم وقد لمعت عيناه الضيقتان الحادتان وزاد بروز فكه الأسفل الذى يوحى بعناد صاحبه .

دار عمى عرابى بذراعه حول كتفه وقاده الى سرير حبال يفصلهما عنى ثلاثة أسرَّة ، اجلسه عليه وجلس بجواره ومضى يهمس له بكلمات لم أسمعها ..

بدا أبى شديد النحول بجوار عمى عرابى الذى كان ممتلئاً قليلاً وأطول قامة وأعمق سمرة ، لكنه دائم الابتسام حتى ليخيل لمن يراه لأول مرة أنه يعرفه منذ زمن بعيد .

كانت جلستنا فى المدخل ، يفصلنا عن بقية البيت سياج بطول قامة الرجل ، أقيم ليمنع الداخل من تقييد حركة النساء فى الفناء ، فوق السياج انهمكت حمامة بيضاء فى غرس منقارها فى أجزاء مختلفة من ريشها بحركات عصبية ، وثمة حشرات دقيقة تتطاير من الريش وتعود اليه ..

سمعت أبى يتساءل بصوت عال :
- تضمن لى يحافظ على السر ؟
- العمدة رجل عاقل وكسبه الى صفنا مهم ، فنحن لا نعرف ما الذى يمكن أن يحدث فى المستقبل .

★ ★ ★

ولج بنا حجرة صغيرة داخل بيته - كطلب عمى عرابى - وحينما انتهيت من حكايتى ، انتفخ وجهه الممتلىء وقال منفعلاً :
- هذا التصرف ليس غريبا من حفيد الرجل الذى تعاون مع الانجليز .

وافقه عمى عرابى بقوله : صدقت .
- هل تظنون أن جده كانت له كل هذه الأطيان ؟
- لا ..

انفعل العمدة أكثر فاختلج أنفه العريض ، وكان شاربه القصير الذى خالطه المشيب يتحرك الى أعلى وأسفل أثناء كلامه :
- جدى كان أغنى منه وأعظم ، لكنه رفض الانضمام بقبيلتنا لقتال اخواننا فى السودان ، فصادر الانجليز أطيانه وأعطوها لحلمى الزعيم بعد أن منحوه رتبة الباشوية ، ملعون أبوه من اليوم الذى كحتوا فيه بحر النيل ، حتى يوم تاريخه !
- آميـن !
- أتمنى من الله أن يبقينى على قيد الحياة حتى أقلع عرق هذه العائلة الخبيثة من سابع أرض ، وكلكم شهود على محاولتهم اسقاطى فى انتخابات العمدية ، لكن الله نصر الحق وأزهق الباطل !

قال له عمى عرابى ضاحكا :
- جئنا لنستشيرك فى مشكلتنا ياحضرة العمدة ، لا أن تخبرنا عن تواريخ عائلة الزعيم .

تجشأ العمدة وقال وهو يتحسس ثوبه الأسود الناعم الملمس فوق الجزء الذى يغطى بطنه الكبير :

ـ اكتبوا لى شكوى ضده وأنا أفضحه لكم فى العالمين !

سارع أبى يقول فى عصبية :
ـ لا ياعمدة .. لا نريد لهذا الكلام أن يخرج من بين هذه الحيطان .
ـ غلـط .
ـ غلط ، غلط .. نحن اشترطنا عليك تحافظ على السر .
ـ هؤلاء ناس يخافون ولا يستحون ، فضحهم واجب .
ـ لا تجعلنا نندم على مجيئنا اليك .
ـ كبرت ياعبدالولى ومازلت على طبعك القديم ؟
ـ كتم الموضوع أكرم لنا ..
ـ يعنى كما كتمت لدغة العقرب ؟

ابتسم أبى دون أن يجيب وتساءل عمى عرابى : أى عقرب ؟
ـ كنا صغار السن فذهبنا الى عُرس فى البر الشرقى ، لدغته عقرب فتحمل آلاماً تعجز عن حملها الجمال دون أن يخبرنا ، قال لا يريد أن يظهر أنه ضعيف أمام الغرباء ، أغمى عليه وكاد يموت لولا الأعمار بيد الله ، سمعت فى حياتك عن بنى آدم بهذا الشكل ؟

ظهرت أسنان عمى عرابى ناصعة البياض وهو يجيب ضاحكا : الطبع جبل .

عدل العمدة من وضع التلفيعة الحريرية حول عنقه وقال :
ـ إنس طبعك القديم واسمع كلامى .. لو فضحنا توفيق بك سنكسب كل الناس الى صفنا .

احنى أبى رأسه وخرج صوته ضعيفا :
ـ سيقول الناس انه استهان بنا والموت أهون من هذا ، ثم لا تنس ولدى "زاهر" ياعمدة .. عصبى المزاج ولو سمع هذا الكلام فهو قاتل أو مقتول .
ـ اشكموا "زاهر" وأنا مصمم على نشر الخبر فى المشارق والمغارب !

توتر أبى وظهر الشريان الذى يشق جبهته حين يغضب ، فتضاحك عمى

عرابى قائلا للعمدة ، وإن كان يحاول استرضاء أبى أكثر مما يؤمن بما يقول :

ـ هل تريد للناس أن يقولوا عنا خافوا من توفيق بك أن يأخذ منهم نساءهم فطلبوا نجدة الحكومة ؟!.. والله وبالله لولا الخوف من الله لفتحنا الحرب مع قبيلته لعشر سنين !

ـ الحروب كانت زمان ياعرابى ، الآن أصبحت لعائلة الزعيم أساليب جديدة تعجز عنها الأبالسة ذاتها ، أطيعونى وافضحوه !

هبط هدهد فوق قاعدة النافذة التى تطل على فناء البيت ، ولما فوجىء بوجودنا ، طار مفزوعا .

قال أبى وهو يعدل من وضع الشال الصوفى حول عنقه :

ـ لا بلاغ ولا كلام فى هذا الموضوع ، وقل لنا عن رأيك ياحضرة العمدة .

صمت العمدة قليلا قبل أن يقول :

ـ على كل حال هو لا يستطيع التحرش بكم علناً اعتمادا على رجال قبيلته لأنهم لن يوافقوه على ما يريد .. واذا سلط عليكم السفهاء ، فقبيلتكم ليست هينة ، عندكم سفهاؤكم أنتم أيضا ..

ـ يعنى نقفل الموضوع ؟

ـ اقفلوه .. زوجة ابنكم فى بيتكم ، لن يرغمكم أحد على طلاقها ، ولو أننى حزين على عدم فضيحة ابن المركوب !

★ ★ ★

حين دخلنا الساحة التى تتوسط النجع ، رأينا عمى الشيخ يوسف الضرير ، حافظ القرآن الكريم ، يجلس على حصيرة ، أمام المضيفة الكبيرة ، بجوار حفيده موسى يقرأ له من كتاب ذى أوراق صفراء :

"دخل عليه رجالات بنى أمية بعد وفاة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأربعة أيام ، فسألهم ـ وكان قد كف بصره ـ افيكم غريب ؟.. قالوا : كلا ، فقط ابن أخت لنا نعده منا ، قال : أبلغوا حمزة بن عبدالمطلب فى قبره بأن

الأمر الذى كنا نتجالد عليه بالسيوف ، يلهو به غلماننا اليوم" .

بالدرب الذى يشق النجع وتقع فى نهايته جمعية التموين ، مجموعات من الصغار يشترون حاجياتهم ، يقفون أمام حاجزها الخشبى ، فى أيديهم زجاجات الزيت وأكياس الدقيق والسكر ، أعينهم الدهشة تعكس قلقاً مبهما .

اتجه أبى الى الحقل وسرت مع عمى عرابى فى اتجاه البيوت ، قال لى بلهجة عتاب :

- كان الواجب تكتم الموضوع عن أبيك .
- لكن الموضوع خطير ياعمى ..
- أنت عارف أن "الحكيم" كشف عليه وقال له قلبك ضعيف وحذره من الزعل ، وأنت رجل "مسعول" وعليك أن تحل مشاكلك بنفسك ، ثم أن امرأتك فى بيتك ولا يقدر أحد أن يطلقها منك ، يعنى لا توجد مشاكل ولا يحزنون .
- حصل خير .

★ ★ ★

جدران بيتنا الطينية ، فى نهاية الفناء أربع نخلات ، النخلة الأم مستقيمة العود ، بدت فخورة بنفسها ، حولها بناتها الثلاث مائلات قليلاً ، يلوحن بجريدهن كأنهن يتهيأن للغناء ، أو للصراخ ، لست أدرى ..

أمى تجلس القرفصاء فى صحن الدار ، شالها القطيفة الأسود ينسدل على ثوبها الداكن ، حمام البيت يتزاحم أمامها ، يلتقط الحَبّ وهى ترنو اليه فى حنان الأم تتأمل صغارها ..

ابتسمت حين رأتنى داخلاً وقالت : أهلاً بالعويل .

أنا وأخى الأصغر "زاهر" فى نظر أمى لا نزيد عن طفلين غريرين لا يفقهان من أمور الدنيا شيئاً وغير قادرين على إعالة نفسيهما .. تلقبنى بالعويل الكبير وتنادى أخى بالعويل الصغير ، برغم أن الدولة ذاتها تعترف بأهميتى وتعطينى راتباً شهرياً ، وبرغم أن أخى لا يكف عن العمل فى

حقلنا حتى أن أبى لا يكاد يفعل معه شيئا الآن ..
- أين أبوك ؟
- نزل الغيط .

ضاقت عيناها فظهرت التجاعيد الدقيقة تحتهما وهى تحدق فى وجهى :
- مالك ؟
- لا شىء ..
- أقعد جنبى شوية .
- سأدخل أرتاح ساعة .

الجازية تقف فى نهاية الفناء ، تغسل مناديلها الملونة فى طشت صغير تضعه فوق مائدة صغيرة ، ابتسمت وهى تزيح الصابون عن يديها وتقول بلهجة مرحة :
- ما رأيك يابنى فى براد شاى من النوع الذى يحبه قلبك ؟
- بعد أن تغسلى .
- مالك ؟
- لا شىء .
- اعمل الشاى ثم أكمل الغسيل .

سارت جذلة فى اتجاه حجرة الموقد والروب الشفاف ، فى لون صبغة الحناء ، يرفرف حولها كالأجنحة .. قبل أن تتوارى التفتت وراءها وابتسمت .. أسعدتنى الابتسامة المشرقة تزغرد فى الوجه البرونزى الجميل الذى أحب إطالة النظر اليه .. ترى .. أين ومتى رأى اسماعيل بن توفيق بك هذا الوجه ليقع تحت فتنته كما وقعت أنا ؟.. ثم ماهذه الجرأة التى كان يتكلم بها الرجل ؟.. يخاطبنى بثقة وكأننى سأقوم من عنده واتجه الى المأذون لأعود اليه بورقة الطلاق ..

دخلت حجرة النوم ، خلعت السترة والبنطلون والقميص الأبيض وأدخلتهم فى الصوان ، ارتديت جلباب النوم واضطجعت على السرير الكبير ..

هل لجراة توفيق بك ، فى حديثه معى ، علاقة بعودة الباشوات والبكوات

فى هذه السنوات الأخيرة ؟.. ربما .. فمنذ حرب أكتوبر حتى الآن اعتدنا أن نرى أشياء فى غاية الغرابة .. أناسا يصعدون وآخرين يختفون دون أن نعرف كيف صعد هؤلاء ولا لماذا اختفى أولئك .. لكن الباشوات والبكوات وأصحاب الملكيات الكبيرة فى الصعيد ، ليس لهم ذلك النفوذ الذى كان يتمتع به أقرانهم فى شمال البلاد .. نحن مجتمع قبلى ـ متخلف كما يقولون ـ لكن عشيرة المرء تغضب لغضبه ومن الصعب أن تصل الجرأة بتوفيق بك إلى أن يرتكب معنا حماقة .. هل يجرؤ ؟.. لا أعتقد أنه يستطيع الاقتراب من الجازية .. لا هو ولا أبوه ولا جده بطربوشه الساقط على أذنيه ، ولا حتى حاميهم الأكبر اللورد كتشنر ذاته .

فى الجدار الذى يواجهنى ، صورة تجمعنى مع الجازية ، هى بثياب العرس وأنا ببدلتى الجديدة ، أقف بجوارها بعودى النحيل وقامتى المتوسطة ، وجهى الذى يقال انه ورث سذاجة وجه أمى يبدو شاحبا ـ بسبب ارهاق الأيام التى سبقت ليلة العرس ـ وعيناى الضيقتان مثل عينى أبى ، تحدقان فى الكاميرا ، فى حين تموج الدهشة فى عينى الجازية الواسعتين ، ومسحة من البراءة على محياها حتى بدت كأنها خائفة .. يسحرنى هذا التعبير منها ، بالذات حين يبدو عليها الاستغراب وترفرف الأهداب الطويلة ..

كثيرون من شباب النجع تقدموا للزواج منها ، لكن والدها كان يخبرها عن كل اسم وحينما ترفضه يقول : "لا أزوجها إلا لمن ترضى به ، هكذا أمر الشرع ، ثم إن ابنتى متعلمة" .. حين تقدمت وذكر لها أسمى ، صمتت فقال السكوت من علامات الرضا ، وأبلغنا بالموافقة .. فيما بعد عرفت انه وافق على أحد أبناء التجار الموسرين ، لكنها هى التى رفضت بإصرار بسبب شهرته بالبخل ، حاول معها لكنها ركبت رأسها ، كما تقول أمها ، لست أدرى هل أخبرها بما حدث معى اليوم أم أكتم عنها الخبر كما يصمم أبى ، ربما لا تصدق اذا أخبرتها ، من غير المعقول أن يطلب شخص من شخص آخر أن يطلق زوجته لكى يزوجها من ابنه ، اننى أعرف الجازية جيدا ، تملك من قوة الشخصية ، ومن الاعتزاز بالنفس ما يجعلها تعتبر ما حدث اهانة لها ..

جاءت تحمل صينية الشاى ، الروب فوق الفستان الرقيق ، لم يخف رشاقة الجسد ، جلست على السرير الكبير ووضعت الصينية بيننا ، تصب الشاى وتتحدث :

ـ اتفقت مع والدتك أن أتولى الطبخ اعتبارا من الليلة ، شهر العسل انتهى .

ـ أنا سعيد لأننى سأتذوق طبيخك .

قالت بلهجة فخر :

ـ سأذبح فراريج واعملها بالسخينة .

ـ اعمليها فى طاجن الفخار .

ظهرت ابتسامة ساخرة على وجهها حلو التقاطيع ، تساءلت :

ـ أضع طاجن الفخار على البوتجاز ؟

ـ ضعيه على الكانون .

رفرفرت الأهداب الطويلة كأنها تحتج :

ـ الدنيا تتقدم وأنت تريد أن تؤخرنا ياعم عامر ؟

ـ دعك من التمدن الفارغ واعمليه فى الكانون .. الفراريج فى السخينة لا طعم لها اذا لم يكن طاجن الفخار فوق نار حطب السنط .

ـ لا تشخط من فضلك !

ـ ماذا فى التليفزيون الليلة ؟

نسيت انفعالها وقالت بحماس طفولى : فيلم أبو حلموس ..

ثم ضحكت فى سعادة :

ـ أنا رأيته من قبل ، لكننى سعيدة لأننى سأتفرج على نجيب الريحانى وهو يسخر من ناظر العزبة ، كبير المقام ، عباس فارس ، دون أن يعرف أن محدثه هو نفسه ناظر العزبة .

ـ لو أن أمك معنا الآن ، لما فهمت شيئا من كلامك هذا .

مالت بعنقها اللطيف الى الوراء وقالت بغرور مصطنع :

ـ لا تنس اننى مربية فاضلة ياأستاذ .

ضغطت على كلمة "فاضلة" وهى تضحك ، فضحكنا معا ..

هبطت من السرير ووقفت أمام المرآة تمشط شعرها الأسود الطويل وتتأمل وجهها بأنفه الدقيق ، وترمقنى من خلال المرآة ..

برغم أننا مدرسان ، أنا وهى ، فى مدرسة بلدنا الابتدائية ، إلا أن علاقتى بها بدأت قبل ذلك .. حقلهم يجاور حقلنا فكنا ، أنا وهى ، نساعد أهلنا فى الاجازات الدراسية بتولى الأعمال التى يعتبرونها سهلة ، مثل "حشّ" البرسيم ، وسقى المواشى فى النيل ، وإلقاء البذور فى الخطوط وراء قائد المحراث .. كنا نتبادل الحديث دائما فى حضور أبى وأبيها ، لكننا نتبادل الكثير من النظرات المشحونة بالعاطفة من وراء ظهريهما ..

ـ فيم تفكر ياعم عامر ؟

ـ لا شىء .

أشارت الى الصينية : الشاى برد .

تناولت كوبى ورشفت منه .. هل أخبر الجازية وأطلب منها ألا تخبر أحداً ، أم أنها سوف تضعف وتخبر أمها وتتولى الأم إذاعة الخبر فى النجوع ؟.. الحق انى لا أحب والد الجازية ولا والدتها .. أبوها هو الوحيد فى نجعنا الذى يرفض المشاركة المالية فى الأمور التى تخص القبيلة .. عمى عرابى يسميه "الباطل" وهى كلمة تعنى "الجبان" فى لهجة قومنا .. بعد أن وافق على زواجى من الجازية قال لأبى : "البنت بنتك والولد ولدك .. قم أنت بتجهيز كل شىء ولا تسألنى" !

حاول أبى أن يقنعه بأن آباء البنات يتكفلون بعبء لا يقل عن عبء آباء الأولاد ـ منذ عهد سيدنا آدم حتى الآن !ـ لكنه أصر على رأيه وأضاف : "لا تنس أن ابنتى تقبض راتبا شهريا سينتقل اليكم ، أنتم الفائزون فى هذه "البيعة" !

كان المفروض ان ابْتَنى لنفسى بيتاً جديداً ، لكن تخلى والدها عن الإسهام فى نفقات العرس ، أوقف المشروع ..

فى بيتنا ـ وهو بيت جدى أصلا ـ حجرتان منعزلتان تقوم أمامهما

سقيفة ، تزوجنا فيهما أنا والجازية الى أن ندخر مبلغا من المال نبنى به بيتنا الجديد .. انفى سعيد بالجازية وأعتقد أنها سعيدة بى .. جميع أصدقائى يداعبوننى بقولهم : مالك ياعم .. فزت بملكة جمال النجع .. حظك من حديد .

هل أخبر الجازية أم أكتم عنها الخبر ؟

عادت للجلوس بجوارى على السرير ذى الأعمدة النحاسية وهى تسألنى :

ـ مالك ياعامر ؟

ـ لا شـىء ..

هبطت من السرير وجلست فوق سرير الحبال ، كما تفعل حين تتغاضب ، قالت :

ـ نزل عليك سهم الله ؟..

رفعت راسى أحدق فى السقف لعلى أتذكر شيئا أشغلها به ، لاحظت أن أحد عروق الخشب ، التى تحمل السقف ، ظهرت به بقعة طينية يابسة ، أشرت اليها متعجبا :

ـ ماهـذا ؟

رفعت راسها تنظر الى عِرْق الخشب ، سال شعرها وراءها حتى غطى ظهرها ، قالت : لا أعرف .

ـ ما الذى جاء بهذا الطين هنا ؟

أدارت عنقها بسرعة فى اتجاهى ، قالت بلهجة اتهام :

ـ لا تحاول تغيير الكلام وقل لى ماذا يشغلك ؟

الغضب المصطنع أعطى وجهها تعبيرا طفولياً محبباً .. هذا وجه يأسر من يقع نظره عليه ولا يجد لنفسه فكاكا منه ويبدو ان متاعب جمة تنتظرنى بسببه ..

ـ لماذا لم ترد ؟

ـ فاكرة ياجازية لما أمك قالت انك شبه كعكة العيد ؟

ـ قصدها فى المذاق وليس فى الشكل .
ـ لم يعجبنى التشبيه ، لكننى اغفر لها لأنها انجبتك يابنت .
ـ لا داعى لحكاية "بِنْت" هذه من فضلك .
ـ حاضر يابِنْت !
ـ دعك من اللف والدوران يابنى وقل لى ماذا يشغلك ؟
ـ لا شىء ..
ـ إذا لم يكن هناك ما يشغلك ، أكون انا لا أفهم شيئا .
ـ أنت فعلاً لا تفهمين شيئا .

ضحكت فاهتز عودها اللدن ، ومددت كفى إشارة الى أن تجلس بجوارى ..

وقفت بسرعة وخلعت الروب الشفاف وعلقته على المشجب ، رفعت صينية الشاى ووضعتها على المائدة ذات المفرش المزركش ، ثم قفزت فى رشاقة لتكون بجوارى .



- ٢ -

سمعت طرقاً خفيفاً على باب حجرة النوم ، حين فتحت وجدت أخى "زاهر" قال مداعبا :

- أنت والجازية لا تريدان فك الاشتباك بينكما ؟!

زاهر يصغرنى بعامين ، لكنه أطول وأعرض ، وسيم الوجه والعينين ، يعشق الحقل ويبيت فيه أكثر الليالى ، كان يهرب من المدرسة برغم أنه أذكى من كثيرين واصلوا الدراسة ، يقول انه لا يطيق الجلوس فى مكان واحد لساعات طويلة ..

- أهلا يازاهر ..
- مـراحـب ..

وجهه الأسمر يتفجر صحة وحيوية ، حاجباه المقرونان يتناسبان مع جبهته العريضة ، عمامته ذات الطيات تميل الى الجانب الأيسر دلالة على الاعتزاز بفتوته ، حول عنقه شال ذهبى اللون من الصوف الرقيق ، جعل طرفه فوق العمامة ، قال بصوته الأجش :

- الولد ابن حميدة التقى بى وقال ان توفيق بك ينتظرك فى بيته مساء اليوم .

انفعلت بلا ارادة منى : يغور فى داهية !

دهش وتساءل : ما السبب ؟

- أدخل يازاهر ..
- لماذا أنت غاضب عليه ؟
- لا تهتم ، مجرد صداع يضايقنى .. أدخل .
- عندى عمل فى الغيط ، سلام عليكم .

عدت الى الداخل ، الجازية مضطجعة على السرير الصغير ، تتصفح

مجلة الكواكب ، رفعت رأسها تنظر الىَّ ، حين تطلعت الى العينين اللتين تشعان بالذكاء ، نسيت انفعالى ، سألتنى :

- لماذا ترفض مقابلته ؟
- ولماذا أذهب ؟
- اتسعت عيناها ورفرفت الأهداب الطويلة :
- هل تعرف لماذا يريدك ؟
- لا ..
- أليس المفروض أن تذهب اليه لتعرف ؟

أردت التخلص من الموقف ، قلت :

- لا تشغلى نفسك بهذا الموضوع ياجازية .

اعتدلت فى جلستها ، قالت بلهجة ضاحكة وان خالطتها دهشة :

- ياناس .. يامسلمين .. ياهوه .. توفيق بك .. الرجل العاقل .. كبير المقام .. يطلب مقابلة بنى أدم ، فيرفض هذا البنى آدم مقابلته ، حتى من غير ما يعرف السبب ؟

لم أجد ما أجيب به فقلت أشغلها وأنا أشير الى المجلة فى يدها :

- الكواكب كاتبة حكاية ظريفة عن صاحبتك سعاد حسنى .. ما رأيك فيها يابنت ؟
- لا تغيّر الكلام ياعم عامر وقل لى عن السبب فى رفضك لمقابلة توفيق بك ؟
- سعادته مصمم أعطى ابن أخته دروسا خصوصية .
- وماله ؟.. وافق .
- لا أحب مخالطة هؤلاء الناس .
- غلط .. الاحتكاك بتوفيق بك يشرف أى إنسان .. رأيى أن توافق .

لم أجد بدا من الخروج للتخلص من الموقف .. تناولت "بَلوڤر"* صوفيا ، لبسته فوق الجلباب الأبيض وقلت :

- الحاج أحمد العبادى أوصانى أعطى ابنه درسا خصوصيا .. كدت أنساه .

- لكن اليوم هو الجمعة ، وأنت لا تعمل فيه ؟!

خرجت فسمعتها تقول متهكمة :

- زوجى يحتفظ بأسرار لا يريدنى أن أعرفها .. عجائب !

★ ★ ★

وجدت خالى يجلس فى الحجرة التى يحبها فى فصل الشتاء .. أمامه وقاد النار يستدفىء على جمره المتوهج ، تحته فروة لبضعة خراف بيضاء موصولة ببعضها ، مفروشة على حصيرة من السعف الملون ، يحرك كنكة البن فى الرماد الساخن ، بين يديه علبة فى حجم عُقلة الأصبع ، يضع فيها الأفيون ..

رغم أنه اقترب من الثمانين فمازال وجهه النحاسى يوحى بالشخصية القوية التى كانت ، العينان غائمتان ، والأنفُ له عرنين ، شعر صدره الأشيب يطل من فتحة القميص ، واليد التى تمسك بالكنكة بدت قوية واثقة من نفسها ، حينما يقف يبدو طويلا ، عظام جسده العريضة تجعله يبدو ممتلئا ، قال باسما :

- ابوك أخبرنى .

- أخبـرك ؟

- توفيق بك طمع فيكم ، وأنا كان من رايى أن تذيعوا الخبر ..

- إذاعة الخبر تجعل الناس يستصغروننا فى نظرهم .

- يعنى انت موافق الوالد ؟

- طبعا ياخالى .. ولا تنس "زاهر" .. ربما تهوَّر .

صمت للحظة قبل أن يقول :

- طيب .. انسوا الموضوع ، وهو قطعا سينساه .

تذكرت النزاع بين خالى وبين توفيق بك على ملكية خمسة قراريط تقع فى منطقة سكنية .

- فيه أخبار جديدة عن القضية ياخالى ؟

ظهر الألم على وجهه فخمنت أن آلام الروماتيزم عاودته :

- الأحوال كما هى .. كلما قدمنا دليلا جديدا ، قدم توفيق بك دليلا ضده ، لكن المحامى طمأننى .

العباءة انزلقت وتكومت خلف ظهره فلم يشعر بها بسبب دفء الحجرة .. أفرغ الكنكة فى فنجانين من الخزف الأبيض عليهما رسوم نباتية داكنة الحُمرة ، مدّ لى أحدهما وقال :
- هو لا يستطيع التحرش بكم خوفا من الفتن بين القبائل ، وحرصا على الأصوات فى الانتخابات .
- قبيلتنا لا تعطيه أصواتها .

وضع قطعة الأفيون فى فمه وأردفها برشفة قهوة مكتومة الصوت :
- بعضكم يعطيه .
- عائلة "المحافيظ" فقط .

لوّح بذراعه فى ضيق :
- عائلة جبانة ، موتها أفضل من حياتها .

لو أن الجازية سمعت خالى يقول هذا عن أبيها وأعمامها لحزنت مدى الحياة ..

دخل علينا ولده "محروس" بقامته المتوسطة ومنكبيه العريضين ، وجهه الممتلىء ، ورث ملامح أمه ، له عينان واسعتان بهما جحوظ خفيف ، أنف عريض ، حاجبان خفيفان ، فى مثل سنى ، تخرج منذ بضع سنوات فى كلية الحقوق ، يعمل فى المجلس القروى ، صافحنى وقال لأبيه :
- عبدالوارث اشترى التليفزيون الملوّن .
- ملوّن ؟
- الصورة فيه تشرح القلب ، سأشترى لنا واحدا ..

غمغم خالى فى ضيق :
- تليفزيوننا كويس .
- لملم محروس جلبابه الصوفى الأزرق ، ورفع طرف الجاكتة التى يرتديها فوقه ، وجلس متربعاً مادا كفيه يستدفىء على جمر الوقاد ، قال

بلهجة قاطعة :
ـ لازم نشتريه .
ـ كم ثمنه ؟
ـ الثمن غير مهم .
ـ سمعت أنه أربعة أضعاف ثمن تليفزيوننا !!
ـ ولـو .
ـ وفر ثمنه لحاجة أهم .
ـ لا يمكن .. كل الناس اشترت الملون .

مرت فترة صمت لم نسمع خلالها غير طقطقة الجمر فى الوقاد وصوت ذكر حمام يغازل أنثاه خارج الحجرة ، رفع محروس كفه ومررها على شعر رأسه الغزير الخشن وقال :
ـ لماذا لا تشترى الملوَّن ياعامر ؟
ـ الميزانية لا تسمح .

قال ضاحكا :
ـ لا تسمح وأنت تنهب فى عباد الله بالدورس الخصوصية ؟

لم أجب فاطلق ضحكة مجلجلة أوحت بفراغ صاحبها من الهموم .. أنت محظوظ يامحروس ، تذهب لعملك مرتين فى الأسبوع على الأكثر ، وتحتفظ بمرتبك لنفسك ، ولا تشارك فى مصروف البيت بقرش واحد ، ولدى أبيك أربعة بيوت تستطيع أن تقيم فيما يروق لك منها ، ثم أن لا أحد يطمع فى انتزاع زوجتك منك !

سمع صوتا يناديه من الخارج فنهض قائلا :
ـ عن اذنك ياعامر ..

رشف خالى من فنجان القهوة وقال كمن يخاطب نفسه :
ـ هذا الولد سيخرب بيتى .. هو الوحيد الذى تعلم من أولادى ، اقلهم دخلاً وأكثرهم انفاقاً ، تزوج مرتين ، وطلق مرتين فى أقل من سنة ، والآن يريد الزواج من ثالثة وشراء تليفزيون ملوّن !

ساد الصمت ووضح الحزن على تجاعيد وجهه الدقيقة ، قلت محاولاً شغله عما هو فيه :

- ياترى توفيق بك ممكن يتحرش بنا ؟

رفع رأسه وقال فى حسم :

- لو تحرش بكم ، قبيلتنا ستكون معك .
- لكن قبيلتكم لا تنحاز لنا ياخالى .
- عندما انضم اليكم أنا وأولادى وأبناء عمى الأقربون ، ستجاملنى غصباً عنها .. اطمئن .. لا توفيق بك ولا ألف واحد مثله يقدر يطمع فى امرأتك .

رشفت من فنجان القهوة بنشوة ، وشملنى احساس غامر بالأمان .

★ ★ ★

هبطت من الجسر الذى يشق مزارع قبيلتنا حين سمعت صوتاً ينادينى .. ابنة عمى الناعسة ، المدرسة بمدرسة بلدنا الابتدائية تقف فى ظل نخل عمى عرابى .. عليها فستان ذهبى بدا منسجماً على جسدها النحيل ، تلف راسها بايشارب أبيض أعطى وجهها الأسمر الرقيق رونقا .. اعتقد انها تنتظر خطيبها "بشير" ..

اهلا ياناعسة ..

- سمعت بالمشكلة الجديدة ؟.. الحكومة تقيس الطريق العمومى لتوسيعه وسفلتته ، يقولون بعض البيوت جارت عليه ولابد من إزالتها .
- بيتنا منها ؟
- نعـم .

أسرعت الخطى فى اتجاه الطريق العمومى .. العمدة ومعه عدد من الموظفين يفردون أمتارهم ، حولهم جمع من الناس منهم أبى وعمى عرابى .. قال أخى زاهر بلهجة وعيد :

- أى واحد يقترب من بيتنا ، سأقطع رأسه !

قال العمدة يخاطب أبى : قُل لولدك يلزم الأدب .

صاح أبى فى زاهر : أخرس ياولد .

قال زاهر : كيف اخرس وبيتنا مهدد ؟

تقدم عمى عرابى من زاهر واحتضنه ، ثم أطلقه وسار به ، واضعاً يده على كتفه ، حتى وقفا فى نهاية أحد الدروب ، تهامسا لفترة ، لزم بعدها زاهر الصمت .

جاء ابن عمى بشير الذى يسمونه الزنديق ، بجسده النحيل الذى يميل الى الطول ، عليه "بلوفر" أسود فوق القميص والبنطلون ، فى سن اخى زاهر تقريبا ، تقدم من العمدة وسأله :

- الطريق العمومى يشق أكثر النجوع ، فلماذا بيوت نجعنا بالذات تتعرض للهدم ؟

ابتسم العمدة وهو يقول بلهجة أبوية :

- بيتكم بعيد عن الطريق ولن يتعرض للهدم ياأستاذ .

- أنا لا أتكلم عن بيتنا .

- ماذا تريد منى بالضبط ؟

- بيت ابن عمك ادريس يعترض الطريق وكل الناس تعرف أنه جار عليه ، فلماذا تجنَّبه التوسيع ؟

اكفهر وجه العمدة وقال بحدة : يعنى الحكومة حبستك وتريد أن تنتقم منى أنا ؟

- أنت لم تجب عن السؤال .

- ومن أنت حتى أجيب على سؤالك ؟

- لا تخرج عن الموضوع .

صاح العمدة مستنجدا : ياشيخ عرابى .. ياجماعة .. ابعدوا عنى هذا الولد الزنديق قبل أن أغلط وتزعلوا منى .

أمسك عمى عرابى بذراع بشير وشده الى الخلف برفق :

- خلنا نتفاهم على "المَسْعَلَة" بالهداوة ياأستاذ .

تخلص بشير من يد عمى عرابى فى اللحظة التى وصلت فيها خطيبته الناعسة .. وقف أمام العمدة حتى كاد أنفه الحاد يصطدم بأنف الآخر .. بدا منظر بشير بوجهه النحيل وشعر رأسه المهوّش مثل ديك يتحفز لمبارزة ذكر ضخم من البط .. وكان العمدة يقول لحظتئذ :

ـ لابد من تنفيذ أوامر الحكومة .

ـ لكن الحكومة تأخذ رأيك فى هذه الأمور ، وواضح أنك متحيز .

ـ هل ستنظم مظاهرة ضدى كما فعلت مع زوجة شاه ايران ؟

تجمع كثيرون حول بشير يبعدونه عن العمدة فلم يهدأ إلا بعد أن أمسكت الناعسة بذراعه وقالت بلثغتها التى تنطق الراء غيناً : أرجوك يابشير .

وقال عمى عرابى ضاحكاً : كل جن وله بخور !

وكان الموظفون على بعد منهمكين فى قياس الطريق وحولهم الخفراء ببنادقهم ، وقال العمدة يخاطب أبى وعمى عرابى كمن يدافع عن نفسه :

ـ توفيق بك هو سبب كل هذا البلاء ، أوعز الى أقاربه من المسئولين فى المحافظة بأن بيوتكم جارت على الطريق .

ـ قال اخى زاهر بدهشة : لكن ليس بيننا وبين توفيق بك أى عداء ؟

التفت أبى الى زاهر ، حاول أن يبعد أنظاره عن الموضوع الأساسى ، قال وهو يحاول أن يبتسم :

ـ العمدة يقصد أن العداء بسبب عدم حصول أخيه على أصواتنا فى الانتخابات .. والآن ، اذهب الى خالك وقل له انتظر أبى فى البيت بعد صلاة العصر ، هيا .

انسحب زاهر وقال أبى : تكلم "بالسين" ياعمدة ، أنا كتمت الموضوع الذى تعرفه عن كل الناس .

ـ غلـط ..

ـ غلط غلط .

ـ تلقوا ما يحدث لكم واكتموا ، أنتم أحرار .

قال عمى عرابى :
ـ خرائط البلد عندنا .. نحن نعرف أرضها حوضا حوضا ، قطعة قطعة .. لا توجد زيادة فى بيت عبدالولى ولا فى أى بيت من بيوت نجعنا .

رفع العمدة يديه بكمهما العريضين الى أعلى ، على طريقة من يهم باقامة الصلاة وقال :
ـ بصراحة أنا لا أستطيع الاعتراض على هذا الموضوع حتى ولو كان ظالما .. القانون يقول من حق الحكومة أن تنتزع ما تراه من أرض أو بيوت فى سبيل المنفعة العامة .

تنهد أبى وقال كمن يخاطب نفسه :
ـ هذا الطريق موجود بحالته هذه منذ أيام فرعون ، فما الذى جرى ؟!
تلفت العمدة حوله ، ولما اطمأن الى أن أحداً لا يسمعه غير أبى وعمى عرابى قال بسخرية :
ـ اسألوا توفيق بك !

★ ★ ★

عقدنا جلسة سرية فى بيت عمى عرابى لم يحضرها غير أبى وغيرى ..
قال عمى عرابى وقد بدا مهموما :
ـ الموضوع أكبر منا ياعبدالولى ياخُوىْ .. واضح أن توفيق بك قصد مضايقتنا ، ولابد من الاستعانة بأهل المشورة من أبناء قبيلتنا فى القرى المجاورة .

أطرق أبى قليلاً ثم رفع راسه بعمامته الكبيرة وقال :
ـ موافق ، لكن لا تخبرهم عن موضوع امرأة ولدى !
ـ نخبر شخصين أو ثلاثة فقط .. الأستاذ دسوقى ، والشيخ الغضبان ، والشيخ حسن الكومى .
ـ لا ..
ـ هؤلاء لابد أن يعرفوا الموضوع على حقيقته لكى يساعدونا على الهم .
ـ قيمتنا ستهبط فى نظر أولاد عمنا !

- افهمنى الله يرضى عليك .. إذا لم نخبرهم عن السبب الحقيقى ، لن يتحركوا .

تدخلت معززا موقف عمى عرابى :
- هؤلاء الثلاثة مهمون ، نخبرهم أفضل .

مرت فترة صمت قبل أن يقول أبى :
- نخبر الأستاذ دسوقى فقط .
- والشيخ الغضبان .
- لا .
- الشيخ الغضبان مهم .
- قلت لا ..

تضاحك عمى عرابى وقال :
- خلاص ، خلاص ، يكفى الأستاذ دسوقى .

دخلت علينا سميحة ابنة عمى عرابى بوجهها الصبوح ، كأنها الوردة التى تفتحت لتوها .. جلبابها الأحمر ينسدل على قوامها الرشيق حتى الكعبين ، على رأسها شال قطيفة أصفر ، دار على وجهها بعينيه الواسعتين ، تحمل صينية عليها ابريق شاى أزرق مع أكواب صغيرة ، قالت تخاطب أبى :
- سلام ياعمى ..
- أهلا ياسميحة ..

تأملها أبى فى حب ، أخى زاهر يتحفز لخطبتها خلال الشهور القادمة ، ربما بعد حصاد القمح ، قام أبوها وتناول منها الصينية ، وضعها على المائدة ومضى يصب فى الأكواب ..

توليت كتابة تسع رسائل لتسعة أشخاص كل منهم يقيم فى قرية .. طلبنا منهم الحضور الى بلدنا لسبب خطير يهم القبيلة كلها وحددنا الموعد .. وكانت الرسائل بتوقيع "عرابى وعبدالولى وعموم الجماعة" .

أغلقت كل رسالة داخل ظرف ، ووزعها عمى عرابى على عدد من طلبة

المدرسة الاعدادية ، من أبناء القبيلة ، ليسلموها الى أصحابها .. بعضهم ركب الباصات ، وبعضهم عبر النيل ، وركب آخرون الحمير الى القرى ذات الطرق الوعرة ، أما عمى الأستاذ دسوقى ، فقد ذهب اليه عمى عرابى بنفسه .

★ ★ ★

فى طريقنا الى المدرسة ، أنا والجازية ، الصغار بحقائبهم المدرسية يملأون طريق النيل الذى تعلوه زراعات القمح والبرسيم ، يصخبون ويتقافزون ، على الجازية فستان طويل ، حسب الموضة ، تزينه ورود قرمزية على أرضية بيضاء ، بدا رائعا عليها بقوامها الممشوق الذى يميل الى الطول ، شعرها ملموم فيما يشبه التاج ، منظرها الآن مثل الملكات فى الأفلام التاريخية ، الصغار يرمقونها فى اعجاب ويبتسمون لها ، حينما تمشى الجازية يخيل لمن لا يعرفها أنها تتيه بجمالها فى حين أنها لا تقصد شيئا من هذا .. كل ذنبها أن الله منحها هذه القامة الرشيقة وهذا الوجه الفاتن الذى يبدو متغطرسا وهى أبعد ما تكون عن الغرور .. قلت مداعبا دون أن يسمعنا الصغار :

ـ الفستان رائع عليك يابنت .

لم تجب ، سألتها : مالك ؟

ـ لو هدموا البيوت ، بيتكم سيضيق بنا .

ـ فعلا ، ربنا يستر .

ـ نسكن عند أهلى .

ـ لا ..

ـ أيـن ؟

ـ لماذا نتوقع الشر ؟

ثمة مراكب شراعية فى النيل ، كثيرون يمرون بنا فى الطريق يركبون حميرهم فى طريقهم من الحقول وإليها ، يلقون السلام فى مودة ، قالت :

ـ افرض هدموه ؟

ـ لن يهدم بإذن الله .

- أقول افرض .
- نستأجر بيتا من عمى الشيخ رزق .
- من تلك البيوت التى كان يؤجرها للمدرسين الغرباء ؟
- نعـم .
- هى بيوت قبيحة .
- نسكن فيها مؤقتا الى أن نبنى بيتنا .
- لا أسكن فى بيوت عم رزق أبدا .
- أين نذهب إذن ؟
- عند أهلى .
- لا أحب السكن مع أهلك .
- انت تكره أهلى .
- لا أكرههم ، لكن السكنى معهم ربما تسبب مضايقات لنا ولهم .
- اذن ، نشرع فى بناء بيتنا .
- لا يوجد المال اللازم ، وأنت عارفة .
- مادمت لا تملك مالا ، لماذا رفضت عرض توفيق بك لإعطاء دروس خصوصية لابن أخته ؟
- قلت لك لا أريد الاختلاط بهؤلاء الناس .
- لكنه سيجزل لك العطاء ..

اللعنة .. انى غير مستعد الآن للخوض فى مناقشات عقيمة .
- نؤجل الكلام فى هذا الموضوع ياجازية .
- كيف نؤجله وبيتكم معرض للهدم ؟

أشار أحد الصغار الى النيل وقال : انظروا ..

رأيت زورقا بخاريا يتجه الى الشاطىء ، حين اقترب تعرفت على بعض الوجوه من أبناء قبيلتنا الذين يسكنون احدى قرى الشاطىء الآخر ، جاءوا تلبية لرسائلنا ، قلت للجازية :
- اخبرى الأستاذ الناظر بأننى فى اجازة عارضة .

★ ★ ★

غصت مضيفة القبيلة بأبناء نجعنا يرحبون بحوالى ثلاثين رجلاً جاءوا من القرى التى تقع شرق النهر وغربه ، جميعهم يتزعمون فروع قبيلتنا فى قراهم ، تميز منهم إثنان : عمى الأستاذ دسوقى الذى كان موظفاً كبيراً فى البندر قبل أن يحال إلى المعاش ، وقد اشترى ما يقرب من أربعين فداناً ، والثانى عمى الشيخ الغضبان الذى ورث عن أبيه حوالى ثلاثين فداناً ، باع أكثرها بسبب كرمه الذى يصل الى حد السفه ، وهو مشهور بقوة شخصيته مع شيء من عصبية المزاج حتى غلب عليه لقب "الغضبان" .

كان مظهر الضيوف متفاوتاً .. الذين جاءوا من شرق النهر ، حيث تلاصق قراهم البندر ، يرتدون جلابيب أنيقة ، رءوسهم عارية ، بعضهم بالزى الأوربى ، خير من يمثلهم عمى الأستاذ دسوقى ببدلته ذات التفصيل الحديث ورباط عنقه الأحمر ..

وفود غرب النهر لا يختلفون كثيرا عن أهل نجعنا ، تبدو عليهم الخشونة ، عمائمهم ضخمة ، أبعد ما يكونون عن الاناقة ، خير من يمثلهم عمى الشيخ الغضبان بثوبه الأسود الفضفاض وعمامته التى تكفى لعمل شراع ..

تناثروا على الأرائك الخشبية ، بجوار كل منهم جلس واحد أو أكثر من أبناء نجعنا ، يتحادثون فى ودّ ، يسألون عن الأولاد والبنات ، أشار اليهم ابن عمى بشير الزنديق وقال لى هامسا :

ـ نشأت وأنا أعتقد ان كل واحد من هؤلاء عمى أو ابن عمى ، سواء من يقيمون فى بلدنا أو فى غيرها ، ماداموا جميعا يحملون اسم جدنا الأكبر الذى يبعد عنا بثلاثين جداً ..

ثم صمت للحظة قبل أن يستطرد متفلسفاً :

ـ النظام القبلى فى غاية التخلف ، خاصة فى مسألة الانتخابات حيث ينتخب الفرد ابن قبيلته حتى لو تعارض هذا مع فكره السياسى ـ إن وجد ـ إلا أن هذا النظام بمثابة المؤسسة السياسية والاجتماعية التى تدافع عن الفرد فى قرى الصعيد ومدنه الصغيرة ، وسوف يظل هذا النظام قائماً ، بحسناته وعيوبه ، مادامت هذه المؤسسات السياسية والاجتماعية غائبة .

ساد الصمت فى المضيفة حين وقف عمى عرابى ليخطب :
ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نحن نرحب بكم ياأولاد العم ، وربنا ما يحرمنا منكم ، والحقيقة حصلت معنا "مَسَاعِلْ" كبيرة ، لا نقدر على حلها وحدنا ، فأرسلنا اليكم ، ويد الله مع الجماعة ، والحكاية وما فيها ان اخواننا من قبيلة "الزوايدة" زعلانين لأننا لا نعطيهم أصواتنا فى الانتخابات ، وكبيرهم توفيق بك ، يعمل لنا مضايقات ، آخرها سلط علينا أولاد عمه من الموظفين الكبار ، ليوسعوا الطريق العمومى ، وقالوا ان بيوتنا أكلت منه ، وهذا الكلام كدب ، والخرائط حدانا ، لكن الحكومة تسمع كلام توفيق بك ولا تسمع كلامنا ، فاذا تحركتم ، كل واحد من جهته ، تقدروا تعملوا حاجات كثيرة ، وربنا قال ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وقف عمى الأستاذ دسوقى ، وهو الوحيد الذى يعرف بمشكلة الجازية وخطب :
ـ أولاً أنا سعيد لأن هذه المشكلة اتاحت لى فرصة لقاء أكبر عدد من أبناء العمومة .. فالإنسان يسعد حين يجد نفسه وسط عزوته .. فالإنسان بلا عزوة ، مثل الشجرة بلا جذور .. ثانياً أنا أعتبر قبيلة "الزوايدة" أولاد عمومتنا أيضا .. كل ما هنالك أن الله فتح على كبارهم ـ أسرة آل الزعيم بالذات ـ بالجاه والمال والعاقبة لنا جميعا ان شاء الله ، وأنا مستعد أتدخل فى الأمر بنفسى وأقابل توفيق بك وأطلب منه التدخل فى مسألة هدم البيوت ، بشرط أن توافقوا على استرضائه بأن تعطى قبيلتنا مرشحهم نصف أصواتها فى الانتخابات القادمة ، وجبر الخواطر على الله ، والسلام عليكم ورحمة الله .

ارتاحت نفسى لاقتراح عمى الأستاذ دسوقى ، بالرغم من أننى لم أكن لأرضى أن نعطى أصواتنا تحت التهديد .. واضح أن علم عمى الأستاذ دسوقى بموضوع الجازية ، جعله يتصرف بشىء من اللباقة ، لكن عمى الشيخ الغضبان رفع سبابته فى حجم كوز الذرة وقال فى حسم :
ـ ولا صـوت !

ضايقنى قوله ، نظرت الى أبى فرأيته فاغر الفاه محدقا فى وجه عمى الشيخ الغضبان الذى اضاف بصوته المبحوح :

ـ تغور البيوت !

ارتفعت أصوات كثيرة من الضيوف تؤيد عمى الشيخ الغضبان ، حتى بعض أبناء نجعنا ، ممن لم يشمل التوسيع بيوتهم ، أيدوه ، فبدا الغضبان بوجهه الصارم ، شديد السمرة ، وشفتيه المزمومتين ، سيد الموقف ، وسمعت عمى عرابى يقول لأبى بصوت هامس :

ـ لو الشيخ الغضبان عرف بالموضوع الأصلى ، فسيوافقنا على رأينا وكلهم سيوافقون ياعبدالولى ياخوى .

كانت أضراس أبى مجسمة على جانب وجهه وهو يصر عليها قبل أن يجيبه :

ـ وربما لايوافقون وأكون فضحت نفسى من غير ثمن .

تذكرت إصرار الجازية على السكن عند أهلها فأحسست بالبرودة تسرى فى أطرافى ، لكن الأمل عاودنى حين وقف عمى الأستاذ دسوقى ليخطب من جديد :

ـ يا إخوان .. ليس بيننا وبين قبيلة الزوايدة وكبيرهم توفيق بك أى شىء .. لا ثأر قديما ولا اغتصاب أرض ولا شىء من هذا .. كلها خلافات بسيطة تحدث بين أفراد الأسرة الواحدة ، وهى ناتجة أصلا لأننا جيران فى غالبية القرى والنجوع .. ونحن لايوجد عندنا من يرشح نفسه للانتخابات لأننا فقراء ، والزوايدة أيضا فقراء مثلنا لكن كبيرهم توفيق بك وعائلته هم الأغنياء فقط ، فما الذى ينقص منا لو أعطيناهم أصواتنا كلها ؟ .. ان أسرة الزعيم ـ توفيق بك واخوانه وأباه وأعمامه وأولاد عمه والمرحوم جدهم ـ لهم افضال كثيرة علينا ، ولم يتأخروا عن مساعدتنا فى حل اى مشكلة بيننا وبين الحكومة ، فلماذا لانحافظ على صداقتهم ونعطيهم نصف الأصوات أو حتى الأصوات كلها ؟ .. اننى أتمنى أن

توافقونى على نصف الأصوات قبل أن أذهب لمقابلة البك ، والرأى لكم .

رفع عمى عبدالمعبود ، والد الجازية ، يده وقال :

ـ كلامك فى عين الجد يا استاذ .. عائلة الزعيم لم تتأخر عن نجدتنا ، وأنا أول من يؤيدك .

أحببت عمى عبدالمعبود فى هذه اللحظة برغم اننى لم أدهش لقوله حيث إن أسرته تعطى أصواتها دائما لآل الزعيم .

وقف عمى حافظ تارك الصلاة وقال :

ـ انا بيتى داخل مع البيوت المطلوب هدمها يا أستاذ ، وطبعا يهمنى عدم هدمه لأنه يلملم لى البنات وأمهم ، لكننى زعلان والله ، مارأيك لو قابلت توفيق بك وطلبت منه يتوسط عند الكبارات فى الحكومة من غير حكاية الأصوات ؟!

ضحك عمى الأستاذ دسوقى ، وضحك غالبية الحضور ، ربما لمنطق عمى حافظ تارك الصلاة ، وربما لمنظره المتواضع بجسده النحيل وعظام وجهه البارزة ، وثيابه الرثة .

تلفت عمى حافظ حوله فى دهشة حين رآهم يمعنون فى الضحك وقال بلهجة من ينهرهم : قلبتوها مضحكة ؟ .. الله يقلقل أمواتكم !!

صمتوا وان كانت الأسارير مازالت باسمة ، ووقف أبى وقال :

ـ ياجماعة .. نحن لانمانع فى أن نعطيهم بعض أصواتنا .. الموضوع عويص والذى يده فى النار غير الذى يده فى الماء ، ونرجوك ياشيخ غضبان توافقنا .

وقف شقيق أبى الأصغر ، حجازى ، بقامته المتوسطة ، وجسده الممتلىء ، ووجهه المربع ، قال :

ـ انا رأيى نعطيهم ربع الأصوات فى كل القرى التى تسكنها قبيلتنا ، لأنهم بالفعل ناس طيبون ، بالذات توفيق بك وشقيقه طوسون .

وقف عمى عرابى باسم الوجه وقال :

- نوافق على ربع الأصوات ، سايق عليك النبى توافقنا ياشيخ غضبان .

اتجهت الأنظار الى عمى الشيخ الغضبان الذى بدا كالطود فى مجلسه ، كان وجهه متجهما وفكه الأسفل يتحرك يمنة ويسرة ، وأصابعه تنقر على عصاه الشومية ، ويصدر عنه صوت شبيه بصوت القط حين « يتلو » قال :

- أعطوه كل أصواتكم فى بلدكم هنا اذا أردتم ، لكن لادخل لكم بالبلاد الأخرى .

تكلم أكثر من واحد من زعماء الفروع فى القرى :
- كلام مضبوط ..
- لو أعطيتموهم كل أصواتكم ، لن نلومكم .
- أعفونا من هذا الموضوع ..

الوحيد الذى وافق هو عمى الشيخ حسين الكومى ، زعيم فرعه فى قرية (الشطب) وقف وقال :

- مستعد أقنع الجماعة فى البلد بربع الأصوات .

مرت فترة صمت سمعت عمى عرابى يهمس لأبى :

- صدقنى ياخوى .. لو عرفوا بالموضوع الأصلى ممكن يساعدوننا .
- ويمكن لا ..
وقف عمى الأستاذ دسوقى وقال :

- ياأخوان .. كونوا عاقلين .. هنا بيوت مهددة بالهدم .. كيف ننقذها ؟ .. أصواتنا تذهب لأكثر من مرشح من العائلات الأخرى .. ماذا لو ذهبت كلها لعائلة الزعيم ؟

كل الأنظار اتجهت الى عمى الشيخ الغضبان الذى أغمض عينيه دون أن يتفوه بكلمة .. وضح انه لايعترض مادامت القرى الأخرى لن تتنازل عن صوت باستثناء قرية عمى الشيخ حسين الكومى .. قال عمى عرابى :

ـ تفضل يا أستاد دسوقى .. قابل توفيق بك واتفق معه .

ـ يعنى اتفاقى يكون على أصوات بلدكم وربع اصوات بلد الشيخ الكومى ؟

قال عمى عرابى « نعم » ثم تلفت حوله وهو يقول :

ـ كلنا مستعدون .. مارايكم ياإخوان ؟

تعالت أصوات كثيرة من نجعنا توافقه .. كانت أعلاها أصوات أعمامى عبدالمعبود ، والد الجازية ، وعبدالرحمن العطشان ، والد الناعسة ، وعبدالحميد المأذون ، وشقيق أبى حجازى ، وابن عمى قاسم ، الشقيق الأكبر لبشير الزنديق ، وقال عمى عرابى :

ـ بارك الله فيكم ، تفضل يا أستاذ دسوقى .

تحرك عمى الأستاذ دسوقى للخروج ، وقد سرت موجة من الارتياح ، لكن الاعتراض جاءنا من حيث لانتوقع . قال عمى حافظ تارك الصلاة :

ـ بيتى معرض للهدم .. أى نعم ، لكننى مستعد لأن أفقد بصرى ولا أعطيهم صوتى !

كأنما النار فى انتظار هذه الشرارة لتندلع .. علت أصوات كثيرة تعارض .. ووقف عمى الشيخ رزق أكبر أهل النجع سنا ، والذى كان غنيا وأخنى عليه الدهر ، فوق السبعين ، طويل القامة مع انحناءة بحكم السن ، عيناه غائرتان ووجهه عظام تكسوها التجاعيد ، مد يده بكمها الأسود الواسع فى اتجاه عمى الأستاذ دسوقى :

ـ لاتفسد علينا النجع بكلامك الناعم ! .. طول عمرنا أحرار فى أصواتنا نعطيها لمن نريد .. منذ متى أصبحنا لانعطيها إلا بالتهديد ؟

ارتبك عمى الأستاذ دسوقى .. أخرج منديلا مسح به جبهته وهو يتراجع بظهره حتى جلس ..

دق قلبى بعنف ، تدخل أبى بسرعة :

ـ معك حق ياشيخ رزق ، لكن نحن اتفقنا نعطيهم أصواتنا فى بلدنا ..

ـ لم نتفق ..

ـ لكن بيوتنا ستهدم ، كيف نحل هذه المشكلة ؟

صمت عمى الشيخ رزق .. يبدو أن الصداقة العميقة التى تربطه بأبى جعلته يؤثر الصمت .. لكن ابن عمى بشير الزنديق قام لنجدته :

ـ ولماذا لاتكون مسألة البيوت حيلة للحصول على أصواتنا ؟ .. هذه المرة أصوات بلدنا ، وفى المرة القادمة أصوات البلد المجاور ، وبعدها بلد ثالث ، وهكذا ؟

ظهر الضيق على وجه عمى عرابى فصاح مستنجدا بقاسم ، الشقيق الأكبر لبشير :

ـ ياقاسم .. قل لبشير يسكت .

صاح قاسم بصوته مثل خوار الثور :

ـ اسكت يابشير ..

ـ ولماذاأسكت ؟

ـ صغار السن لايصح أن يتكلموا فى موضوعات الكبار ، خل أعمامك يخلصوا الموضوع !

قال عمى حافظ تارك الصلاة : كلام بشير مضبوط ، الحكاية فيها ملعوب .

رد عليه عمى عبدالمعبود ، والد الجازية :

ـ آل الزعيم يستحقون كل خير .. لولاهم لما استطاع أولادنا الذين توظفوا فى الحكومة أن يحصلوا على أعمالهم .

ظهر الاستياء على وجه عمى حافظ تارك الصلاة :

ـ لاداعى لهذا الكلام الذى يشبه كلام النسوان !

غضب عمى عبدالمعبود ، قال :

ـ أى واحد يغلط فى حقى ، يتحمل مايحدث له .

علت أصوات كثيرة :

ـ عيب .. لايصح .. تكلموا فى الموضوع ولاتغلطوا فى بعضكم .

وقف عمى الأستاذ دسوقى :

ـ أنا أخاف تحدث فتنة فى البلد بسبب هذا الموضوع .. ولذلك أرى أنه لاداعى لذهابى الى توفيق بك .

قال ذلك وجلس كأنه نفض يده عن الأمر .

تعالت أصوات عبدالمعبود وحجازى والعطشان والمأذون وقاسم :

ـ لا ياأستاذ .. أصواتنا مضمونة .. قابل البك .. هدم البيوت شىء صعب ..

أدار عمى رزق عنقه النحيل ، ذا التجاعيد كأنها غضاريف السمك ، نحو الأصوات المؤيدة وقال ساخرا :

ـ من الذى أوكلكم انتم ؟

صمتوا .. ضايقهم قوله ، لكن أحدا لم يرد عليه نظرا لكبر سنه ومقامه فى القبيلة ..

اقترب عمى عرابى من عمى رزق وقال له متضاحكا بلهجة من ينهره :

ـ وآخرتها معك ياكبيرنا ؟!

ـ وهل كبيركم كلامه مسموع ؟

ـ طول عمرنا نسمع كلامك ، ونقدر تضحياتك من أجل القبيلة ، لكن البيوت مهددة بالهدم الآن .. يعنى بدل أن تساعدنا ، تريد أن تفتح علينا الفواتح ؟

- ايش تريد منى ؟

- توافقنا لاجل قلبنا يرتاح .

صمت عمى رزق .. وعم صمت بدا أن الرياح فيه مالت للموافقة ..

قال عمى عرابى :

- كلنا نوافق يا أستاذ دسوقى ..

لكن عمى حافظ قال كمن يخاطب نفسه :

- والله عال .. أعطونا أصواتكم ، أو نهدم البيوت !

اقترب منه عمى عرابى ووضع كفا على فمه وكفا على مؤخرة رأسه وقال له :

- طلاق ثلاثة توافقنا من غير ماتقول جنس كلمة ياشيخ حافظ . ثم قبله على جبهته وأطلقه فلزم الصمت .

ومضى عمى عرابى يكلم هذا ويخاطب ذاك ، وأحيانا يقول بعض النكات حتى بردت النار ..

اقترب منى بشير الزنديق وقال هامسا :

- ماحدث الآن جزء من شخصيتها ..

- من هى ؟

- مصر ..

- ماذا ؟

- الدكتور جمال حمدان وصفها فى كتابه « شخصية مصر » بأنها سيدة الحلول الوسطى !

ولما كنت أجهل اسم الدكتور الذى ذكره ، فقد خشيت أن أدخل معه فى مناقشة ، يتهمنى فيها بالجهل ، كعادته ، فقررت عدم التعليق ، لاسيما أن

بيتهم غير معرض للهدم ، كما أنه لايعرف شيئا عن موضوع الجازية ..
وقال عمى عرابى :

ـ تفضل يا استاذ دسوقى قابل البك وسننتظرك على الغداء .

خرج عمى الأستاذ دسوقى وانشغلت الجماعات فى أحاديث جانبية .

سمعنا صوت محرك سيارة فى الخارج ، بعد لحظة دخل ابن عمى عبدالمجيد الغباشى الذى أثرى فى السنوات الأخيرة .. يأتى ببضائع تموينية لا أحد يدرى كيف ، سكر وشاى ودقيق وصابون وأرز ودجاج مثلج ومعلبات واسمنت ومواسير مياه وحديد تسليح وأدوات صحية ، بعضها يباع فى البندر وبعضها فى القرى .

أهل على الجميع بقامته الطويلة ومنكبيه العريضين ، فيما بين الثلاثين والأربعين ، عليه جلباب حريرى فوقه معطف بنى ، عارى الرأس ، ظهر الصلع فى مقدمة رأسه ، فكه الأسفل الذى يبدو أعرض من بقية الوجه يتناسب مع أنفه الطويل وأذنيه العريضتين مثل ورق الخروع ، تأمل الضيوف بعينين حادتين لفترة قبل أن يصافحهم ويقترب من عمى عرابى ويسأله :

ـ موضوع البيوت انتهى على خير ؟

ـ ان شاء الله ..

ـ كم ذبحتم للضيوف ؟

ـ ستة خراف ..

ـ هذا قليل .. سأذبح أربعة .

ـ الغداء سيتأخر .

ـ ولو .. أولاد عمنا يجب أن يأخذوا قيمتهم .

دخلت فى هذه اللحظة عنزة وراءها أربعة من صغارها ، وقفت عند العتبة تتأمل الضيوف فى دهشة ، وسارع بعض الصبيان بإخراجها ..

خرج ابن عمى عبدالمجيد الغباشى فتبعه شقيق أبى حجازى ، وابن عمى قاسم ، شقيق الزنديق ، وهما صديقاه وشريكاه فى تخزين بضائعه فى بيتهما ، ويبدو أنهم سيجهزون الذبائح الجديدة ، وسمعت عمى الشيخ عبدالرحمن العطشان ، والد الناعسة ، يقول لعمى الشيخ الغضبان :

ـ القبيلة كلها ذبحت ستة خراف ، وعبدالمجيد وحده سيذبح أربعة .

ـ رجل زين والله ..

حبك عمى عبدالرحمن العطشان التلفيعة الحريرية حول عنقه ، وعدل من وضع قفطانه الحريرى الأنيق وقال بإعجاب :

ـ أنا لا أحب واحدا من شباب النجع مثلما أحب هذا الولد .

ـ والسبب ؟

أجاب عمى عبدالمعبود ، والد الجازية ، نيابة عنه :

ـ ناجح .. فى سنوات قليلة اشترى حوالى عشرين فدانا ، وابتنى اربعة بيوت فى البندر ، وأقام بيتا فاخرا فى بلدنا ، وعنده خمس سيارات نقل وسيارة ملاكى .

ـ ماعمله ؟

ـ تاجر كبير ..

بارك الله فيه وفى تجارته .

أذن لصلاة الظهر ، ونشطوا للوضوء ، وذهب أكثرهم للصلاة فى المسجد القريب ، لكن بعضهم لم يصل ، منهم عمى حافظ الذى التصق به وحده لقب تارك الصلاة .

بعد عودتهم انشغلوا فى أحاديث جانبية وتناثرت كلماتهم :

ـ الأولاد عندنا يشربون الخمر علنا .

ـ بعت تراب الأرض لمصانع الطوب ، كحتوها لغاية الأرض السابعة ، وانا قاعد الآن مثل الحداد من غير فحم ، الفلوس ضاعت منى ، والأرض غير صالحة للزراعة .

ـ اليهود يدخلون المسجد الاقصى بأحذيتهم ومعهم نساء عاريات ، ونحن هنا نأكل ونشرب كأننا غنم .

ـ سبب جنون ابن خالى ظهر له عفريت قبل صلاة الفجر عند ساقية الحاج أحمد .

ـ كم سعر الدولار عندكم ؟

عاد عمى الأستاذ دسوقى ، وقف فوق عتبة المضيفة ، رفع يديه الى أعلى ، والمذبة عاجية المقبض ، ترفرف فى الهواء ، قال : بشرى لكم .. الموضوع محلول بالكامل .

سار بخطوات واثقة والأنظار ترقبه فى إكبار الى أن جلس على الأريكة التى تتصدر المجلس ، ومع أنه ممتلىء الجسم ، ويميل الى الطول ، فقد بدا الآن فى ضعف حجمه ، قال باسما :

ـ استقبلنى توفيق بك بترحاب يفوق كل وصف ، قال لى أنتم أحبابنا ، أطلبوا أى شىء وأنا أقوم بالواجب .

ساد الارتياح ، وبعد فترة خرج الأستاذ دسوقى وأبى وعرابى من المضيفة ، عرفت أنهم سيناقشون موضوع الجازية سرا ، انشغل الجميع فى مناقشات جانبية ، بعد قليل عاد ثلاثتهم ، كان أبى يبتسم فى سعادة ، عرفت أن الجهود كللت بالنجاح ، أشار أبى لى من طرف خفى ، خرجنا معا ووقفنا فى الساحة ، همس لى : الموضوع انتهى على خير .

ـ الحمد لله ..

ـ فيما بعد أشرح لك .

تناول الضيوف طعام الغداء ، خرجنا لوداعهم ، بعضهم ركب

السيارات ، وركب بعضهم الحمير ، وهبط آخرون الى اللنشات لتعبر بهم النيل ، وانتحى بى عمى الأستاذ دسوقى جانبا وهمس :

- سأنتظرك غدا .

- فى بيتك ؟

- بعد الظهر ، ولتكن زيارتك سرا !

★ ★ ★

- ٣ -

استقبلنى عمى الأستاذ دسوقى فى الطابق الأعلى من بيته الذى يتألف من طابقين ويفصله عن البندر أقل من ميل .. جلسنا على أريكتين متقابلتين فى شرفة عريضة تطل على أرضه الزراعية .. نجعنا يفخر به ويعتبره من نوابغ القبيلة .. وحين أكون فى البندر ، يكفى أن أقول إنه عمى حتى أعامل بمودة فى الحال .. لملم الروب دى شامبر على جسده الطويل الممتلىء وقال :

ـ اسمع يا أستاذ عامر .. أنت متعلم وأنا أقدر أتكلم معك فى مواضيع لا أقدر أفاتح فيها والدك أو أى أحد من أعمامك ..

جاءت خادمة عجوز عليها ثوب أسود رث تحمل صينية فوقها فنجانان وكنكة قهوة ، انتظر حتى وضعتها على المائدة وانصرفت فاستطرد :

ـ اسمعنى يابنى .. نحن لانقدر على مواجهة أسرة الزعيم .. هؤلاء ناس كبراء منذ أيام الملك والانجليز وحتى يومنا هذا .. لنكن واقعيين ونحنى رءوسنا للعاصفة .

اهتز فنجان القهوة فى يدى فسقطت نقطة على ساق بنطلونى فصاح :

ـ يارابعة ، هاتى كوب ماء وفوطة نظيفة .

جاءت المرأة بالمطلوب ، قمت بغمس طرف الفوطة فى الماء وعالجت نقطة القهوة ، لكن أصابعى كانت ترتعش وانا أقول :

ـ ألم تقل ياعمى ان الموضوع انتهى ؟

ـ انتهى ، لكن بشرط .

ـ شرط ؟

تراجعت نبرة صوته فاستدرك وقد شاع الابتسام فى ملامح وجهه الممتلىء :

ـ ليس شرطا بالمعنى المفهوم ، فالرجل يرجونا ويتوسل الينا .. هو وعدنى بالتدخل بحيث لاتتعرض البيوت للهدم ، لكن العقبة فى مرض ولده .. وأنت تعرف ضعف توفيق بك أمام ولده اسماعيل بسبب شلل ولده الأكبر « سعيد » .

لولا أن الجلسة « عائلية » لقطعتها وقمت ، لكن الصبر مطلوب حتى أرى ماتنتهى إليه .

ـ حينما يرى الانسان أسرته تتعرض للمتاعب ، فعليه أن يضحى .

ـ يعنى أطلق زوجتى ؟

ـ هل نستطيع أن نفعل شيئا أمام قرار هدم البيوت فى سبيل المنفعة العامة ؟

ـ لا .

ـ توفيق بك يستطيع أن يحلها بحكم صداقاته مع كبار المسئولين فى المحافظة ، وهى خدمة يجب أن نشكره عليها .

ـ العمدة قال ان توفيق بك هو الذى أوعز للمسئولين بتوسيع الطريق .

انفعل وعلا صوته وهو يقول :

ـ على هذا العمدة الأبله أن يلزم حدوده .. أسرته تنافس أسرة الزعيم وهى لاتملك امكانياتها لا فى النفوذ ولا فى المال ولا فى الرجال .. ثم انه لايقول الحق ..

ساد صمت سمعت خلاله خوار ثور ، التفت فرأيت على مبعدة ، جانبا من حظيرة عجول التسمين التى يستثمر فيها جزءا من أمواله ، وقال بصوت هادىء :

- ولنفترض يابنى أن توفيق بك هو الذى أوعز بتوسيع الطريق .. ألا يدل هذا على أنه قادر على أن يدخلكم فى سلسلة من المشاكل ؟

- قادر ..

- ثم إنكم ، ولاتؤاخذنى ، لاتتزوجون عن حب فى قرية متخلفة مثل بلدنا ، بحكم تقاليدها .. لو كنت أنت وزوجتك من مواليد مدينة ، مثل هذه لعذرتكم .

- أنا والجازية ، نحب بعضنا .

- هل اسمها الجازية ؟

- نعم .

- هل هى من قبيلتنا ؟

- أجل ..

- من أبوها ؟

- عمى عبدالمعبود أبو رشوان .

تراجع بجسده ، ومال برأسه الى الوراء ، حدق فى السماء مليا وقد غالبه الابتسام حتى ظننته نسى الموضوع ، وبعد فترة قال كمن يخاطب نفسه : آه .

ثم انتفض فجأة وقال بلهجة من عاد من مكان بعيد :

- أنت تخيلت أنك تحبها ياعامر .. لكن الحقيقة هى أنها أول فتاة تتاح لك فرصة الكلام معها ..

ثم ضحك وأضاف بلهجة ودود :

- لو أنك قابلت أى واحدة جميلة ، لحدث لك ماحدث مع .. مااسمها قلت ؟

- الجازية ..

ـ مع الجازية .. أعنى أن « الجنس » هو الذى سيطر على العلاقة بينكما وليس الحب بمعناه السامى كما هو معروف فى البلاد التى انعم الله عليها مثل البلاد الأوربية .. هل أطلب لك قهوة ثانية ؟

ـ شكرا ..

ـ فكر فيما قلته لك ، ولاتعطنى ردا بالرفض أو القبول الى أن نلتقى ثانية .. بيتى تحت أمرك ، يمكنك الحضور فى أى وقت ، ولوجئت يوم الاثنين القادم بعد الظهر ، يكون افضل .

عند انصرافى قال لى :

ـ لاداعى لنقل مادار بيننا الى والدك أو أى أحد ، لأن أهلنا قد يثورون ، كما تعلم ، ويعقدون المسائل .

★ ★ ★

القت الجازية بكراسات التلاميذ على المائدة وقالت فى ضيق :

ـ لن أستطيع فعل أى شىء .. الأفضل أن نشترى من الدكان بسطرمة وهامبورجر وسردين للغداء ..

كنت متوترا أنا ايضا بسبب مناقشة حادة مع أحد أولياء الأمور ، لأننى ضربت ابنه بالمسطرة على ظاهر يده ، فقلت :

ـ اسألى أمى ماذا طبخت لنا .

قالت متأففة :

ـ لن تزيد عن العدس أو الملوخية .

ـ لنأكل من الموجود ، ولاداعى للمعلبات .. مطلوب منا ادخار كل قرش لبيتنا الجديد ..

فرغت من تغيير ملابسها وقالت :

ـ حتى الآن لم تقل لى لماذا رفضت الدروس الخصوصية لابن شقيقة توفيق بك ؟ ..

فوجئت بالسؤال فقلت :

ـ ألم أقل لا أحب مخالطتهم ؟

ـ ماهذا التناقض ؟ .. تقول نريد توفير كل قرش ، وترفض مبلغا محترما من توفيق بك ؟

ـ عندى تلاميذ لاحصر لهم فى الدروس الخصوصية ..

ـ لكن تلميذا من طرف توفيق بك خير من عشرة .

ـ مارأيك لو ذهبنا الى البندر يوم الجمعة من أجل ..... قاطعتنى وهى تخرج من الحجرة :

ـ هذا ماتفلح فيه .. تغيير مجرى الحديث .

خرجت الى الفناء فالتقيت بأحد صبيان النجع .. ناولنى ظرفا وهو يقول :

ـ أعطانى إياه ساعى البريد ..

فضضت الظرف لأقرأ :

« انتظرتك فى الأسبوع الماضى ولم تحضر ولعل المانع خير .. أرجو أن تزورنى يوم الجمعة القادم لنتناول طعام الغداء معا ، أتعشم عدم التأخير ـ عمك دسوقى »

مزقت الرسالة وفكرت فى أن أخبر أبى ، لكننى عدلت وقررت استشارة خالى لسعة صدره .

فى بداية نجع أخوالى ، التقيت بابن خالى محروس يجلس بجوار السائق فى سيارة نصف نقل ، حمل فوقها أجولة السماد التى تحتاج إليها زراعتهم .. حين لمحنى أوقف السيارة وقال وهو يطل من النافذة :

ـ وجدتها ياعامر !

فى البداية تخيلت التفاحة التى كشفت عن قانون الجاذبية ، لكنه استطرد :

ـ بنت فى جمال ممثلات السينما .. حينما وقع نظرى على عينيها قلت سأتزوجها ولو ارتكبت جريمة .

ـ بنت من ؟

ـ عبدالعليم الحمادى ، من النجع القبلى .

ـ وأبوك ؟

ـ ماله ؟

ـ هل يوافق على الزيجة الثالثة ؟

ـ دعك من خالك المخرف .. أبوها ، حين بعثت اليه بمن يجس النبض ، قال موافق ، بشرط أن تكمل تعليمها .

ـ هل هى فى الجامعة ؟

ـ فى الثانوية .. لكننى سأرغمهم على الاكتفاء بهذا القدر كيلا تتساوى شهادتها بشهادتى !

انطلقت به السيارة ، لكنه توقف فجأة وأطل من النافذة يخاطبنى :

ـ الأمريكان أطلقوا مركبة فضاء تحوم الآن حول المريخ .. أمريكا أولا وثانيا وثالثا ثم يأتى بعد ذلك بقية البشر !

وأطلق ضحكة عريضة والسيارة تنطلق به وتثير وراءها الدخان .

★ ★ ★

وجدت خالى يجلس فى صحن الدار فوق سجادة قديمة مفروشة على حصيرة من السعف الملون ، ويتكىء على مسندين .. على مقربة منه جهاز تليفزيون ملون مفتوح ، أشرت اليه وقلت :

ـ مبروك .

ـ الله يبارك فيك ، لماذا لم تذهب لمقابلة عمك الأستاذ دسوقى ؟!

تساءلت فى دهشة :

ـ أنت عرفت بمقابلتنا ياخالى ؟

ـ اذهب اليه ، ربما جد فى الأمر جديد .

ـ ما الذى سيقوله غير ماقاله ؟

ـ انت تعرف أننى أحب لك الخير ..

ـ طبعا ..

صمت طويلا قبل أن يقول :

ـ توفيق بك عرض عليك أشياء لايرفضها عاقل !

ـ أتعنى الأفدنة الخمسة ؟

ـ سيعطيها لوالدك بدون مقابل لعشر سنوات ... هذا غير المبلغ الكبير الذى ستحصل عليه ، بالاضافة الى نفقات عرسك ، ثم هناك الوظيفة المحترمة لك !

ماهذا الكلام الذى يقوله خالى ؟!

ـ يعنى أطلق زوجتى ؟

أطلق ضحكة خفيفة وقال :

ـ ابن خالك محروس يستعد للزواج من الثالثة .

ـ لكننى لا أرضى بغير الجازية .

لوح بذراعه :

ـ يعنى هى الجازية الهلالية ؟! .. البنات الجميلات تملأ النجوع !

ـ ولماذا لايقال هذا الكلام لتوفيق بك ؟

ـ أنت تعرف بالهموم التى يعيش فيها توفيق بك .. ولده الكبير مشلول ، ولايصح أن نترك اسماعيل يصاب هو أيضا بالشلل !

ثم هز رأسه وقال فى أسى :

ـ مسكين توفيق بك .. الله يكون فى عونه !

هل هذا الذى يكلمنى هو خالى أم شخص آخر ؟ .. ما الذى حدث خلال هذه الأيام القليلة حتى ينقلب موقفه الى النقيض ؟

قال وهو يتفحص راديو ترانزستور صغيرا بجواره :

ـ هل زوجتك عرفت ؟

ـ لا ..

ـ لماذا لاتستشيرها ؟!

ـ أستشيرها ؟!

ـ افرض وافقت ؟

قلت منفعلا : أطلقها فورا .

هز رأسه الكبير صامتا ، وبدا على وجهه الارتياح ، وكان التليفزيون فى هذه اللحظة يعرض إعلانا لحقيبة يد ممتلئة حتى حافتها بالدولارات وصوت المذيع يقول فى حماسة :

ـ إنها حقيبة الرجل الناجح !

★ ★ ★

خرجت من بيت خالى اترنح كمريض .. تجولت فى الحقول القريبة الى مابعد الغروب .. أعواد القمح تتمايل مع النسمات دون مبالاة .. لو أخبرت أباك بأن هدم البيوت مازال واردا ، ربما مات لضعف قلبه ، وهاهو ذا خالك يقول كلاما مناقضا لما قاله من قبل ، هل تستشير عمك عرابى أم تستشير الجازية كما نصح خالك ؟

هاهو ذا عمك الشيخ يوسف فى جلسته التقليدية أمام المضيفة وحفيده موسى يقرأ له :

« جاءته أموال ولاية خراسان فى السنة التى ولى فيها وكان يتأهب للخروج الى الصيد ، فأمر لصاحب شرطته بمائة ألف ، ولنديمه سالم بمائة ألف ، ولابن عمه ابراهيم بمثلها ، ولغلمانه بمائة ألف ، انتهى من تفريقها قبل أن يضع قدمه فى الركاب ، فقد كان رحمه الله من أكرم أهل زمانه » .

هاهى ذى الجازية بجوار أمى فى حجرة التليفزيون ومعهما ثلاثة صبية من الجيران يتفرجون .. إعلان يقول إن الشركة سوف تحل مشكلة الاسكان للشباب .. إدفع خمسين الف جنيه فقط وتسلم الشقة والباقى بالتقسيط !

ـ مالك ؟

ـ لاشىء ..

ـ أنا أم « العويل » الكبير واعرفه ، ما الذى يشغلك ؟

ـ مجرد صداع ..

نهضت الجازية وأحضرت حبة اسبرين وكوب ماء ، مدتهما لى وهى تقول :

ـ ابن خالك اشترى التليفزيون الملون .

ـ أعرف ..

ـ اشتر لنا مثله .

ـ يعدلها ربنا ..

ـ بصراحة نحن ينقصنا الكثير ياعامر .. التليفزيون الملون والثلاجة والسخان والمدفئة والغسالة وغيره وغيره ، ولاداعى لذكر الفيديو الآن !

التفتت اليها أمي وقالت بدهشة : ماهذه الأشياء التى استجدت هذه الأيام ؟

- أصبحت ضروريات ياخالتى ، ثم إن النجع امتلأ بها .

- لكنها تخرب البيوت يا ابنتى .

تفكرين فى هذه الأجهزة ياجازية ولاتعرفين أن البيت مهدد بالهدم بسببك .. النعيم أنت والشقاء فى آن .

دخلت عمتى راضية ، زوجة عمى حافظ تارك الصلاة ، بعودها النحيل تلف عليه ملاءتها حائلة اللون ، قالت قبل أن تجلس :

- لن نبيع العجل الذى ولدته بقرتنا قبل سنتين على الأقل ..

- لماذا ؟

- حافظ قال نجهز بثمنه بنتنا سعدية عندما يتقدم لها عريس .

- إن شاء الله .

- أنا خائفة على البنت لأنها كبرت ، وأقرب واحد لنا فى القبيلة بعدكم ، هو الأستاذ دسوقى ، كان المفروض أن يتقدم ولده للزواج منها ، لكن دسوقى عامل نفسه من البكوات الكبار ، والحقونى بكوب شاى ثقيل جدا ، لكن بسكر خفيف !

حملت الجازية براد الشاى الذى كان أمامنا ، وذهبت لتسخينه فى حجرة الفرن وهى تقول :

- لاتتكلمى حتى أعود ياعمة راضية !

ظهرت على شاشة التليفزيون زجاجة منبعجة قال لنا المذيع انها تحتوى على أعظم أنواع العطور فى العالم لأنها مصنوعة فى ولاية تكساس .

قالت عمتى راضية وهى تتمطق :

- أولاد عبدالسلام العوضى سرقوا ثلاثة عجول .. ربطوها فى حقول

القصب ، لكن العمدة أبلغ الحكومة ، قبضوا عليهم وحبسوهم .

ـ متى حدث هذا ؟

ـ فى آخر الليل ، لكن الخبر لم يصلنى إلا مع طلوع الشمس !

تذكرت ابن خالى محروس الذى يسمى عمتى راضية « وكالة رويتر » وعادت الجازية تحمل براد الشاى وهى تقول :

ـ إحك ياعمة راضية .

ـ بشير يريد أن يكتب كتابه على الناعسة ، وعمكم الشيخ عبدالرحمن العطشان قال له الصبر طيب .

قالت أمى بلا اهتمام :

ـ هذا كلام قديم ..

أضافت الجازية بلهجة دفاع :

ـ عمى الشيخ عبدالرحمن قال أكثر من مرة انه غير مستعد للعرس قبل سنة ، وكل إنسان أدرى بظروفه ، وبشير يقدر يصبر.

قالت عمتى راضية وهى تتمطق ، ربما لطعم الشاى ، وربما بحكم العادة :

ـ كل الكلام الذى يقوله الشيخ عبدالرحمن كذب فى كذب ، الأسباب الحقيقية عندى أنا .

ـ أى أسباب ؟

تلفتت حولها دون داع ، واخفضت من صوتها :

ـ الماء يسرى تحت التبن .. اتفق سرا مع عبدالمجيد الغباشى أن يزوجها له ..

صحنا كلنا فى نفس واحد : لا ..

ـ الأيام ستثبت كلامى .

تبادلنا النظرات فى دهشة فى حين كانت عمتى راضية تتخلص من ملاءتها الحائلة اللون ذات الثقوب الكثيرة ، فوضحت نحافتها بسبب سوء التغذية وقالت أمى :

ـ كل الناس تعرف أن الناعسة لبشير وبشير للناعسة .

قالت أمى ذلك وهى تدير عنقها نحو الجارية كأنها تطلب منها أن تكذب الخبر دفاعا عن صديقتها ، فاستطردت عمتى راضية وهى تعيد لف الخمار الأسود حول وجهها الشاحب :

ـ الفلوس .. آه من الفلوس التى تجعل حتى الرجال المحترمة ترجع فى كلامها ..

تحولت أنظارنا نحو الجارية التى بلعت ريقها بصعوبة وقالت :

ـ الناعسة صاحبتى وأنا أعرفها .. لن ترضى بأى انسان غير بشير .

اعترضت عمتى راضية :

ـ بشير ظروفه مثل القطران .. الحكومة فصلته من المدرسة ، وحتى لما اشتغل فى الجمعية الزراعية ، عمل لنفسه مشاكل مع رئيسها فقال انه يسرق المزارعين ، وكاد يدخل الرجلْ السجن لولا المحامى الناصح الذى أنقذه ، وكانت النتيجة أنهم نقلوا « بشير » الى جمعية زراعية فى البر الشرقى .. ولد أخلاقه صعبة يجلب لنفسه المشاكل ، ربنا يلطف بحاله !

قالت أمى : بشير موظف يقبض مرتبا والناعسة موظفة لها حريتها .. ربنا يسترها ويستره .

تمطقت عمتى راضية مع رشفة شاى :

ـ مرتب بشير أو أموال الغباشى التى تحجب عين الشمس ؟

دافعت الجارية عن صديقتها :

- الناعسة لاتهمها الأموال .. حينما تجمعها جلسة ببشير تتكلم معه فى السياسة والشعر والتاريخ والأفلام ، الناعسة لايمكن ترضى بواحد جاهل مثل الغباشى حتى لو ملك نصف البلد .

قالت أمى مؤيدة :

- صح .. ايش عرف الغباشى « بالعلام » ؟

ضربت عمتى راضية فمها بكفها وقالت بلهجة تأنيب :

- هس ياخشمى ، هس ياخشمى .. مالك أنت ومال سيرة الناس اذا كانوا يقولون عليك كذاب ؟

ساد صمت تجسم فيه القلق على الناعسة وبشير .. فالاثنان - علاوة على أنهما من أقاربنا - من أصدقاء بيتنا يترددان عليه فى أى وقت منذ طفولتهما .. ثم إن الخبر يمكن أن يكون صحيحا نظرا لظروف بشير غير المستقرة ، فضلا عن أن عمى الشيخ عبدالرحمن - الموظف المحال للمعاش - يمكن أن يقع تحت اغراء امكانيات الغباشى وكرمه ، لكن ماذا عن الناعسة نفسها ؟ .. هل تستسلم لضغوط أبيها ؟

تهيأت عمتى راضية للانصراف ، ثم انتحت بأمى جانبا ، عرفت أنها سوف تقترض منها مبلغا من المال ، كالعادة ومالبثت أن انصرفت ، ولغطنا أنا وأمى والجازية حول بشير والناعسة والغباشى ، لكن ذهنى شرد فى همومى الخاصة فلم أسمع أكثر ما قالتاه ، ودخل أبى ، ألقى علينا بالسلام وقال :

- سأتوضأ ..

أنت لاتهوى مشاهدة التليفزيون يا أبى .. تفضل عليه السهرة عند عمى عرابى ، مع أربعة أو خمسة من أصحابك ، المعسل والسمر القديم حتى العاشرة ، هل انقل اليك آخر الأخبار بأن المساومات الآن تتلخص فى الجازية أو البيت ؟ .. أم أعفيك من هذا الهم ؟

خرج أبى ومالبث ان جاء أخى زاهر .. قال منفعلا :

ـ سأقتل الولد جعفر الباجس بمجرد أن أراه ..

وضح الانزعاج فى صوت أمى :

ـ سلامتك وسلامة جعفر الباجس .. ماذا حدث ؟

ـ ابن المخلول ، فتح الماء فى زرعه ونسيه .. تسرب الماء الى مربط المواشى وأغرق الدنيا .. نقلت البقرتين والعجل الصغير والحمارة الى الأرض المحروثة .. بحثت عنه فلم أجده ، لن يفلت منى .

.. قالت أمى تهدىء من انفعاله :

ـ تفرج معنا على التليفزيون ياحبيب .. المسلسل سيبدأ .

ـ لا وقت عندى ، هاتى لى عشاء ، سأعود الى الغيط .

ـ تبيت فيه ؟

ـ نعم .. الغنم فى العراء ، حظيرتها غرقت فأدخلتها فى الشونة ، أخاف عليها من الذئاب .

ـ كلابك موجودة .

قال بلهجة فخر :

ـ كلابى تمنع أى ذئب من الاقتراب ، لكننى غير مطمئن ، مالك ياعامر ؟

ـ لا شىء .

ـ قاعد وراسك بين كفيك مثل المرأة التى مات زوجها ، ما الحكاية ؟

سمعنا صوت « سميحة » بنت عرابى تنادى على أمى خارج الحجرة ، خرج زاهر اليها ، رق صوته الأجش بطريقة غير مألوفة ، قال بود :

ـ أهلا يابنت العم .. تفضلى ، لماذا تقفين فى الخارج ؟ .. البيت بيتك ونحن إخوتك وأهلك وناسك .. يا ألف مرحب .

همست لى الجارية باسمة :

- لو قالوا له الآن ، الذئاب أكلت الغنم ، لما اهتم .

خرجت أمى وتهامست مع سميحة ، وعاد زاهر الى الداخل ، جلس بجوارى وأذنه خارج الحجرة .

عادت أمى ، تناول زاهر عشاءه وخرج ، قالت لى أمى :

- اخرج وراءه .. ربما التقى بجعفر الباجس وحدثت مشاكل ، أنت عارف زاهر .

التقيت بابن عمى جعفر الباجس عند مدخل بيتهم ، رجوته أن يتجنب (زاهر) الليلة فقال ضاحكا : أنا غلطان ، ولن التقى به ليومين على الأقل .

هأنت ذا راقد على السرير تجر همومك بمفردك والليل يوغل والنوم يستعصى ، فقل لى الآن كيف ستتصرف ؟ .. واضح أن ثمة اتصالات جرت بين هذا المسمى بدسوقى وبين خالك .. ماذا لو استشرت الجازية كما نصح ؟ .. هل ترفض سماع بقية الحديث لأن مابينكما اكبر من أى شىء أم أن حياة القصور ذات البذح تدير الرءوس ؟



- ٤ -

طرقات عالية على الباب الخارجى .. أعتقد أن الوقت بعد الفجر بقليل .. أزاحت الجازية الغطاء وتساءلت : سمعت ؟

- من الذى يطرق الباب الآن ؟

خرجت الى فناء البيت ، أبى يقيم الصلاة تحت النخل ، فتحت الباب ، العمدة يمسك بلجام حماره ، بجواره شيخ البلد ، نظراتهما لاتوحى بالطمأنينة ، فى الخلفية شيخ الخفراء يعلق بندقيته على كتفه .

- أبوك هنا ؟

قبل أن أجيب ، جاء أبى من الداخل وهو يلف شاله الصوفى حول رأسه وعنقه ، قال العمدة :

- أعذرونا ياجماعة .. وصلتنى اشارة بأن « زاهر » مطلوب فى المركز ..

- زاهر ؟

- أولاد عبدالسلام العوضى سرقوا ثلاثة عجول وربطوها فى حقول القصب .. قبضت عليهم وأرسلتهم للمركز ، وهناك قالوا ان « زاهر » شريكهم .

- هل تصدق ياعمدة أن « زاهر » يمكن أن يشترك معهم ؟

- انا لا أصدق ياعبدالولى .. لكنهم اعترفوا عليه ولابد من تنفيذ طلب المركز .

- نحن نسكن فى أول البلد ، وهم فى آخرها .. ما الذى جمع زاهر بهم ؟

- هذا الكلام لا لزوم له الآن .. أين زاهر ؟

جاءت أمى من الداخل وحين وقفت على الخبر ، صرخت وهى تضرب صدرها بيدها ، صاح بها أبى فى حسم :

- طلاق ثلاثة ماتفتحي خشمك !

عادت الى الداخل وهى تبكى بصوت مكتوم ، وانتشر الخبر فى النجع ، جاء الكثيرون ، ووصل زاهر من الحقل يحمل حلابة اللبن ، لما عرف بالأمر صرخ وهو ينتفض :

- يعنى أنا حرامى ؟

أشار اليه العمدة وخاطب أبى :

- اضمنوا لنا يسير معنا من غير مشاكل .. لانريد لفت الأنظار ونحن نشق به البلد .

جاء عمى عرابى وهو يكمل لف عمامته ، ولما ألم بالموقف قال :

- تفضل اشرب القهوة ياحضرة العمدة ، أو تفضل الى ديوانك لتحل مشاكل الناس ، ولينتظرنا شيخ الخفراء أمام مركز البوليس .

وافق العمدة فركب حماره وذهب وتبعه شيخ البلد وشيخ الخفراء .

★ ★ ★

عبرنا النيل الى بندر كوم امبو .. جلسنا على مقهى الدراوية ، أخى زاهر وأبى وأنا ، حولنا أكثر من ثلاثين شخصا من أبناء نجعنا ، ساروا معنا للمجاملة ..

غادر عمى عرابى المقهى لدقائق وعاد بصحبته رجل ربعة يرتدى بدلة سوداء أشار اليه قائلا :

- الأستاذ حسنين المحامى ، سيحضر التحقيق مع زاهر .

جلس المحامى يشرب الشاى ويلقى بالأسئلة على زاهر ، وزاهر ذاهل يتلفت حوله زائغ العينين وقد سحب لونه ، ولم يكن يجيب على أسئلة المحامى إلا بعد أن نكررها له أنا وأبى وعمى عرابى مرة ومرتين ، حتى أن

عمي عرابى هزه من كتفه ليجيب على أحد الأسئلة ، وبعد وقت طويل عرف منه المحامى أنه يعرف هؤلاء الشبان الثلاثة ، كما يتعارف أبناء القرية الواحدة ، يلتقى بهم أحيانا فى البندر أو فى الاعراس ، لكن لاتربطه بهم علاقة خاصة ..

وصل العمدة ، نزل من حماره ، جلس بجوار زاهر وقال يخاطبنا :

ـ مادام المتهمون اعترفوا بأن « زاهر » كان معهم ، فعلى مركز البوليس أن يعتبره شريكهم .. هى مكيدة من صاحبكم .

تساءل عمي الشيخ رزق ، أكبر النجع سنا :

ـ صاحبنا من ؟

وجه عمي عرابى نظرة محذرة الى العمدة ، فأجاب هذا ضاحكا :

ـ واحد من بلاد الانجليز !

ثم وقف واتجه الى مائدة بعيدة ، فتقدم منه أبى وعمي عرابى وتبعتهما وانضم الينا المحامى بعد أن أشار اليه عمي عرابى بأن يقترب وقال العمدة بصوت خافت :

ـ لابد انه أوعز الى هؤلاء الأشقياء ليقولوا ان « زاهر » شريكهم ، بعد أن أغراهم بمبلغ من المال .

ـ أهكذا ؟

ـ رجل فاجر وقادر ، وأنا سمعت انه تصالح مع نسيبكم وتنازل له عن القراريط الخمسة .

دق قلبى بعنف حين جاء خالى وتذكرت حواره الأخير معى واستطرد العمدة :

ـ القراريط الخمسة تقع فى منطقة سكنية ، كل قيراط منها يساوى سبعة قراريط زراعية .. كيف يتنازل عنها بهذه السهولة بعد مشاكل عشر سنوات فى المحاكم ؟

تساءل المحامى :

- هل يمكن أعرف الشخص الذى تتكلم عنه ياعمدة ؟

- سأخبرك به لتستفيد منه فى القضية فقط ..قصدى لتعرف خصمك الحقيقى .

قمنا مع زاهر وأوصلناه إلى المركز ، وهناك وجدنا شيخ الخفراء فى انتظارنا ، فدخل مع اخى كل من العمدة والمحامى ، وعدنا الى المقهى لنجد عددا كبيرا من أهالى النجع ، جاءوا يستفسرون ويجاملون ، وزعوا أنفسهم على مقاه كثيرة بعد أن ضاق بهم المقهى الذى نجلس فيه ..

بعث عمى عرابى بابن عمى جعفر الباجس ليخطر عمى الأستاذ بوجودنا ، جاء وبصحبته خال الأولاد الثلاثة الذين سرقوا العجول ، لكنه لم يدخل المقهى معه ، بل صافحه وانصرف ..

بعد ان استفسر عما حدث ، قال سأتصل تليفونيا بتوفيق بك ليتدخل فى التحقيق ، ورأيناه يدخل أحد محال البقالة ، فى مواجهة المقهى ، ولاحظت أن لافتة البقالة قد تغيرت من « بقالة الأمانة » إلى « سوبر ماركت الامانة » وبعد لحظة عاد وقال ان توفيق بك فى طريقه الينا ، ثم استأذن لأنه سيحضر التحقيق مع زاهر لكى يشجعه ، وبعد ان غادرنا ، قال عمى عرابى ان مأمور المركز يسكن فى احدى عمارات الأستاذ دسوقى .

سمعنا أذان الظهر فقام كثيرون يؤدون الصلاة فى مسجد المحطة ، وقال البعض سوف نصليه مع العصر فى البلد ، لكن عمى حافظ لم يقل شيئا .

وكان الشارع أمامنا قد ازدحم بالسابلة ، بعضهم بالعمائم وبعضهم برءوس عارية ، موظفون وتجار وموظفات وطلبة من الجنسين ، وسيارات من كل نوع ، مرسيدس وبيجو ومازدا وفيات وجيب ونقل وعربات تجرها الحمير وهناك الكثير جاءوا من القرى المجاورة يمتطون حميرهم ، وجوه أسوانية ونوبية وقاهرية ومن الصعيد الأوسط والوجه البحرى ، بندرنا ازدحم فى السنوات الأخيرة ، ويقال انه تجاوز المائة الف نسمة غير الوافدين لليوم

الواحد ، وقال عمى الشيخ رزق ممتعضا :

ـ منذ عشرين سنة فقط ، لم نكن نرى امرأة تسير مكشوفة الشعر كما يحدث الآن والعياذ بالله !

وكان أقاربنا الذين وزعوا أنفسهم على المقاهى المجاورة ، يأتون الينا بين لحظة وأخرى ، يستفسرون عن أخبار زاهر ، وجاء البعض بكميات من الفول والطعمية والجبن الأبيض والطماطم والمخلل وحزم الجرجير والبصل ، وجلست كل جماعة تأكل معا ، بعد أن وضع لهم عمال المقهى الصوانى الفارغة على الموائد مع أكواب الماء ، وجلست مع الجماعة التى يتزعمها عمى رزق ، ودفع عمى عرابى أكثر النفقات ، لكن أبى رفض تناول الطعام ، كان ظهره قد انحنى قليلا ، يدخل المقهى ثم يخرج الى الشارع ويقف تحت شجرة اللبخ ، ثم يعود الى المقهى ويتناول كوب ماء ويخرج من جديد ، وقال له عمى عرابى « وحد الله » فقال « لا اله الا الله » لكنه عاد إلى تجهمه واستمر فى الدخول والخروج .

وظهر فى الشارع توفيق بك يمتطى صهوة جواده الأسود ، عليه عباءة غامقة الحمرة ، عارى الرأس ، حين رآنا وضع كفه فوق رأسه وابتسم ، فوقف له عمى عرابى وحده وقال له بصوت عال « تفضل ياتوفيق بك » فرفع يده الى أعلى وأحنى رأسه واستمر فى سيره فى اتجاه الشارع الذى يقع فيه مركز الشرطة ، واصطدم رجل يركب حمارا ، بعربة الجاز التى يجرها بغل ، فصرخ فيه قائد العربة « اصح ياحمار » فقال له الرجل « انت ثلاثين حمار » فهبط سائق عربة الجاز ، وكان طويلا عريضا ، مهوش شعر الرأس ، يرتدى بنطلونا كاكيا ، لكن الناس حالوا بينهما ، وجاء المحامى فالتففنا حوله ، قال لنا كونوا مطمئنين لأننى أضمن البراءة لزاهر ، وقد حاولت اخراجه معى ، لكن الاجراءات حالت دون ذلك ، وسيخرج فى الصباح الباكر .

ابتسم كثيرون وعبس كثيرون وقال شقيق أبى حجازى : « المحامون يكذبون دائما » لكن عمى حافظ قال : « وهذا لايكذب لأنه من الوجه القبلى ! » فقال عمى الشيخ رزق متمثلا : « أم قويق تنقز (تلاعب)

أولادها واحد أظرط من التانى ، لانافع بحرى ولاقبلى فى هذا الزمان !

★ ★ ★

جلست بجوار أبى وأمى فى حجرة الفرن .. خرج صوت أبى ضعيفا وهو يقول :

ـ علينا أن نسدد المبلغ الذى دفعه عرابى .

قال ذلك وذكر المبلغ الذى حصل عليه المحامى .

ياالله .. انه يساوى مرتبى ومرتب الجازية لثلاثة شهور .

ـ قضية زاهر تحتاج الى نفقات كثيرة .. لابد من بيع البقرة الحمراء .

بدت لهجة أبى حزينة برغم محاولته السيطرة على نفسه ، ضربت أمى صدرها بيدها وقالت :

ـ البقرة الحمراء تسقينا اللبن .

ـ نستغنى عن اللبن ، لكن كيف أحرث أرضى ببقرة واحدة ؟ .. هذه هى المشكلة الحقيقية .

تنبهت الى أن الجازية تقف فوق العتبة أثناء الحوار ، قالت :

ـ انا لا أستطيع الافطار بدون لبن .

أدارت أمى عنقها ناحيتها دون أن تقول شيئا .

منظر الجازية ، وهى تقف فوق العتبة بطولها الفارع ، مثل منظر الملكة تخاطب رعاياها .. خيل الى ـ فى لحظة ضعفى الآن ـ أن بيتنا ، الذى بدأ الفقر يطل عليه ، لاينبغى أن يضم بين جدرانه مثل هذا الجمال الطاغى .. هل سأفقد الجازية ، وهل بدأ العد التنازلى لأيامنا معا ، وكيف يكون طعم الحياة دون سماع صوتها والتملى فى وجهها الحبيب ؟ لكننى تنفست الصعداء حين دخلت وجلست بجوارى ، انكمشت على نفسها وكتفها يلتصق بكتفى كأنها تحتمى بى ..

ران الصمت .. نحن نعتبر أنفسنا أسرة محظوظة لأن بقرتينا ـ الحمراء

والمبرقشة ـ تتبادلان الولادة .. هذه تلد فى الصيف وتلك تلد فى الشتاء من كل عام فلا ينقطع اللبن عن بيتنا .. قال أبى :

ـ بعنا العجل الكبير واكثر الغنم واكملنا بها عرس عامر .. كان بودى أن ننتظر ليكبر ابن البقرة الحمراء ، مع ماسوف تلده المبرقشة ، ليساعدانا فى زواج زاهر ، لكن ...

تنهد دون أن يكمل كلامه وران الصمت من جيد ، وقد نكست أمى راسها ووضع أبى جانب راسه على راحة يده وخيل الى أن فكه الأسفل ، تضاءل نتوؤه الآن ولم يعد عنيدا كما كان ..

هو رشح البقرة الحمراء للبيع لأن ثمة علاقة عاطفية تربط أسرتنا بالمبرقشة .. فهى من سلالة بقرة مشهورة كانت لجدى يطلقون عليها « القمرية » ويبالغون فى ذكر كميات اللبن التى تدرها ، ومقدرتها على تحمل مشاق المحراث فضلا عن ولادتها المنتظمة كل عام .. لم أر القمرية هذه ، لكن مايثبت امتيازها ان الناس يوصون مقدما بشراء مافى بطن حفيدتها ـ المبرقشة ـ اذا كانت أنثى ..

قالت الجازية : مادامت الحمراء تعطينا اللبن ، بيعوا الثانية !

أدار أبى عنقه ناحيتها بحدة ، الدهشة تملأ وجهه ، شفته السفلى تختلج ، أعاد عنقه الى مكانه ، تنهد ، لاذ بالصمت ، استطردت الجازية : أنا لا اقدر أعيش من غير كوب حليب فى الصباح .

التفتت أمى ناحيتى وقالت : اشخط فى امرأتك !

وقفت الجازية وقالت بانفعال : لست بالجاهلة حتى يشخط فى . ثم غادرت الحجرة .

★ ★ ★

ركب الوجوم البيت حين بيعت البقرة الحمراء كأن عزيزا لدينا مات ، فلم نتبادل الحديث أنا وأبى وأمى والجازية طوال اليوم إلا فى أضيق الحدود ، واغلق جهاز التليفزيون ، وكان كل من يدخل علينا من الأقارب يواسينا

بقوله : « الله عنده الخلف » بعد أن يقول عن غياب زاهر « ربنا يكتب سلامته » ويغمغم أبى : « الله موجود » ولست أدرى لماذا أحسست بأن الجارية لم تشاركنا الحزن كما يجب ، قالت لى بلهجة محايدة انها تعرج على بيت أهلها ، قبل وصولها الى المدرسة ، لتشرب كوبا من اللبن .

أفرجوا عن زاهر بكفالة مالية ، وبعث لنا عمى الأستاذ دسوقى برسالة قال لنا فيها يجب أن تطمئنوا لأن توفيق بك يتابع معه القضية ، وسوف يحصل زاهر على البراءة فى المحكمة إن شاء الله .

لكن المشكلة كانت فى زاهر نفسه ..

فى اليوم الذى عاد فيه الى البيت ، ارتفعت حرارته ، رقد على سرير المرض ، أخذ طبيب الوحدة الصحية « منير » يزوره أكثر من ثلاث مرات فى اليوم ، يعطيه الكثير من الحقن والحبوب ، لكنه تدهور بسرعة ، برزت عظام وجهه ، غامت عيناه ، وفى اليوم الرابع انتحينا بالطبيب جانبا وسألناه عن حقيقة مرضه ، فقال أنا ظننته التهابا سحائيا ، لكننى لا أعتقد أن هذا مرضه ، وكنت أتمنى نقله الى مستشفى البندر لولا أن المستشفى الآن لاتوجد به أسرة خالية .

ولما كان بقية ثمن البقرة الحمراء لايزال مع أبى فقد قال له :

- رشح لنا مستشفى خاصا بمعرفتك .

فكر الطبيب قليلا وقال : سأذهب الى البندر غدا ، ربما استطعت تدبير سرير له فى المستشفى العام .

سألته : هل أذهب معك فاذا لم نجد سريرا ذهبنا معا للاتفاق على مستشفى خاص ؟

- لابأس .

طوال الأيام الأربعة لم نفارق زاهر ، بعد أن نقلناه الى حجرة نوم أبى ، وكان الداخلون والخارجون لاحصر لهم ، ولم يكن زاهر بقادر على الرد على استفساراتهم ، فكنا نتولى الرد أنا وبشير ومحروس وجعفر الباجس

وأحيانا كان يساعدنا سليمان ابن رزق الذى قطعت ساقه فى حرب أكتوبر ، لكنهم أجهدونا باستفساراتهم ووصفاتهم ..

اضربت امى عن الطعام ، وتحول أبى الى هيكل عظمى ، وكانت الجازية تبدو طوال الوقت صامتة ، لا اتبادل معها الحديث إلا عند الضرورة ، وكنت أحس من تصرفاتها العصبية انها ضائقة بكل شىء ، وجاءت الكثيرات من النساء وفى مقدمتهن عمتى فاطمة الغنامة ، وعمتى مرزوقة والدة الغباشى وزوجته زينب وأمها وعمتى راضية زوجة حافظ وزوجة عمى عرابى ، جلسن بجوار امى فى حجرة مجاورة بعد أن منعناها من الدخول على زاهر لبكائها المتواصل ، وكانت سميحة بنت عرابى لاتفارق أمى ، وخيل الى انها لم تذق الطعام طوال مرض زاهر ، إذ شحب وجهها ، وغارت عيناها وجاء عمى الشيخ يوسف الكفيف ، وضع يده على راس زاهر ومضى يقرأ ماتيسر له من آيات القرآن الكريم ، وبعد فترة ، جلس على مبعدة واخذ حفيدة موسى يقرأ له : « فحمد الله واثنى عليه ثم قال لاصحابه : إنه قد نزل من الامر ماترون ، وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وادبر معروفها فلم يبق منها إلا صبابة كصبابة الاناء ، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ، الا ترون أن الحق لايعمل به ، وأن الباطل لايتناهى عنه ، فوالله لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا أرى الحياة مع الظالمين إلا برما »

وعاد عمى عبدالمعبود ، والد الجازية ، من البندر ، وأعطانى رسالة من عمى الأستاذ دسوقى يدعونى أن أزوره فى بيته ، فقررت تلبية طلبه .

★ ★ ★

دخلنا البندر ضحى ، انا والطبيب منير ، نمتطى حمارين ، والتقينا بابن عمى عبدالمجيد الغباشى يركب سيارته البيجو فى اتجاه بلدنا ، خلفه تسير شاحنة تكدست عليها البضائع التموينية ، تذكرت أمه ، عمتى الحاجة مرزوقة ، تضرب صدرها بيدها وتقول للنساء حولها ، ابنى أصبح من أعيان البلد ، سألنى الدكتور منير :

ـ من اين ياتى عبدالمجيد بهذه البضائع ؟

ـ الله أعلم ..

- واضح أن وراءه شخصيات مهمة .

- يجوز ..

مصمص شفتيه وقال : كنت أظن هذه الظاهرة مقصورة على القاهرة فقط ..

ثم كمن تذكر شيئا : هل صحيح يريد الزواج من الناعسة ؟

- سمعت هذا الكلام مؤخرا .

- لكنه متزوج ..

- يريدها فوق زوجته .

- قيل لى انها مخطوبة للأستاذ بشير .

- مجرد اتفاق بين الاهل ، والغباشى يغرى والدها بالهدايا .. كما يقال .

- خسارة .. بشير شاب ممتاز .. المثقف الوحيد الذى قابلته فى بلدكم .

- هو كثير القراءة ..

- سمعت انه منتسب لآداب أسيوط .. لماذا تأخر فى دراسته ؟

- تعطل لفترة لانهم فصلوه من المدرسة الثانوية بسبب تنظيمه لمظاهرة ضد زوجة شاه ايران .

- مظاهرة ؟ .. وما الذى جمعه بزوجة شاه ايران ؟

- كانت تزور الآثار فى المنطقة بصحبة السيدة جيهان السادات .

ساد بيننا الصمت ولم نعد نسمع غير دقات الحوافر فى الطريق الذى يشق مزارع القصب .. ماذا لو طال مرض زاهر ؟.. هل نبيع البقرة المبرقشة أيضاً ؟.. وما وقع هذا على الجازية ياترى ؟

- مالـك ؟

- لا شــىء .

ـ لا تحزن على زاهر .. سندبر أمرنا فى المستشفى ويجد العلاج اللازم .

اجتزنا مزلقان السكة الحديدية ، اشترينا الصحف من البائع الذى يفرش على سلم المحطة ، حين تحركنا لندخل الشارع المحازى للسور الذى يفصل السكة الحديدية عن سور البندر ، رأينا جنود الشرطة يحيطون بشاب نحيل عليه جلباب من الدمور ، وعلى رأسه عمامة تهدلت فهبط نصفها ليلتف حول عنقه ، سألت أحد الواقفين فقال :

ـ قتل بنت عمه .

ـ لمـاذا ؟

ـ يُقال إنها هربت من القرية منذ سنوات ، وظل يبحث عنها الى أن عرف أنها تقيم فى البندر .

ـ ومن أجل هذا قتلها ؟

تردد قليلا قبل أن يقول :

ـ يقولون إنها كانت تسير فى طريق الحرام ، لكن الله أعلم

ـ من أى بلد هى ؟

ـ لا أعـرف ..

واصلنا سيرنا وأنا أقول للدكتور منير :

ـ من حوالى شهرين ، رأيت حادثا مماثلا .

هز رأسه وقال :

ـ الشخصية المصرية لم تعد كما كانت .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ حين غادرت حارتى بالقاهرة ، كانت فكرتى عن الصعيد مختلفة .. لم أكن أتخيل أن تهرب واحدة من قريتها لتحترف البغاء .. وأين ؟.. فى أعماق الصعيد ؟

كان يتكلم وقد أحمر وجهه ، وبين الحين والآخر يضغط على قنطرة نظارته الطبية ويردد :

ـ كلا .. هذه ليست مصر التى أعرفها !

ـ اتفقنا على أن يذهب الى المستشفى وأذهب الى بيت عمى الأستاذ دسوقى على أن نلتقى بعد ساعة فى مقهى خنفس أمام مكتب البريد .

استقبلنى عمى الأستاذ دسوقى فى صالون بيته ، قال لى باسماً إنه سعيد بزيارتى ، وكان يرتدى بيچامة صوفية فى لون قشر الفول السودانى ، وصافحتنى زوجته ، وهى امرأة فى الأربعين ، طويلة ، ممتلئة قليلا ، ينسدل شعرها على كتفيها ، من أهل البندر ، تلتف بروب صوفى رقيق ، قرمزى اللون ، حين سمعتنى أخبر زوجها عن مرض زاهر ، انزعجت وظلت تواسينى لفترة على الرغم من أنها لم تر زاهر من قبل فأحسست بطيبتها ، وارتدى هو بدلة داكنة وخرج معى .

التقينا بالدكتور منير فى المقهى ، قال لنا لا توجد أسرة خالية بالمستشفى ، واقترح أن نذهب معه الى طبيب يعرفه ، لكن عمى قال له إنه تربطه صداقة بطبيب مشهور من دمنهور اسمه عبدالوارث ، يملك مستشفى خاصا ، فذهبنا اليه .

كان الطبيب عبدالوارث فى الخمسين ، مستدير الوجه ، أصلع ، باسما دائما ، يخاطب عمى بقوله يا"دسوقى بك" ، قال انه يحب أهل قريتنا لظرفهم وشهامتهم ، لكنه يضيق بزوَّارهم لأنهم يزعجون مرضاهم ، ثم ضحك وأضاف ، يعجبنى فى مجتمعكم أنه مترابط ، لكننى لن أسمح بزيارة المريض إلا فى مواعيد محددة ، وبعد أن قهقه روى نكتة سمعها عن أهل قريتنا بأن الواحد فيهم اذا أراد أن يبيع بقرته ، ذهب بها إلى السوق وزعم أنها "عشار" فاذا طلبوا منه أن يحلف ، أمسك بذيلها وقال : علىّ الطلاق لها أربعة وهذا الخامس !

ضحكنا واتفقنا معه على نقل زاهر الى مستشفاه ، وعند خروجنا سألت عمى عن التكاليف المنتظرة ، فذكر رقما أذهلنى .. قطعاً هو سيقضى على ما بقى من ثمن البقرة الحمراء خلال أسبوع ، لماذا ترتعش ساقاى هكذا ؟.. لو أن "زاهر" قضى شهرا فى هذا المستشفى ، فسوف نبيع

البقرة المبرقشة أيضاً وجزءا من الأرض ، وماذا لو طال المرض أكثر من شهر ؟

- هل تكلم نفسك ؟
- لا ياعمـي .
- أريدك لأمر مهم ، تعال معى الى البيت .

أدرت عنقى نحو الدكتور منير ، أوعز الى عمى أن يطلب استضافته ، ولو على سبيل المجاملة ، لكنه مد اليه يده وصافحه بفتور .

جلسنا فى الشرفة المطلة على حظيرة عجول التسمين ، وسألنى :

- هل مهنة التدريس تقوم بواجبك ؟
- مرتبى ومرتب زوجتى والدروس الخصوصية ، تكفى .. خصوصا أننى أقيم مع أسرتى .
- أنت كفاءة ممتازة ولا يصح أن تدفن نفسك فى قرية فقيرة الامكانيات مثل بلدنا .
- وما العمل الذى أصلح له ؟

صمت قليلا قبل أن يقول :

- قمنا بتكوين شركة أنا وأربعة من رجال الأعمال ، أحدهم الأستاذ عبدالودود الأفندى ، أظنك تعرفه .

- أعـرفـه ..
- أنا رشحتك لتتعاون معنا فى وظيفة محترمة .. كأنك شريك لنا دون أن تدفع شيئا من رأس المال ، لأن الوظيفة تحتاج لإنسان نثق فيه .
- يالفرج الله .. جاء عرضك فى الوقت المناسب .
- أشكرك ياعمى من صميم قلبى ، لكن ما نوع نشاط الشركة ؟
- سأشرحه لك .. المهم أننا قررنا ألا نشرك معنا إلا الذين نطمئن إليهم من أقاربنا وأصدقائنا .. والمرتب سيرضيك .

هل رأسى يدور أم الدنيا هى التى تدور ؟.. الرقم الذى ذكره عمك يزيد عن ستة أو ربما سبعة أضعاف مرتبك ومرتب الجازية بما فى ذلك الدروس الخصوصية ..

- استعد خلال يومين أو ثلاثة ، وسأدبر لك السكن المناسب ولا تحمل هما للأثاث .. عندى طقم صالون وحجرة نوم كاملة نصف عمر لا مكان لهما فى البيت بعد أن جددنا الأثاث ، وأنا عمك على كل حال .

- أعز الأعمام .

- اذهب لاحضار زاهر ، وسأكون فى انتظاركما عند الدكتور عبدالوارث .

طوال الطريق وأنا أحلم بالامكانيات التى سوف يتيحها لى المرتب الكبير .. لن نبيع بقرتنا المبرقشة ، حفيدة القمرية ذات الأصل العريق ، وسنعوض البقرة الحمراء حالاً ، وسوف اشترى تليفزيوناً ملوناً وجهاز فيديو وثلاجة وغسالة كهربية ومكواة وثلاث دفايات وأربع مراوح وأجهزة تسجيل واستريو وجميع الاشياء الاخرى ، ولن يستطيع محروس أن يتباهى امامى بعد اليوم ، وسوف اسبق سيارة الغابشى بسيارة أحدث منها ، واشترى للجازية ثلاثين فستاناً ، وأتولى الانفاق على عُرس زاهر ، بعد أن يشفيه الله ، وابعث بأبى وامى الى حج بيت الله ، لكن كيف لم استشر عمى دسوقى ، هل أستقيل من عملى ، أم يتوسط لى للحصول على اجازة بدون مرتب ، ثم ما نوع نشاط الشركة ؟. على كل حال هذه امور يمكن الاستفسار عنها آخر النهار ، بعد ادخال زاهر المستشفى .

ضربت جنبى الحمار بكعبى لكى يسرع ، حين لاح النيل من بعيد ، تردد فى داخلى لحن الأغنية الشعبية "لنا يوم ، العُمْر إن طال" .

★ ★ ★

ما هذا الزحام فى البيت ؟.. كثيرون ينحنون فوق سرير زاهر الذى يلهث بصوت مسموع .. عرفت أنهم منعوا أمى من الدخول عليه بسبب انهيارها ، وقال لى عمى عرابى :

- لو نقلناه الى البندر ، سيموت معنا فى الطريق .

- نستأجر سيارة .

- السيارة سترجه خصوصا أن الطريق غير ممهد .

قال عمى الشيخ رزق ، اكبر النجع سنا :

ـ حمارتى بطيئة السير ومشيتها ناعمة .. يركبها ويركب أخوه وراءه لكى يسنده .

اعترض عمى عرابى ، وقال لى :
ـ عُد حالاً الى عمك الأستاذ دسوقى .. قل له يطلب من الدكتور عبدالوارث يتفضل بالحضور للبلد ، وله كل ما يريد .

جاء عمى دسوقى وبصحبته الدكتور عبدالوارث الذى كشف على زاهر بدقة وأعطاه حقنة وأوصى ببعض الأدوية وقال :
ـ هاتوه لى بعد يومين أو ثلاثة ، بمجرد أن تعرفوا أن النقل لن يضره ، لكن امنعوا الناس من إجهاده .

عند انصرافهما همس لى عمى الأستاذ دسوقى :
ـ سأنتظرك فى الصباح .

★ ★ ★

قضينا الليلة بجوار زاهر ، أنا وبشير ومحروس وجعفر الباجس وسليمان ابن رزق الذى فقد ساقه فى حرب أكتوبر ، نتناوب السهر ، ونمنع أى أحد من الدخول عليه ولو بالقوة ، وذهبت الى أمى ، فى حجرة أخرى ، لأشد من أزرها ، ولما وجدت الكثيرات حولها ، اطمأن بالى ، ووجدت الناعسة هناك ، قالت لى مواسية "ربنا يكتب سلامة زاهر" ، وانتحت بى الجازية جانباً ، اشفقت عليها حين رأيت وجهها شاحبا ، كأنها لم تذق النوم منذ أيام ، قالت لى :
ـ سأبيت الليلة عند أهلى .
ـ وتتركى أمى وحدها ؟
ـ النساء حولها كثيرات .
ـ لكـن ..
ـ أعصابى متعبة ياعامر ..
ـ سأبشرك بخبر تفرحين له .. سأتسلم عملاً يدر علينا دخلاً كبيرا جدا ..

بدا من تثاؤبها أنها فى حاجة الى النوم ، لم تستوعب ما قلته لها ،

اختلط اشفاقى عليها بغيظى منها ، قلت :

ـ اذهبى ، لكن حاولى استرضاء أمى ..

عدت الى حجرة زاهر لأجد ابن عمى جعفر الباجس مشتبكاً فى نقاش حاد مع ابن عمى عبدالمجيد الغباشى ، الذى غضب لأن مكانته ـ كما قال ـ لا تسمح لواحد مثل جعفر الباجس أن يمنعه من الدخول على زاهر ، حاولت أن أشرح أوامر الطبيب لعبدالمجيد ، لكنه لم يسمع لى وانسحب غاضبا .

وكان الكثيرون يجلسون فى فناء البيت وتحت سقيفة المدخل ، وأمام الحجرة ، بعد أن منعنا الدخول عند زاهر ، لكن لما جاء عمى الشيخ رزق ، اكبر النجع سناً ، لم نستطع أن نمنعه ، لاسيما أننا نعرف أن "زاهر" يحبه .. ودخل عمى رزق ، بوجهه النحيل المتغضن ، وقامته الطويلة التى انحنت بحكم السن ، عليه ثوب أسود قديم ، وعمامة كبيرة ، قال بلهجة ضاحكة :

ـ ما رأيك ياولد يازاهر فى قعدة من قعداتنا القديمة ؟

ابتسم زاهر لأول مرة ، فشاعت السعادة على الوجوه ، وهب ابن عمى جعفر الباجس بجسده القوى كأنه مصارع ، خرج وعاد يحمل دُفاً أعطاه لعمى رزق الذى نقر عليه بأصابعه النحيلة ثم قال "ياليل" بصوت منغم مثير للشجن ، رددنا معه فى سرنا "الله" وبدأ بموال صلى فيه على "حبيبنا الزين طه ، طلب منه الإله يندفن فوق ، قال أُمَّتى فى الأراضى" ثم ولج بنفس الصوت المنغم الى قصة خليفة الزناتى ، فارس تونس الخضراء وزعيمها الذى تخلى عنه قومه ليتحمل عبء القتال وحده ، ضد الأعداء الذين أغاروا على بلاده ، كان يحاربهم ويتحسر على أيام شبابه ، فقد تأخر الأعداء فى مجيئهم ، لو جاءوا وهو فى سن الشباب لتغير الموقف :

لو جيتون فى شدتى وعفاى ..
قبل ما تشيب الشوارب ..
من الحرب ما أقول كفاى ..
لما تغيب شمس المغارب .

لكنهم جاءوه فى السن التى لا تسمح بالقتال ، وقد تقاعس قومه بمن فيهم أبناء عمه الأقربون الذين يقول لهم رأياً فيفعلون ما يخالفه :

لكن جيتون فى سن تسعين ..
وخف النظر من عيونى ..
وأولاد عمى الدنيين ..
أشور شورتى ويخالفونى .

ولما كان موقف خليفة الزناتى ينطبق على عمى الشيخ رزق حيث إن نكبته المالية حدثت وهو فى سن الشيخوخة ، ثم كانت الطامة حين فقد ولده سليمان ـ الذى كان زينة شباب النجع ـ ساقه فى حرب أكتوبر ، فقد تجاوب الناس معه حيث تركوا السقيفة وفناء البيت وزحفوا الى مدخل حجرة زاهر يشرئبون بالأعناق ويصغون فى خشوع ، وفتح زاهر عينيه كأنما العافية عادت اليه ، أشار إلىّ أن أسنده لكى يجلس ، وضعنا وسادتين لصق الجدار وأجلسناه أنا وبشير ومحروس فاتكأ عليهما ، بعد أن ساعدناه فى لف عمامته وطرحنا الغطاء على ساقيه ولففنا كتفيه وظهره بعباءة أبى . مضى يسمع فى شغف ويقلب ناظريه فى الناس بعينيه اللتين أصبحتا مجوفتين ويحاول الابتسام رغم أن ملامحه اتسمت بتعبيرات طفولية حزينة ، استبشرنا خيراً ، لاسيما أن خليفة الزنانى صمم ، رغم تقاعس قومه ، على الدفاع عن البلد وحده ، وتمنيت لو كانت الجازية معنا تستمتع بصوت عمى الشيخ رزق الذى تعجب به ، لكن ما الذى يمنع من زيارتها والعودة بها الآن ؟

★ ★ ★

وجدت عمى عبدالمعبود والجازية يجلسان فى المدخل .. قالت فى دهشة : ما الذى جاء بك ؟

ـ هل يصح أن تمكثى هنا وتتركى البيت فى هذا الوقت ؟

عليها ثوب أبيض طويل به ورود زرقاء أعطاها طابعاً رومانسياً ذكرنى باليوم الذى كنا فيه فى رحلة معا الى عاصمة المحافظة .. أوقفنا أتوبيساً به عدد من السياح الأوربيين ، حين صعدت رمقتها الأنظار باعجاب ،

صاحت أمرأة أوربية فى حدود الخمسين : ما أروعك يافتاة ..

أجابتها الجازية بالانجليزية : شكرا ..

التفتت المرأة الى رجل بجوارها يبدو انه زوجها : هذا اللون البنى الساحر ؟

همست للجازية : ابسطى يابنت ، حتى الخواجات معجبون بك .

قال لى عمى عبدالمعبود وشاربه الكث يتحرك مع كلماته :
- دعها الآن ياعامر ، هى متوعكة قليلا ..
- هل أنت متوعكة ياجازية ؟

أجاب أبوها عنها :
- نعم ، متوعكة .

قالت هى :
- سأعود الى البيت ، لكن ليس الآن .

غير أبوها مجرى الحديث ، مضى يروى عن أشياء بدت لى تافهة ، مكثت قليلا وانسحبت وأنا اغلى ..

لكن عمى الشيخ رزق أسعدنا ، بعد أن دبت الحياة فى زاهر ، وسمحنا للنساء بالدخول عليه ، بشرط ألا تزيد الواحدة عن كلمة أو كلمتين ثم تخرج ، فدخلت أمى وعمتى فاطمة الغنامة وزوجة عرابى وعمتى مرزوقة والدة الغباشى وغيرهن ، لكى يخاطبنه بكلمات قليلة يتمنين له الشفاء ويخرجن ، لكن عمتى راضية لم تكتف بهذا ، بل أذاعت "موجزاً" لأهم الأنباء العالمية والمحلية ، شرحت حادثة سرقة وقعت فى قرية على مبعدة ثلاثين كيلو مترا ، وتحدثت عن عمدة بلدنا الذى "زاغت" عينه على بنت فى سن أحفاده ويفكر فى الزواج منها ، وأوردت تقريرا مطولا عن عمى الأستاذ دسوقى بأنه يتظاهر بحب أهل نجعنا فى حين انه يكرههم فى باطنه ، بدليل أن زوجها ، عمى حافظ ، زاره مرة ، فتركه فى صالون البيت مع ولده هشام ، وما لبث هشام أن تركه هو أيضا فقام حافظ يجر أذيال

الخجل ، وقالت إن دسوقى لم يخالطنا إلا بعد أن ضايقه سكان عزبة "التسعين" فى البندر ، فاستنجد بأهالى نجعنا الذين ذهبوا اليه فى مظاهرة ضخمة يحملون النبابيت والحراب ، فخشى سكان العزبة العاقبة حين عرفوا أن له عزوة قوية ، من يومها أصبح دسوقى قريبنا ، بعد أن وجد فينا أناسا يحمونه مجانا ، واحتجت بقية العمات والخالات ، اللاتى كن يردن السلام على زاهر ، على هذه "العطلة" التى سببتها "النشرة" ، لكن سعادة زاهر بها ، وتضاحك الموجودين ، شفع لها .. وحين دخلت ابنتها "سعدية" تسلم على زاهر ، ارتبك الشباب ، ورغم أن ثوبها الفضفاض يغطى جسدها حتى الكعبين ، وشالها القطيفة الأصفر يغطى نصف وجهها وينسدل حتى يصل الى منتصف ظهرها ، إلا أن أنوثتها المتفجرة ، شعت بطريقة جعلت ابن خالى محروس يتنهد بصوت مسموع ..

ومع أن الناعسة من أجمل بنات النجع ـ لولا نحافتها كما تقول عمتى راضية ـ إلا أنها لم تلفت أنظار الشباب حين دخولها ، رغم أن شعرها لا يغطيه شىء ، وثوبها لا يصل إلا الى ما تحت الركبة بقليل ، ربما لأن شخصيتها القوية و"علمها" أضفيا عليها هيبة ..

صافحت زاهر ، وخاطبته بلثغتها المحببة التى تنطق الراء غينا ، فقام ابن عمى جعفر الباجس من مجلسه بجوار بشير الزنديق ، وقال لها "اقعدى ياأستاذة" لكنها شكرته وخرجت وابتسامتها العذبة تملأ وجهها ، وكان يمكن أن أكون سعيدا ، لولا تصرف الجازية الغريب بالاصرار على المبيت عند أهلها .

★ ★ ★

استقبلنى عمى الأستاذ دسوقى فى صالون بيته الذى تحيط جدرانه ستائر من الدانتيلا البيضاء ، وفى الجدار المواجه للداخل صورة كبيرة للرئيس أنور السادات يرتدى الزى العسكرى الذى يُقال انه يشبه زى قادة الألمان أيام هتلر ، وكنت مازلت متعكر المزاج بسبب تصميم الجازية على المبيت عند أهلها ، وسألنى عمى :

ـ ما أخبار زاهر ؟

- تحسن جدا كأنه شفى فجأة .
- صديقى عبدالوارث بك من أخطر الأطباء فى مصر والعالم .
- الدكتور عبدالوارث من ناحية ، وعمى الشيخ رزق من ناحية .

ظهر الاستياء على وجهه وتساءل : عمك رزق ؟

ارتج علىّ أمام نبرات صوته الساخرة فجاء كلامى غير مترابط :
- زاهر يحب أغانى عمى رزق .. أصله صمم على الدفاع عن تونس !.. قصدى أولاد عمه لم يحاربوا معه !.. الأجانب طمعوا فيها وأهله صادقوا الأعداء وهو مصمم على القتال !.. يعنى خليفة .. آه .. الزناتى !

أغمض عينيه وقال كأنه يبصق :
- اصحوا ياعالم !.. الناس وصلت القمر وانتم مازلتم فى سيرة الهلالية والكلام الفارغ ؟!.. اسمع .. قم الآن وقابل الأستاذ عبدالودود الأفندى ..
- الا تأتى معى ياعمى ؟
- تكلمنا أنا وهو بشأنك .. قل له أنا عامر ، أرسلنى عمى دسوقى بك وهو سيتصرف .

وجدت الأستاذ عبدالودود الأفندى يجلس الى مكتبه العريض الذى يقع الى يمين الداخل فى محل المانيفاتورة ، ذى الأبواب الثلاثة ، الذى يملكه فى أهم شوارع البندر .. عارى الراس ، فى مقدمة رأسه صلعة خفيفة ، وجهة النحيل يشبه وجه النسر ، عليه بدلة كحلية اللون من الصوف الانجليزى ، صافحنى بحرارة واشار الى مقعد أمام المكتب :
- تفضل ياأستاذ .

العملاء من أهل البندر ومن القرى المجاورة يزحمون المتجر ، أغلق درج مكتبه ووقف ، خاطب أحد موظفى المحل بقوله : "خل بالك" ثم خاطبنى : تعال معى .

ركبنا سيارته المرسيدس ذات اللون الأصفر ، اتجه الى اقصى الشرق من البندر ، فى منطقة لم أزرها من قبل ، تقع بها ڤيلات على رأس الحقول .. وقف امام بيت من طابق واحد منعزل عن بقية البيوت ، تقع خلفه

وعن يمينه ويساره مزرعة ، استنتجت أنه يملكها لأن خفيراً عجوزاً جاء يهرول ووقف أمامه كالتمثال ..

وجدت نفسى فى صالة واسعة ، قديمة الأثاث ، أحسست من الهدوء الذى يكتنفها بأننا فى عالم يختلف عن عالم الصخب الذى يشتهر به مركزنا لاسيما فى منطقة السوق .. أشار الى باب حجرة وقال : تفضل هنا .

جلست فى حجرة بها أرائك جلدية ، كانت واسعة جداً ، ستائرها قديمة ، خيل الىّ لشدة الهدوء ، أننى معزول عن العالم .

وقف فى مدخل الصالون وقال :

ـ سأعود بعد نصف ساعة ، مجرد أوراق أطلع عليها فى حجرة المكتب ، اعتبر نفسك فى بيتك .

تراجع بظهره وأغلق الباب ، تكاثف الصمت حولى ، شعرت بالوحشة ، هذا تصرف أخرق من الجازية أن تبيت عند أهلها فى اللحظة التى نحتاج اليها ، ترى ، هل ثمة علاقة بين تصرفها هذا وبين اسماعيل ابن توفيق بك ؟.. لماذا لا تكون الأخبار قد وصلتها وأرادت التخلص منى ومن أهلى ومن الفقر الذى ـ كما يقول عمى حافظ تارك الصلاة ـ يعرفنا ونعرفه ؟.. ما هذا ؟.. هل ثمة نقرات على الباب ؟.. نعم ..

ـ تفضـل ..

دخلت فتاة خمرية لها سمات بنات البندر ، وجه مستدير ، وعينان عسليتان ضاحكتان ، لقوامها رشاقة واضحة يثير البهجة وفى نفس الوقت يبعث على اليأس من الاقتراب منها ، عليها فستان قرمزى يصل الى ما تحت ركبتيها بقليل ، كانت تحمل صينية فضية ، ابتسمت كأنها تعرفنى ، قالت بلا تكليف :

ـ إزيك ياعامر ؟

ـ أهـلا وسهـلا ..

تذكرت أننى رايتها منذ شهور ، أثناء مرورى أمام سلم المحطة ، وضعت الصينية على المنضدة ، ظهر ابريق شاى من الخزف الأبيض عليه

رسوم نباتية زرقاء ، وطبقان مزخرفان ، عليهما قطع الحلوى وفنجانان كبيران ، جلست فى طرف الأريكة التى أجلس عليها ، أدارت عنقها اللطيف وشعرها على شكل ذيل الحصان استدار معها بحركة عكسية ، سألتنى بصوت كالموسيقى ، وابتسامتها تزغرد :

- كم ملعقة سكر ؟
- أى حاجة ..

وضعت ملعقتى سكر فى فنجانى فقلت :

- أنا رأيتك من مدة عند سلم المحطة ..

ظهر عليها الاستغراب ، حاولت مداراة ابتسامة مسرورة وهى تحرك الملعقة فى الشاى ، قلت :

- وأذكر أننى قلت بصوت عال : اللهم الهمنا الصبر .

ضحكت وهى تقول :

- آه .. تذكرت .. كان معك ثلاثة أو أربعة يرتدون الجلابيب وعلى رءوسهم عمائم كبيرة ، يومها قلت لنفسى هم من قرى غرب النهر .
- مالهم سكان غرب النهر ؟
- لا تزعل ، أنا أحبهم .. الناس يقولون إنهم متخلفون ، لكننى أقول انهم أطيب من سكان البندر ..

صوتها متماوج ذو غنة يرفرف لها القلب :

- شكرا ، ما اسمك ؟
- شوشـو ..

نطقت الاسم برقة وقعت على مسمعى وقع اللحن المحبب :

- أنت بنت الأستاذ عبدالودود ؟
- بنت أخته .
- أهلا وسهلا ، أبوك موجود ؟

ظهر الأسى على الوجه الجميل : توفى .

- الله يرحمه .. ووالدتك ؟

- موجودة ..
- الحمد لله ، ربنا يخليها .
- شكـرا ..

دخل علينا عبدالودود الأفندى وهو يقول :
- لا مؤاخذة ياعامر ، تأخرت عليك .

ليتك لم تأت أبدا !

انسحبت شوشو ، قرب منى واحداً من أطباق الحلوى وقال "كُلْ" ثم أمسك بالشوكة وأخذ يأكل ، ولما حاولت أن أفعل مثله ، تفتتت الحلوى فى الطبق ، فألقى بالشوكة ومضى يأكل بيده فشعرت بالراحة وحذوت حذوه ، قال :
- ستكون شريكاً لنا ، مثلنا ، لأن عملك فى غاية الخطورة .
- ما العمل الذى سأقوم به بالضبط ، ما نوع نشاط الشركة ؟

قال بلهجة من يمهد وقد كف عن المضغ :
- التجار فى القرى يحضرون الى البندر لشراء بضائعهم .. هذا يكلفهم جهدا ووقتا .. نحن سنوفر عليهم كل هذا .. شاحنات الشركة تذهب الى كل القرى ، تبيع للتجار ما يحتاجون اليه ، نظير زيادة طفيفة جدا عن سعر البندر ..
- وما نوع البضائع ؟
- كل أنواع البضائع ، ابتداء من النسيج ، حتى الصابون .. لكننا سنركز فى هذه الفترة على الأجهزة الكهربائية لأن القرى الآن فيها حركة تجارية محترمة بعد دخول الكهرباء .. وعلى كل حال مصر كلها تمر الآن بفترة ازدهار بعد سياسة الانفتاح المباركة .
- وعملى أنا ؟
- سنتولى تحصيل الأموال من القرى التى نتعامل معها .
- محصّل ؟
- وجه إلى نظرة معاتبة وقال :
- عملك لا يستطيع القيام به إلا أحد أبنائنا .. وأنت بالذات رشحك

شريكنا دسوقى بك باعتبارك ابن اخيه ، لكنه قال يجب ان يعامل كأنه ابنى .

- أنا ابنه فعلا .

- لو جئنا بأى واحد لتحصيل الأموال من القرى ، قد يعتدى عليه اللصوص الذين انتشروا هذه الأيام فى زراعات القصب .. لكنك أنت ستكون فى حماية أقاربكم ، من أبناء قبيلتكم المنتشرين فى القرى .. أى أحد يفكر فى الأموال التى تحملها ، سيعمل حساب أقاربك .. هل فهمت أهميتك ؟

شعرت بالفخر وأنا أقول : فهمت ياأستاذ .

- هل تجيد قيادة السيارات ؟

- مستعد أتعلم .

- سنعين لك سائقا موقتاً ، وسنجهز لك مسدسا مرخصاً ، وعليك أن تعتبر نفسك شريكا لا موظفا .

- متى أبدأ العمل ؟

- غـدا ..

- غـــدا ؟

- نعم ، لأننا بدأنا العمل فعلا .

- الأمر يحتاج الى اجازة بالنسبة لى ، أنا مدرس كما تعلم .

- سأتصل بدسوقى بك لينهى كل هذه الأمور .

- بلغنى ان وزارة التربية والتعليم اقفلت الاجازات بدون مرتب ، وترغم المدرسين على تقديم استقالاتهم .

- لا تشغل نفسك ، وزارة التربية كلها فى يدنا !

★ ★ ★

واستأنفت عمتى راضية "نشرتها" التى يبدو أنها قطعتها عند دخولى البيت :

- وعمكم الشيخ رزق رهن آخر بيت من بيوته - التى كان يؤجرها للمدرسين الغرباء - لعبدالمجيد الغباشى .

ظهر الحزن على وجه أبى لتدهور أحوال عمى الشيخ رزق وتأثر زاهر ، وطارت الفرحة من الوجوه بعد أن أخبرتهم بنبأ عملى الجديد ، واستأنفت راضية نشرتها :

- وولده سليمان ، كلما ذكروا له فتاة ليخطبها ، اختنق صوته وقال : وأين هى البنت الجميلة التى ترضى بمن فقد ساقه وافتقر أبوه ؟

قال ابن خالى محروس : ولماذا فتاة جميلة ؟.. عليه أن يبحث عن واحدة تكون على قدر حاله .

- تمتم ابن عمى بشير الزنديق ببيت من الشعر كأنه يتحدث بلسان سليمان :

أما الحسان فيأبيننى .. وأما القباح فآبى أنا .

عند انشغال الجميع فى الحديث ، همست لى عمتى راضية :

- سلفنى خمسة جنيهات .

تنبهت عمتى فاطمة الغنامة فقالت لها : انت استلفت منى جنيهين من ربع ساعة ؟

أجابتها ضاحكة وهى تدس النقود فى جيب جلبابها الواسع :

- بصراحة فلوس عامر لن تعود اليه لأنها حلاوة عمله الجديد .

بعد انصرافها قالت عمتى فاطمة الغنامة وهى تتنهد : عوضى على الله فى الجنيهين !

جاءت الجازية فانتحيت بها جانبا : عندى خبر طيب يابنت .. سأتسلم عملا خطيرا يعطينا دخلا يوازى ..

- سـ أعود للمبيت عند أهلى الليلة ..

- أنت لم تسمعى بقية كلامى ..

- تكلمنا أمس فى هذا الموضوع ..

- لم نتكلم ..

- تكلمنـا ..

- لم تدعينى أكمل كلامى ..

ـ على كل حال مبروك ، استأذنك لأبيت عند أهلى .

ملعون أبوك وأبو أهلك يابنت عبدالمعبود الباطل .

ـ أليس من الواجب أن تكونى بجوار أمى فى مرض زاهر ياجازية ؟

ـ نصف نساء النجع حولها ، وزاهر تحسن ، ثم إنك تعرف أننى أحب أشرب كوب لبن قبل النوم ، وآخر فى الصباح ، أستأذنك ياعامر .

أعرف ما تفكرين فيه .. سمعت بأن اسماعيل بك جن بك وتودين استثارتى لكى أطلقك ، هذا بعيد عن شنبك وشنب الذين خلفوك .

ـ استأذنك ياعامر ..

فى ألف داهية ..

ـ مع السلامة ياجازية ..

خرجت ، بعد أن أخذت معها بعضا من ثيابها ، وظللت لفترة أحاول السيطرة على أعصابى ، وجاء لزيارة زاهر ناظر مدرستى ، وقال لى بلهجة ودود أن "صديقه" دسوقى بك اتصل به تليفونيا ، ولذلك فعلى أن أعتبر نفسى فى اجازة الى أن تنتهى الاجراءات الخاصة بحصولى على اجازة رسمية بدون مرتب ، فشكرته ، وطوال يومى فى البلد لم يفارقنى طيف شوشو ، كنت أرى ابتسامتها فى كل شىء ، حتى فى الهواء الذى أتنفسه ، وكان ابن عمى جعفر الباجس يترنم بأغنية بصوته الأجش ، قاصدا تسلية زاهر ، وسمعنا صوت نهيق حمار فى الخارج ، فقال بشير الزنديق ساخرا :

ـ من سوء حظ الموسيقيين العالميين انهم غفلوا عن استغلال هذين الصوتين اللذين نسمعهما الآن فى سيمفونياتهما !



وجدت مبنى الشركة الجديدة فى طرف البندر الآخر الذى يبعد عن النيل .. سورا كبيرا يحيط بأرض واسعة ، كانت فى يوم ما زراعية ، تكدست عليها تلال من جميع أنواع البضائع .. أجهزة تليفزيونات وثلاجات كهربية وصناديق صابون وعطور وأجولة سكر ودقيق وبالات أقمشة وبراميل

زيت وغيرها وبكميات لم أر مثل ضخامتها إلا فى أرصفة الموانىء التى نشاهدها فى الأفلام .. وفى المقدمة مبنى ينقسم الى حجرات كثيرة فى احداها مكتب عريض يجلس خلفه عبدالودود الأفندى ، حوله أرائك من الجلد البنى ، يجلس عليها البعض ، منهم من يلبس البدلة ومنهم من يلبس الجلباب ، ما ان سلمت وجلست حتى قال الأستاذ عبدالودود :

ـ ياعبدالسلام ..

من احدى الحجرات جاء رجل نحيل ، محنى الظهر قليلا ، بارزا عظام الوجه ، بدت لى ملامحه ساخرة ، عرفت انه رئيس الحسابات بالشركة ، فى حدود الخمسين ، من أهل البندر ، عليه بدلة قديمة سوداء ، سترتها متهدلة ، قال له الأستاذ عبدالودود :

ـ قل لعون يطلع بالأستاذ ..

ـ خرج معى عبدالسلام ، أشار الى سيارة فيات سماوية ، يجلس خلف مقودها سائق مكتنز الجسد ، خاطبه :

ـ ياعون ، اطلع بالأستاذ على قرية "الرقبة" .

أعطانى عبدالسلام بياناً بأسماء التجار هناك والمبالغ التى يجب تحصيلها ، وقال :

ـ عون يعرف التجار ، لكن عليك الاتصال بأقاربك فى الرقبة ليؤمنوا خط سيرك وانت تحمل الأموال .

عبرنا النيل بواسطة "العبّارة" وقطعنا طريقا طويلا غير ممهد ، وصلنا الرقبة ذات الطابع الصحراوى ، وقفنا أمام بيت عمى الشيخ الغضبان ، وكان من الطوب اللبن ـ مثل بيوتنا ـ الذى يعزل الحرارة صيفا والبرودة شتاء ، لكنه أفخم مما حوله .

خرج علينا عمى الغضبان بالقميص الأبيض والسروال الطويل وعلى رأسه طاقية بيضاء ، عانقنا وأجلسنا فى حجرة "الديوان" وأرسل ولده ليحضر كل من يجده من أبناء عمومتنا ، وجاء الكثيرون ، الكل يعانق ويرحب ، شربنا الشاى وطلب منا أن نأتى للغداء ، بعد أن نحصّل الأموال من التجار ، وحين رفضت الغداء حلف بالطلاق فوافقت ، وسار معى عند

طوافى بالتجار ، ولاحظت أن بيوت القرية الطينية المتواضعة ، تمتلىء أسقفها بهوائيات التليفزيونات ، وكانت الأموال المحصّلة كثيرة ، امتلأت بها الحقيبة حتى حافتها ، ورأيت قافلة من الجمال ، تدخل القرية فجأة ، لم أتعجب ، حيث إن الرقبة وجارتها "بنبان" من المحطات الرئيسية التى تصلها الجمال من السودان عن طريق درب الأربعين .

عدنا الى ديوان عمى الشيخ الغضبان ، وهمس أحد أبناء العمومة فى أذنى :

كان شابا فى الخامسة والعشرين ، يعمل مدرسا فى القرية ، وقفنا خارج الديوان ، قال لى :

- أثناء زيارتى لبلدكم رأيت شابة جميلة جدا تعمل مدرسة ، اسمها الناعسة ، هل يمكن أن أخطبها ؟

- مخطوبة ..

ظهر عليه الأسى وهو يتساءل : لمن ؟

- لواحد من أولاد عمنا اسمه بشير .

- بشير ؟.. هل هو الذى يسمونه الزنديق ؟

- نعـم .

- لكنهم يقولون ان أخلاقه سيئة وغير مستقيم ، ويشتم الحكومة ، ومهدد بالاعتقال فى أى وقت ، فكيف توافق عليه هذه الإنسانة المحترمة ؟!

كدت أضحك لهذه السمعة "الحسنة" التى يتمتع بها بشير ، لكننى قلت بلهجة مواساة :

- قسمتهـا !

مصمص شفتيه وعدنا الى الديوان ، وبعد أن تناولنا الغداء ، ركب حوالى خمسة من أبناء عمومتنا الجمال وساروا معنا بأسلحتهم النارية الى أن هبطنا "العبارة" وتذكرت حملات ابن عمى بشير على النظام القبلى الذى يفسد الانتخابات حيث تتعصب كل قبيلة لمرشحيها دون النظر للمبادىء ، فحمدت الله على وجود هذا النظام الرائع ، فلولاه لما حصلت على هذا المرتب الكبير !

وقفت بنا السيارة ، أنا والسائق عون ، أمام مزلقان السكة الحديدية ، عند المحطة ، فى انتظار مرور القطار ، تجمعت حولنا وخلفنا سيارات من كل الأنواع مع زحام من راكبى الحمير قادمين من القرى ، نظرت من النافذة ، وقع بصرى على اسماعيل ابن توفيق بك يمتطى صهوة جواد أبيه الأسود ، شعره الناعم مرجّل بعناية ، عليه جلباب حريرى أبيض ، تكوينه الرياضى منسجم مع الجواد الرشيق ، قطعاً رأت الجازية هذا الوجه البهى فوقعت فى غرامه ، لاسيما بعد أن سمعت انه مرض بسببها ، الجازية جميلة ، اسماعيل معذور لو مرض من أجلها ، هى معذورة أيضا ، أمامها المال والجمال والحياة العريضة ، مالها بنا نحن المساكين الذين لا نستطيع أن نوفر لها ولا حتى كوب لبن فى الصباح ؟

لاحظت أن إسماعيل يتحدث مع رجل لا أعرفه ، يقف بجواره راكبا حمارا ، يميل بعنقه الى الوراء ، رافعا وجهه اليه ، وعمامته تكاد تنزلق الى الخلف ، فتح المزلقان ، بعد مرور القطار ، فعبرنا .

★ ★ ★

مضى عمى الأستاذ دسوقى يرقبنى فى سرور وأنا أسلم الأموال فضلا عن البيانات الخاصة بكل عميل ، ثم وقف وقال لى :

- بعد أن تنهى أعمالك ، سأنتظرك فى البيت .

بعد أن سويت الأمر مع عبدالسلام ، رئيس الحسابات ، قال لى الأستاذ عبدالودود الأفندى :

- تعال معى ، قبل أن تلحق بدسوقى بك .

ركبنا سيارته المرسيدس ، وفى البيت تركنى فى الصالون ، جاءت شوشو تحمل صينية عليها كوبان من عصير الليمون ، أهلت كالنور الذى بدد الظلمة ، قالت بلهجة مرحة :

- أخبارك ياأستاذ ؟

- سعيد برؤيتك .

علقت ضاحكة : لا ياشيخ ؟

ضحكنا معا .

بنات البندر ليس لهن مثيل ، الذوق واللطف موقوفان عليهن ، وإلا ، فمن أين تأتى شوشو بهذه الضحكة الموسيقية ؟

- تزوجت ياعامر ؟

فوجئت بالسؤال ، أخفيت يدى التى تحمل الدبلة ، قلت : لا .

عضت شفتها السفلى ونكست راسها :

- ليس من حقى أن أسأل .
- من حقك ، هل أنت مخطوبة ؟
- لا .

دخل علينا عبدالودود الأفندى ، كرهته فى هذه اللحظة ، انسحبت شوشو ، أشار الى عصير الليمون وقال : اشرب .

تناولت كوبى ، وشرب هو نصف كوبه ، مضى يتحدث عن مشروعاته فى المستقبل ، قال انه سوف يتوسع بحيث تشمل مبيعات الشركة مركز "ادفو" المجاور ، ثم مد لى ظرفاً وقال انه "قرض" سيخصم منى على مدى الشهور الستة القادمة ، سعدت ، المبلغ كبير ، تمنيت لو أطير الى البلد ، البقرة الحمراء ستعود قريبا جدا ، ذهبت الى بيت عمى الأستاذ دسوقى ، الدنيا رائعة فى نظرى ، وجدت ولده "هشام" ، فى مثل سنى ، متوسط الطول ، لظهره انحناءة خفيفة ، مستطيل الوجه ، شعره أسود غزير ، أنفه طويل وعيناه عسليتان ، أنهى دراسته فى كلية التجارة ، يساعد والده فى الاشراف على مزرعة تسمين العجول ، قال لى ان أمنيته أن يهاجر الى أمريكا ، كان سعيدا بوجودى ، كذلك والدته السيدة مديحة التى تتميز بدماثة حقة ، تناولنا العشاء معا ، قال لى عمى :

- اقض الليلة عندنا .
- لابد أذهب الى البلد .
- ألم تقل ان "زاهر" تحسن ؟
- تحسن جدا ، لكننى أريد الذهاب من أجل ....

خجلت أن أقول من أجل أن أبشر أبى وأمى بقرب عودة البقرة الحمراء ، تساءل عمى :

ـ من أجل ماذا ؟

ـ اطمئن على زاهر .

الوقت متأخر ، ربما لا تجد مركباً على المعادى ، عندنا حجرة جاهزة للضيوف ، أو اذا أحببت فارقد مع هشام فى حجرته .

قال هشام بحماسة : أنت ضيفى يابن عمى .

حجرة هشام واسعة بها سريران ودولاب وثلاثة مقاعد فوتيل ومنضدة ومكتب وسجادة كبيرة وعلى الجدران الكثير من الاطارات تضم صُوَره مع اقرانه فضلاً عن الكثير من صور الممثلات .

لم أستطع النوم بسبب تغيير المكان ، كنت أغفو واستيقظ وأغفو ، فى منتصف الليل ، رأيت "هشام" يضع وسادة بطول السرير ويسحب عليها الغطاء ويتسلل خارجاً .. ظللت مستيقظاً أكثر من ساعة ، لكن النوم غلبنى لأصحو فى الفجر على شبح هشام يعود الى الحجرة على أطراف أصابعه ويندس فى الفراش .



تعرفت على الكثيرين من أبناء العمومة فى قرية "منيحة" ، وكان أحدهم قد عاد من احد بلدان الخليج حديثاً ، يملك سيارة خاصة ، ركب معه ثلاثة ، أحدهم يحمل بندقية ، ذهبوا معى الى القرية المجاورة ـ كرم الديب ـ وبعد تحصيل الأموال ، تناولنا الغداء ، وأوصلونى الى مشارف البندر ، وكنت أمنى النفس بلقاء شوشو ، لكنى وجدت عمى الأستاذ دسوقى يجلس بجوار عبدالودود الأفندى ، قال لى بعد ان سلمت الأموال : أريدك لأمر مهم ..

بعد أن شربنا شاى العصر فى بيته أشار الى قميصى وقال : أنظر ..

كان القميص قد تحول الى لون التراب ، استطرد :
ـ انت الآن مرشح لمخالطة أعلى الطبقات فى المحافظة ، عليك أن تهتم بمظهرك .

ـ لم أذهب الى البلد أمس ، كما تعلم ، وبالتالى لم أغير ملابسى .
ـ عليك أن تشترى مجموعة من القمصان الراقية والبنطلونات والبلوفرات هذا غير أربع أو خمس بدل على الأقل .
ـ سأشترى بعضها غدا أو بعد غد ، والباقى فى الشهور القادمة .
ـ بل الآن .. سأذهب معك الى معرض صديقنا حلمى المفتاح ، عنده كل أنواع الملابس الجاهزة الراقية .

دخلنا المعرض ذا الفتارين الرائعة ، رحب صاحبه بعمى الذى أشار ناحيتى وقال "ابن اخى" صافحنى الرجل بمودة ، انتقيت أربع بدل ، سبع قمصان ، أربعة بنطلونات ومثلها من البلوفرات ، فضلا عن الملابس الداخلية والمناديل ، اشتريت فى ساعة مالم أشتره فى عشر سنوات ، عُدنا الى بيت عمى وأنا أقنع نفسى بتأجيل عودة البقرة الحمراء الى أجل غير مسمى ، وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ، قال عمى : نم هنا .
ـ لابد أطمئن عليهم فى البلد .
ـ مشوار ، ثم لا تنس انك ستعبر النيل ، لن تصل قبل التاسعة أو العاشرة مساء ، متى تصحو لتعود الى عملك فى الصباح الباكر ؟

ثم ابتسم وقال بلهجة أبوية : أرقد فى حجرة هشام الى أن نجهز لك الشقة الجديدة لتأتى فيها بزوجتك .
ـ وماذا عن عمل الجازية فى مدرسة البلد ؟
ـ بسيطة .. ننقلها الى احدى مدارس البندر .. وعلى فكرة .. اذا تحب تحضر معنا عقد قران اسماعيل بك ، فلا مانع .
ـ اسماعيل من ؟
ـ ابن توفيق بك ؟

ياللمفاجأة . قلت فى لعثمة :
ـ معقول ؟.. اسماعيل بك يعقد قرانه ؟.. كيف ؟

ابتسم وهو يقول : كما يفعل كل الناس !
- لكن .. قصدى ..

لم أستطع تكملة الجملة ، قال :
- الموضوع الخاص بك انتهى على خير .. اطمئن .. هل تحب الحضور معنا ؟
- اعفنى .. شكرا .
- كنت أتوقع هذا ..
- من التى سيعقد قرانه عليها ؟
- بنت عمه طوسون بك ..

ذهبوا جميعا وبقيت فى البيت وحدى .. هذه مفاجأة حقيقية .. زال الخطر عن الجازية الآن .. فتحت التليفزيون وظللت أشاهد برامجه لنصف ساعة دون أن أرى شيئا .. معقول ؟.. هل أطمئن على الجازية فعلا من ناحية آل الزعيم ؟.. غادرت البيت ، استأجرت سيارة ، على مسافة قريبة من قصر توفيق ، وقفت .. الباب مفتوح على مصراعيه .. الناس يدخلون فى مجموعات .. سيارات كثيرة وخيل وجمال وحمير ترابط فى الخارج .. قبيلة الزوايدة من أكبر التجمعات البشرية فى مدن المحافظة وقراها .. صلاتها العِرقية تمتد من الخرطوم جنوباً حتى البحر الأبيض شمالاً .. أما صلاتها بالبيوت الكبيرة ، فانها تشمل الكثير من القصور فى المحافظات وبعض العواصم العربية .. تهيبت الدخول على الرغم من أن أحداً لم يحس بوجودى فى هذا الزحام ، فعدت أدراجى .

فى حوالى العاشرة مساء جاء هشام وأخذ يروى لى بانبهار عن البذخ فى نفقات عقد القران ، وما لبث ان ضحك وقال :
- ناس يحبون الفخامة ، تصور انهم يبيعون أرضهم من أجل هذه المظاهر ؟

حين آويت الى فراشى ، سمعت صوت عمى الأستاذ دسوقى يحادث زوجته وهما يدخلان المنزل ، ساد الهدوء البيت ، وخيل الى هشام اننى استغرقت فى النوم ، تسلل خارجا بعد أن سحب الغطاء فوق وسادة وضعها

على السرير بالطول .. الآن يمكنك ان تطمئن من ناحية اسماعيل ، فلا خطر على الجازية والحمد لله .

في الصباح ارتديت من الملابس الجديدة وعبرنا النهر ، أنا والسائق عون الى احدى القرى ، حصلت أموال الشركة ، التقيت بأبناء العمومة ، تولوا حراستنا حتى النهر ، بعد أن سلمت الأموال ، صحبني عبدالودود الأفندى الى بيته ، تركنى في الصالون ، دخلت شوشو تحمل أكواب العصير ، هذه الابتسامة الساحرة هي السعادة ذاتها ، هاتان الذراعان العاريتان ، منحوتتان لاشك ، محظوظة هذه السلسلة الذهبية التى تعانق الجيد الرائع ، الضفيرة متروكة على سجيتها تتدلى أمام الكتف البديع ، اللفتة ورشاقة الحركة تجسمان ما يمكن أن يسمى باللطف ، دق قلبى وأنا أقف ، ارتبكت وأنا أتناول منها الصينية وأضعها على المنضدة ، قالت انها انتظرتنى أمس ، قلت بأسف ان عمى أصر على أن أذهب معه ، اننى أتمنى رؤيتها كل يوم ، كل ساعة ، كل دقيقة ، ضحكت قائلة : "على مهلك ، على مهلك" ضحكنا معا ، لهجة أهل بندرنا قريبة من لهجة سكان القاهرة - أهل الذوق - كل الفارق انهم يعطشون الجيم وينطقون القاف كما ننطقها نحن سكان القرى .. بلا شعور مني جذبتها نحوى فانجذبت ، غبنا فى قبلة طويلة ، وقع أقدام عبدالودود الأفندى كنزير الموت ، انفصلنا بسرعة ، دخل علينا ، انسحبت الحبيبة مضطربة قليلاً ، أنا أيضا كنت مضطرباً ، لم يلحظ الرجل شيئا ، مضى يتحدث عن التوسعات في العمل مستقبلاً ، قال بعد أيام سنجهز لك المسدس المرخص ، هو يتكلم وأنا نصف عقلى غائب خارج الصالون .



زاهر نائم ، وبنت عمى زينب زوجة عبدالمجيد الغباشى ، مثل القمر بين النجوم وسط العمات والخالات ، عرفت ، فيما بعد ، انها جاءت بهدايا لزاهر .. أوزتين وبطتين ودجاجتين .. زينب لا تقرأ ولا تكتب حتى اسمها ، لكنها ذات ذوق فى ردائها التقليدى .. ثيابها هادئة الألوان تنتقيها بما يتناسب مع وجهها الأسمر ذى التقاطيع الحلوة ، قالت لى بصوتها الحيى : حمدا لله على سلامة زاهر يابن العم .

بعد انصرافها أذاعت عمتى راضية موجز النشرة :
- عبدالمجيد الغباشى انتظر خروج الناعسة من المدرسة وقال لها مستعد أطلق "زينب" فى الحال اذا وافقت على الزواج منى يابنت العم ، فابتسمت له ولم تجب والسكوت علامة الرضا ، وعمكم الشيخ رزق طلب نقودا على بيوته المرهونة عند الغباشى فرفض اعطاءه وقال له بعها لى .

بحثت بعينى عن الجازية فلم أجدها ، سألت أمى فقالت :
- غضبانـة .
- لمـاذا ؟

- جاءت لخمس دقائق اليوم وقالت لن أعود ثانية لأنه تركنى وبات فى البندر ليلتين !
أغاظنى هذا ، خرجت الى فناء البيت ، أشار لى عمى عرابى أن اقترب ، قال هامسا : اذهب من غير ما يشعر بك أحد وعد بالجازية .
- لن أذهب .

رفع أبى رأسه ، واضح أنه يعرف بما همس به عمى عرابى ، قال بلهجة حزينة :
- لا نريد فضائح ، اذهب اليها وصالحها .

قلت محتدا :
- كيف تغضب لغيابى دون أن تعرف السبب ؟.. ألا يجوز أننى كنت مريضاً أو حدثت لى مصيبة ؟
- العتاب فيما بعد ، اذهب الآن واجبر بخاطرها .
- على أى أساس ؟.. هل هى طفلة ؟.. لن أذهب .

ياله من تصرف يغيظ .. هذا من تدبير أبيها وأمها .. يظنان ان اسماعيل بك مازال فى القفص .. غدا تصلكما أخباره لتصك أذانكما ياأسوأ خلق الله ..

جاءنى صوت عمى حافظ تارك الصلاة ، يقول لشقيق أبى حجازى بصوت مرتفع :

ـ حقا أنا لا املك غير بضعة قراريط وثوبين اثنين كما تقول ، لكن حالة الفقر هذه أوصلنا اليها جدك ـ أنزله الله قاع جهنم ـ حينما خدع جدى ، عليه رحمة الله ، واستولى على أرضه !

أزعجنى أن يشتم تارك الصلاة جدى الأكبر ، ورأيت شقيق أبى ، حجازى ، ينتفض من الغضب ويقول :

ـ جدنا اشتراها .

ـ اشترى أقلها وأكل الباقى .

ازداد غضب شقيق أبى وقال له :

ـ أمامك المحكمة .

ـ حاولت وفشلت ، ولو كان لى أخوة لقاتلناكم عليها الى أن نرغم القبيلة على التدخل لانصافنا ، لكن الله موجود يخلص لى حقى من الظالمين .

وقف شقيق أبى وتقدم منه فبدا منظرهما متناقضا .. شقيق أبى قوى البنية ، مفتول العضلات ، فى حين ان تارك الصلاة جلد على عظم ، وقال حجازى :

ـ والله لولا أنك أكبر منى سنا ، لما تأخرت عن تأديبك .

ـ يمكنك أن تصفعنى لأن قلة الأدب موروثة من جدكم الذى لم يكن يتورع عن أكل السحت !

التفت شقيق أبى الى الجالسين وقال :

ـ اشهـدوا ..

ثم تقدم منه ، لكن بعض الجالسين هبوا وحالوا بينهما ، واتجه تارك الصلاة الى الحجرة التى يرقد فيها زاهر وهو يقول :

ـ والله لولا أن "زاهر" عزيز علىّ ، لحرمت على نفسى دخول هذا البيت الظالم !

وظهر الألم على وجه أبى ، لكنه لم يقل شيئا .

★ ★ ★

من هذا ؟.. عبدالودود الأفندى ؟.. أجل .. يدخل إحدى الصيدليات ..

من هذه التى تجلس فى المقعد الأمامى من سيارته ؟.. امرأة جميلة بحق .. عينان سوداوان واسعتان ، هل هما سوداوان ؟.. أعتقد ذلك ، لكن ما بال نظرتهما حزينة ؟.. ثوبها بألوانه الهادئة مثل ثياب نساء المسئولين فى عاصمة المحافظة ، تنظر حولها بشىء من الضيق ، أعتقد انها من عِلْيَة القوم ، هذه الملامح الارستقراطية فضلاً عن الذوق الرفيع فى اللباس ، وهذه النظرات الواثقة تدل على الطبقة التى تمكن عبدالودود الأفندى من الوثوب اليها .. هل هى زوجة ثانية ؟.. ليس هذا بمستبعد ، كبار التجار فى بندرنا يتزوجون بأكثر من واحدة .. أعجبتنى ثقة المرأة بنفسها رغم مسحة الحزن فى نظرتها ، كيف يضفى الحزن كل هذا الجمال على صاحبته وفى الوقت نفسه يثير الاشفاق ؟.. سأطلق عليها ، بينى وبين نفسى ، ذات العيون الحزينة !

هاهو ذا الأفندى يخرج من الصيدلية ، عليك أن تتوارى خلف هذه الشجرة كيلا يظن انك تراقبه فى هذا الشارع الخالى ، يميل الى الأمام بقامته النحيلة ، يتأمل الأدوية ويبدو انه يقرأ ما على العلب ، هل هى مقويات ؟.. يجوز .. بدلته البيضاء تبدو واسعة عليه ، مقدمة رأسه الأصلع تلمع تحت الشمس ، دخل السيارة وانطلق بكنزه الثمين .. حظوظ !

- ٥ -

عند حقل عمى الشيخ رزق ، سمعت الصراخ يأتينى من بعيد كأنه صادر من جميع أركان نجعنا .. الرجال يبكون ، وهم يروحون ويجيئون فى الساحة ، والنساء يصرخن فى داخل البيوت وخارجها ، وجاء ثلاثة رجال أحاطوا بى وهم يقولون وحُد الله وتذكر أن الدنيا فانية ، وكان بعضهم يحيط بأبى الذى انحنى ظهره وغامت عيناه ، يتلفت حوله فى ذهول ويردد بصوت مبحوح "كيف تموت هكذا دون أن تستشيرنى يازاهر" ؟! والرجال يقولون له : إياك أن تكفر ياعبدالولى ، ولم أعرف شيئا عن حال أمى مع النساء فى الداخل ، وكان الصراخ يملأ الكون ، وحاولت أن أبكى لكن الدموع لم تطعنى ، حيث لم أكن أصدق أننى لن أرى زاهر مرة أخرى ، وعند طرف المقابر ، منعونا أنا وأبى وحجازى وأولاده ومحروس وبشير ومعنا حوالى خمسة من الاقتراب من القبر ، وكنا نسمع على مبعدة صوت التراب ينهال على زاهر ، والرجال ينشدون بصوت منغم حزين :

ياالله يارحمن يارحيم .. ياالله .

ياغافر الذنب العظيم .. ياالله .

وسمعت ابن خالى محروس يقول بصوت متهدج ان "زاهر" ، جلس على السرير ، دون مساعدة من أحد ، وكأنه شفى فجأة ، وطلب رؤية أبيه وأمه ، وبعد أن جلسا بجواره ، قال "هاتولى أخى عامر" وبعد دقائق أسلم الروح ، فلم أتمالك نفسى من البكاء بصوت عال ، وكل من حولى يعزينى ويقول : زاهر يتألم فى قبره الآن بسبب هذا البكاء !

ارتفع التراب فوق القبر ، ووضعوا فى أعلاه كمية من الحصى ، وطرحوا سبعاً من جريد النخل الأخضر .

خيم الصمت فى اليوم الأول من اقامتنا فى مضيفة القبيلة نتلقى العزاء ، لم يكن يقطع الصمت غير صوت بكاء النساء يأتينا من داخل البيت ، وغير صوت القارىء يتلو القرآن الكريم ، وحين يخلد القارىء الى الراحة ، نسمع صوت موسى الصغير يقرأ لجده عمى الشيخ يوسف :

"خرج عليهم فى إزار له ورداء ونعلين ، وحين توسط الصفين قال : أيها الناس ، دعونى أنصرفَ الى مأمنى من الأرض ، فلا رغبة لى فى دخول الكوفة ، فقالوا له : كلا ، عليك أن تنزل على حكم أمير المؤمنين يزيد ، فتأتى اليه مستسلماً ، قال : لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل ، ولا أقر إقرار العبيد ثم أناخ راحلته وعقلها فأقبلوا يزحفون نحوه" .



جاء لتعزيتنا توفيق بك على رأس وفد من قبيلة "الزوايدة" يتقدمهم شقيقه طوسون النائب فى مجلس الشعب ، وكان أكثر المرحبين بهم ابن عمى عبدالمجيد الغباشى الذى ذبح لهم على حسابه غير ما ذبحته القبيلة ، واحتفى عمى عبدالمعبود بهم لكن دون أن يغرم مليماً واحداً ، حتى "فِرْدة" القبيلة - التى يدفعها كل رجل بلغ الحلم - رفض الإسهام فيها كعادته ، كل ما فعله أن هلل لهم وحث الناس على إعطائهم أصواتهم فى الانتخابات ، كما جاء عدد كبير من موظفى البندر مع عمى الأستاذ دسوقى ، وفرح أهالى نجعنا بالأستاذ عبدالودود الأفندى الذى يعرفونه لشهرته فى البندر ، وسمعت عمى حافظ تارك الصلاة يشير ناحيته ويقول لجاره :

- عبدالودود هذا كان فى شبابه سائساً فى اسطبل التفتيش !

ساءنى سماع هذا ، أعتقد أن تارك الصلاة يكذب ، فالناس عادة يحقدون على الناجحين ، وكان عمى عرابى يتولى توجيه من يرحبون بالضيوف ، هؤلاء يجب أن يجلس معهم عمى الشيخ رزق أكبر القبيلة سنا ، وأولئك يجلس معهم شقيق أبى حجازى ، أما الموظفون ، فعلى بشير الزنديق وأمثاله أن يتولوا أمرهم - بشرط ألا يثير الزنديق المسائل الشائكة لأن الظرف لا يحتمل هذا ، وقد جرت العادة أن تذبح القبيلة لكل وفد يأتى

من خارج القرية ، فكان ابن عمى عبدالمجيد الغباشى من أكثر الناس انفاقاً حيث أظهر قبيلتنا بمظهر القبيلة الغنية ، فذبح لجميع الضيوف على حسابه ، وأشار اليه عمى حافظ تارك الصلاة وقال لجارة :

ـ ذهب منذ أيام الى عبدالرحمن العطشان ومعه هدايا من الملابس الحريمى والرجالى والعقود الذهبية والخواتم ذات الفصوص ، وكان للناعسة النصيب الأكبر منها ، وفرح أبوها بالهدايا ، ويظهر أن بشير الزنديق جرفه تيار بحر النيل .

أزعجنى قوله ، بحثت بعينى عن بشير ، رأيته يلوح بذراعه ويقول منفعلاً لمجموعة من الموظفين الضيوف :

ـ أنا واثق انها خطة لتجويع البلد ، والدليل ان الوثائق السرية البريطانية عن ثورة ١٩١٩ ، التى سمحوا بنشرها ، تضمنت وثيقة هى رسالة من المعتمد البريطانى يقول لحكومته ان سبب استمرار الثورة هو الرواج الاقتصادى الذى نعم به المصريون طوال أيام الحرب العظمى حيث امتنع القطن الأمريكى عن المصانع الانجليزية ، بعد ضرب الغواصات الألمانية للسفن الأمريكية فى المحيط الأطلسى ، ولم يكن أمام مصانع انجلترا غير القطن الهندى والقطن المصرى الذى ارتفع سعره الى ثلاثين ضعفاً ، فعم الرخاء ، ونصح حكومته ، اذا أردتم السيطرة على مصر ، فاشغلوا أهلها بحيث يستنفد كل شخص طاقته فيما يقيم الأود فقط ، وهذا ما يحدث لنا الآن !

سمعت شقيقه قاسم يقول لمن يجلس بجواره متأففاً :

ـ هذا الولد شاغل نفسه بكلام فارغ لا معنى له ، هل فهمت مما قاله شيئاً ؟!

أقمنا فى المضيفة خمسة عشر يوما .. يأتى إلينا أبناء النجع بالطعام ، يأكلون معنا ويقضون الليل بجوارنا ، وفى النهار يستقبلون معنا المعزين ، وسمعت عمى الشيخ رزق يقول : من رحمة الله علينا ان أهل الميت ينسون أحزانهم مع زحمة الناس ومواساتهم .

نساء النجع يقمن مع أمى فى البيت ، يأتين بطعامهن ليأكلن معها

ويرغمنها على تناول ما يقيم أودها ، وقيل لى إن الجارية جاءت وأدت واجب العزاء ، كأى إنسانة غريبة ، ثم عادت الى بيت أهلها .. أغاظنى هذا السلوك ، كان من الواجب أن تقف مع أمى فى محنتها ، واضح أن أباها الجبان وأمها الخبيثة وراء هذا التصرف ، لكن أين هو اسماعيل الذى يطمعان فى زواجها منه ؟

كان كل واحد من المعزين ـ من خارج البلد ـ يأتى لمرة واحدة ، باستثناء أعمامى الغضبان والكومى والأستاذ دسوقى ، كانوا يأتون كل يومين ، وذات يوم عرض عمى الأستاذ دسوقى على أبناء نجعنا أن يشتروا أرضاً فى البندر ويبيعوا أرضهم فى البلد ، فصاح عمى عبدالمعبود : اكتبنى عندك فى الكشف يادسوقى بك .

ولما جاء العمدة للعزاء فى اليوم الأول ، جلس هو وحاشيته بعيدا عن مجلس توفيق بك كيلا يتبادل معه الحديث ، وكان العمدة يتكلم ومن حوله ينصتون ، وقال ، ضمن ما قاله ، ان جد الانجليز الأكبر أصله من قبيلة قريش ، كان قد هاجر الى هناك فى الزمن القديم ، وهؤلاء الانجليز والأمريكان من ذريته ، وسمعت ابن عمى بشير الزنديق يقول لجاره : عمدتنا يستحق أن يكون وزيراً للثقافة !



عزانى الأستاذ عبدالودود الأفندى ، كذلك السيد عبدالسلام رئيس الحسابات ، وبقية الموظفين ، وذهبت مع السائق عون الى قرية "الكاجوج" وبعد أن حصّلنا الأموال ، انتظرت أن يطلب منى عبدالودو الأفندى أن أذهب معه الى البيت ، لكنه لم يفعل ، قال لى : لماذا لا تبيت عند عمك دسوقى بك ؟

ـ أبى وأمى يحتاجان الىّ وجودى معهما الآن .

ـ الحق معك .

حزين أنت لأنك لم تر شوشو ، تحتل كل تفكيرك الآن ، حتى فى قمة الحزن على زاهر ، ترى وجهها أمامك ، تعبيراته تشاركك حُزنك .. الأعمام وأبناء الأعمام يجلسون مع أبيك فى مدخل البيت ، عمك الشيخ يوسف يتلو

القرآن ، العمات والخالات حول أمك ، التليفزيون دارت عليه قطعة من المشمع ، أغلق الى أجل غير مسمى ، الحزن يفرد جناحيه ، قالت الناعسة :

- أنا حزينة لتوتر العلاقة بينك وبين الجازية .
- أنا لم أخطىء فى حقها يابنت العم .

أسبلت أهدابها الطويلة ولم تعلق ، قالت عمتى راضية وهى تتمطق :

- الشيخ رزق فى ورطة .
- من اى ناحية ؟
- عبدالمجيد الغباشى قال له انت سحبت أموالا على بيوتك المرهونة عندى ، تزيد عن ثمن شرائها ، إما أن تبيع ، أو ترد لى أموالى .
- ولماذا لا يرهنها لغيره ؟
- كل الذين عرض عليهم أن يسترهنوها ، قالوا المبالغ التى عليها كبيرة ، مسكين الشيخ رزق .

حركت عمتى فاطمة الغنامة رأسها وتنهدت ، رغم فراقها لعمى الشيخ رزق ، مازالت تحزن لحزنه ، شاع الأسى على وجهها الذى يحتفظ ، رغم السنين ، بآثار من جماله القديم ، ظهرت الحمرة فى بياض عينيها الجميلتين وقالت : مقدر ومكتوب .

رانت لحظة صمت حلقت فيها مأساة عمى الشيخ رزق ، أكثر من سبعة أفدنة ضاعت منه فى قضية ولده الأكبر الذى قتل شرطياً صفعه فى البندر ، قبل ذلك رهن بيوته التى كان يؤجرها للمدرسين الغرباء ـ بعد أن فقدت ايراداتها مع الأيام حين أصبح المدرسون من بلدنا ـ تمت المصيبة حين مات الابن الأكبر فى السجن تاركاً خمسة أطفال مسئوليتهم عليه ، ثم كانت الصدمة الجديدة حين فقد الابن الآخر ـ سليمان ـ ساقه فى حرب أكتوبر .

استأنفت عمتى راضية نشرة أخبارها :

- عبدالمجيد الغباشى مصمم على شراء البيوت بنفس المبالغ التى عليها ، ولن يسمع كلام أحد فى القبيلة ، لأن الجميع يتمسحون فيه ،

الوحيد القادر على جعله يغير رأيه هو الشيخ عرابى ، لكن الشيخ عرابى لا يطيق عبدالمجيد ، وعبدالمجيد يكره عرابى ، لن تبقى غير الناعسة .. لو قالت له مستعدة أتزوجك ، ليوافق على أى شىء .

الفراش فى حُجرة نومك امتلأ بذرات الغبار .. سحقاً للجازية وتصرفاتها الطفولية .. مساحة الطين زادت فى السقف حتى غطت رُبع عرق الخشب ، من الذى يأتى بالطين هنا ؟.. عليك أن تجلس مع أبيك وأعمامك فى مدخل البيت .. قال لى عمى عرابى : اذهب الى الجازية وصالحها .

- كان يجب أن تعود الى البيت بعد وفاة المرحوم .

- لا داعى لتقليب الكلام ، أبوك وأمك فى حاجة الى وجودها ، بالذات لأنك تتغيب باليوم واليومين .



هاهو عمك عبدالمعبود يستقبلك بترحاب ، يواسيك فى المرحوم ، جاءت زوجته بعد أن ارتدت ثوباً أسود فوق الثوب الملون ، تواسيك بصوت متهدج ، قلوبنا أوجعتنا على ولدنا زاهر ، أين الجازية ؟.. أشارت الى احدى الحجرات : قاعدة هناك .

تجلس فى الحجرة على سرير حبال فوقه سجادة حمراء ذات وتر يوحى بأنها ثمينة ، التليفزيون أمامها يعرض فيلماً أجنبياً ، الغريب أنه تليفزيون ملون ، اتسعت عيناها ، بدا عليها الارتباك ، أغلقت التليفزيون ، اعتذرت :

- من يوم وفاة المرحوم ، لم أفتحه إلا هذه اللحظة ، سامحنى !

- لماذا تركت البيت ياجازية ؟

قالت تعزينى فى زاهر :

- هكذا حال الدنيا .

تأثرت لصوتها الذى أوحشنى ، تمنيت لو أمس خصلة الشعر التى التفت حول الأذن واحتضنتها ، قلت :

- سبحان الحى الدائم ، لكن لماذا تركت البيت ؟

استعادت رباطة جأشها ، قالت :

ـ من قال انه بيتى ؟
ـ بيت من ؟
ـ بيت شوشو !

صعقت .. هذا آخر ما كنت أتوقع سماعه :
ـ شوشو من ؟

ربطت حزام الروب الصوفى المبرقش الذى لم أره عليها من قبل وأجابت :
ـ انت تعرفها خيرا منى .

ترددت قبل أن أتساءل : من قال لك ؟

ابتسمت ساخرة :
ـ هذا السؤال يعنى انها ليست شخصية خيالية .

مرت فترة صمت خيل الىّ فيها اننى أسمع أصواتاً صاخبة ، هل جننت أنا ؟.. الطنين فى أذنى لا يطاق :
ـ هيا بنا إلى البيت .
ـ حينما يكون لى بيت ، ثم لماذا تكلمنى بهذه الطريقة ؟

تركتنى واقفاً فى الحجرة ، واندفعت خارجة .

أجل ، يجب أن أحطم جهاز التليفزيون الملون وكل مافى الحجرة .. لكن لا .. سأخرج وراءها .. هاهى تجلس على سرير الحبال بجوار أمها ، قال أبوها :
ـ خلها معنا ليومين أو ثلاثة .

لماذ يكلمنى بهذه الطريقة الباردة وهو يتأمل ظاهر كفيه ؟.. ثم ما سبب هذا الانفعال المدمر الذى يجتاحنى ؟.. هل أردت مداراة موقفى حين ذكرت اسم شوشو ، أو لأن أباها نطق جملته بلهجة تشى بالسخرية ؟..
ـ خلّها عندكم الى يوم القيامة !

هاهى أمها تقف وتقترب منك بوجهها الكريه ذى العظام البارزة ، وعودها

الهزيل ، وعينيها المكحولتين معٌ أن المفروض ألا تضع كحلاً طوال فترة الحداد على زاهر ، ماذا تريد أن تقول بصوتها المزعج ؟

ـ طلقها ياعامر !

هل ما نطقت به الأم حقيقى ، أم أننى مضطرب ، ثم ما هذا الذى يشبه الصفعات تنهال على وجهى ؟.. أبوها أحنى رأسه ينظر الى شىء فى الأرض لا أعرفه ، على شفتيه ابتسامة توحى بالسرور ، لكن لماذا لا تكون ابتسامة ساخرة ؟.. الجازية تحدق فى وجهى رافعة رأسها فى شموخ كأنها تتحدانى :

ـ أطلقهـا ؟

ـ اذا كانت لا تريدك ، لماذا تتمسك بها ؟

ـ هى قالت لا تريدنى ؟

ـ اسألها .

عليك أن تتماسك .. جسدك كله يرتعش الآن ، اياك أن يلحظوا اضطرابك :

ـ انت تريدين الطلاق ياجازية ؟

ـ يكون لك ألف شكر !

ـ أنت طالق ..

عليك أن تخرج فورا قبل أن ترتكب جريمة .. جاءنى صوت الأم بعد أن تجاوزت العتبة : لولا وفاة المرحوم زاهر ، كنت زغردت !

عمى الشيخ عبدالحميد المأذون فى بيته .. يرحب بى ويواسينى فى زاهر ، عرضت عليه نيتى فقال :

ـ اسمع يابنى .. بصراحة أنا لا أرضى القيام باجراءات الطلاق لأنه أبغض الحلال عند الله .. لكن الجازية لا تنفعك ، هى مثل أبيها تماماً ، خسيسة بنت خسيس .. ومنذ سمعتها تتكلم فى حقك وحق أهلك ، وأنا أقول لنفسى خسارة عامر فيها ..

ـ ماذا قالت ؟

ـ كلام فارغ طبعا لا يصح أن يُقال ، واعفنى من ذكره .

- اذن ، أنا مصمم على الطلاق .
- هات الشهود .

هاهو عمك الشيخ يوسف يسمع لحفيده :

"التقى بهم فى الطريق وسألهم : اخبرونى خبر الناس وراءكم من أهل الكوفة ، أجابه أحدهم : أما أشراف الناس يابن رسول الله ، فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم بالذهب يستمال بها ودهم ، فهم ألبٌ واحدٌ عليك .. وأما سائر الناس ، فان أفئدتهم تهوى اليك ، وسيوفهم غدا مشهرة عليك" .

★ ★ ★

توقفت بنا السيارة أمام بيت عمى الشيخ الغضبان .. يجلس على اريكةخشبية تحت شجرة اللبخ أمام البيت .. بجواره رجل مسن لا أعرفه .. أنت تسرعت فى ارسال ورقة الطلاق الى الجازية .. الغريب ان عمى الشيخ عبدالحميد المأذون قال انه لو لم يكن محتاجا الى المبلغ الذى دفعته له لامتنع عن تلبية طلبى ! .. لكن كيف عرفت الجازية باسم شوشو ؟ .. من الذى أخبرها ؟ .. ماهذا ؟ .. لماذا يصافحنى عمى الشيخ الغضبان بفتور ووجه متجهم ؟

شركتكم خربت البلد !

- خربتها ؟

- الناس باعوا أرضهم ومواشيهم لشراء هذا الحديد الخبيث الذى توزعونه !

يجب أن ترد عليه بالحجج التى تسمعها من عمك الأستاذ دسوقى :

- الدنيا تغيرت الآن ياعمى .. التليفزيون والثلاجة والغسالة والفيديو والسخان والدفاية أصبحت ضروريات .. المدنية الحديثة يجب أن تأخذ مجراها .

- أى مدنية ؟ .. تعطون الناس بالتقسيط وبعد أن تتراكم عليهم الديون ، تحجزون عليهم وتستولون على أبقارهم ؟

ـ أى حجز ؟ .. شركتنا مازالت جديدة .

ـ من قال لك انها جديدة يامغفل ؟! .. ثم ماذا عندنا نحن لنضعه فى الثلاجات التى ضحكتم علينا وجعلتمونا نشتريها دون أن ندفع ـ فى البداية ـ شيئا ؟ .. رغفان البتاو أو أحزمة الفجل ؟! غضب الرجل مريع فعليك بالانسحاب من أمامه :

ـ عن اذنك ياعمى ..

ـ مع السلامة ..

لم يحاول أن يستبقينا كما كان يفعل .. لم يقل سأنتظركم على الغداء ، أو حتى مجرد اقعدوا اشربوا الشاى يا أولاد ، ولو على سبيل المجاملة ، نطق (مع السلامة) بنبرات توحى بأنها (فى داهية) .. كلا .. لست مستعدا للدخول فى مهاترات مع أمثال هذا الرجل ، ما أنا الا مسمار فى ترس تحركه مئات الماكينات العملاقة ولن أستطيع اصلاح الكون ، وعلى أن أصلح وضعى الاقتصادى ، لكى أقاوم تجار التموينات الذين جعلوا المعيشة فى نجعنا لاتطاق .

بعد أن حصلت الأموال من التجار ، فوجئت بعمى الشيخ الغضبان وحوله أربعة أو خمسة من أبنائه وأبناء أخوته يحملون النبابيت وأحدهم يحمل بندقية ، فى البداية ظننت انه سيطلب منهم أن يقتلونى ، لكنه قال لهم وهو يمد سبابته تجاه النهر :

ـ احرسوا هذا الحمار حتى يعبر النيل لكيلا ينهبه اللصوص ويجلب لنا العار !

ثم أعطانى ظهره وهو يزمجر كأنه يخاطب نفسه :

ـ ملعون أبوكم !



- ٦ -

عزتنى فى أخى وقالت وهى تصب الشاى انها حزنت عليه ، قلت انه مات مقهورا لأنهم حبسوه مع اللصوص ، قالت ان الله القادر سوف ينتقم من الظالمين .. ولما رأتنى أنظر بإعجاب الى الفستان القرمزى الفضفاض ذى الأكمام التى تشبه أكمام العباءة ، قالت انها « موضة » جديدة ثم اعتذرت لأنها لم تلبس السواد على زاهر خوفا من اثارة الشك ، لأن خالها لايعرف بالمحبة التى بيننا ، قلت ان لقاءاتنا القصيرة لاتشفى غليلى ، قالت انها تذهب صباح كل يوم الى الجمعية التعاونية ، لكنها لن تذهب إلا صباح الجمعة القادم ، سعدت بهذا ، وجاء عبدالودود الأفندى فخرجت معه .

وجدت عمى عبدالمعبود ، والد الجازية ، يجلس فى الصالون مع عمى الأستاذ دسوقى ، تعجبت ، سلمت عليهما وخرجت لأجلس مع هشام فى حجرته ، سألته : هل تعرف هذا الرجل ؟

- أه .. قريبنا .. كيف لاتعرفه وهو من البلد ؟!

- ما الذى جاء به هنا ؟

- سؤال غريب .. كثيرون من بلدنا يزورونـنا .. وعلى كل حال سمعت انه ينوى شراء أرض فى شمال البندر ..

- هل سيهجر البلد ؟

- الله أعلم ، لكن دعنا من هذه المواضيع التى تجلب الصداع ، مارأيك فى مشروع مهم ؟

- أى مشروع ؟

- بصراحة أنا أخرج من البيت سرا بعد نوم أبى ونومك .

تظاهرت بالدهشة فاستطرد : هل تحب أن تأتى معى لقضاء سهرة طيبة ؟

- مانوع السهرة ؟

- فيما بعد تعرف ، ولن تندم .

تمزقت بين إغراء الذهاب معه وبين لقاء شوشو ، قلت :

- أريد الاستيقاظ مبكرا ..

- أحتاج اليك فى أمر مهم .. أنا مرتبط بموعد لابد أن أذهب إليه قبل أن يستغرق أبى فى النوم ، وهذه مشكلة .. عليك أن تتصرف اذا دخل حجرتى ولم يجدنى .

فى حدود العاشرة مساء ، وضع وسادة طويلة على السرير ، شد عليها الغطاء فبدت كشخص نائم ، وخرج .

★ ★ ★

رابطت أمام الجمعية التعاونية منذ الصباح الباكر .. جاءت شوشو ومعها صبى فى العاشرة عليه جلباب قديم وفى يده حقيبة من البلاستيك .. فستانها وردى وتسرح شعرها بطريقة بدا فيها فوضويا ، لكنها الفوضى المحسوبة التى تحبب الفوضى الى النفس .. تبادلنا الابتسامات من بعيد ، ودخلت الجمعية ، وقفت فى الشارع كأنى أنتظر شخصا قادما من اتجاه المحطة .. الشارع يعج بالبشر من كل نوع .. عمال وموظفين وتجار وجنود جيش وجنود شرطة وأناس من القرى .. خرج الصبى من الجمعية يحمل الحقيبة التى انتفخت الآن ، تبادلت معه شوشو بضع كلمات فذهب بالحقيبة .. أومأت برأسها وهى تسير فى اتجاه الشمال ، فسرت وراءها .. وصلنا الى الشارع الملاصق لجنينة المحطة ، فسرنا معا .. الشارع هادىء تكتنفه من الجانبين الأشجار التى يسمونها اللبخ الأفرنجى ، أحسست بأنها مهمومة ، سألتها : مالك ؟

مرت لحظة صمت قبل أن تقول :

ـ هناك أشياء مهمة أريدك أن تعرفها .

صوتها يشى بأننى أمام إنسانة ناضجة وذات شخصية ..

ـ أى أشياء ؟

ـ أنت لاتعرف عنى أى شىء .

ـ لايهمنى .. يكفى أننى أعرفك أنت .

أليس من الواجب أن تتحرى عنى ؟

تضاحكت وأنا أقول : هل أنا بوليس ؟

لم تبتسم كما توقعت .. لاذت بالصمت ، قلت محاولا أن أسرى عنها :

ـ فى بلدنا ، حين يعجب الشاب بفتاة ، يهمس الى أمه باسمها ، فتخلو الأم بالأب وتخبره ، وتتم الخطوبة ببساطة .

ـ هذا فى البلد .. هناك تعرفون بعضكم .. أما هنا .. لم تكمل جملتها ، فقلت :

دعك من هذا الكلام الفارغ .. أنا شخصيا ، كل الدنيا عندى فى كفة ، وأنت وحدك فى كفة ، وكفتك هى الراجحة .. ثم أن الأستاذ عبدالودود الأفندى خالك .. هذا وحده يكفى أنك بنت أصل .. سأخطبك منه حالما تنتهى فترة الحداد على زاهر ..

قالت بسرعة : لاتفاتحه ..

ـ لماذا ؟

ـ فى اللقاء القادم نتكلم فى الموضوع .

ـ هل ...

ـ هل ماذا ؟

ـ هل تعتقدين ان خالك سيرفضني على أساس أنني من أسرة رقيقة الحال بالنسبة اليه ؟

لم تجب ، قلت :

ـ أنا لايهمني غير شيء واحد .. هل تقبلينني زوجا ؟ .. انني الآن أتقاضى راتبا يتيح لنا أن نعيش بطريقة طيبة .. وقريبا جدا سأتسلم سكنا هنا في البندر .. ولعلمك .. أنا كنت متزوجا .

أدارت عنقها ناحيتي بحدة ولمعت عيناها :

ـ متزوج ؟

ـ لم أوفق في زواجي ، وافترقنا .

ـ من هي ؟

ـ قريبتي ..

ـ هل لازلت تحبها ؟

ـ لا ..

ـ لكنك قلت لي انك غير متزوج ..

ـ لست أدري لماذا لم أشرح لك الموقف في ذلك اليوم .. ربما خشيت أن أفقدك .. وعلى كل حال أنا فعلا الآن غير متزوج .

ثم قلت بلهجة حاولت أن أجعلها مرحة ، بعد أن ضخمت صوتي :

ـ هل تقبلين يامولاتي قائد حرسك المسكين زوجا لجلالتك ؟!

ضحكت .. بسعادة حقيقية كانت تضحك .. لكن مالبث الوجه الفاتن أن شابته مسحة من الحزن عصرت قلبي .. أسبلت أهدابها ، واختلجت شفتاها ، ومالبثت كرات الدمع أن ظهرت فوق الأهداب المسبلة لتنحدر على الخدين الموردين فطار قلبي شعاعا : مالك ؟

ـ لاشيء ..

سرنا صامتين الى أن وصلنا الشارع المتسع الذى يؤدى الى الضاحية التى تقع فيها الفيلات ومنها فيلا عبدالودود الأفندى .. مدت يدها مودعة وقالت :

ـ فى اللقاء القادم نتصارح بكل شىء .

ـ موافق ، لكن لى رجاء .

ـ ماهو ؟

ـ ابتسمى قبل أن تفارقينى .

ابتسمت ، لكنها ابتسامة تجسم الحزن الذى ينفطر له القلب .

★ ★ ★

دخلنا نادى المركز ، أنا وهشام ، وجدنا الكثيرين من كبار موظفى البندر متناثرين على المقاعد فى الحديقة .. ولمحت المرأة الجميلة ذات العيون الحزينة تضع على كتفها شالا حريريا يشبه معاطف الفرو ، وتجلس مع الرجل النحيل ، البارز عظام الوجه ، الذى رأيته معها ذات مرة فى سيارة الأستاذ عبدالودود الأفندى ، بدلته الأنيقة توحى بأنه من كبار الموظفين ، سألت هشام عنها فغمز بعينه وقال :

ـ هذه من المستويات العليا !

ثم أضاف فى مباهاة :

ـ لكن لاتخف على عمك هشام .. سأصادقها يوما .

قام الرجل الذى يجلس بجوارها واتجه الى التواليت .. هب هشام من مجلسه بسرعة واتجه نحو مائدتها .. دهشت لجرأته حين رأيته يميل بجذعه يخاطبها فى همس متودد .. بدا لى منظر هشام غريبا بانحناءة ظهره الخفيفة ، وملابسه التى لايعتنى بها كثيرا ـ رغم فخامتها ـ بجوار ذات العيون الحزينة التى بدت لى ارستقراطية أكثر مما يجب ..

عاد هشام مكفهر الوجه ، جلس بجوارى وهو ينفخ قائلا :

ـ الوضيعة !

ـ ما الحكاية ؟

قال في سخط كأنه يخاطب نفسه :

ـ تظن نفسها من أسرة عالية مع اننى أعرف ماضيها كله .. زوجها كان مع « الفعلة » وهى تضع على كتفها هذا الشال كأنه معطف فرو مكان قصعة الأسمنت التى كان يضعها زوجها على كتفه !

ضحكت وانا أقول :

ـ ما إن نغضب على إنسان حتى نقول فيه ماقال مالك في الخمر .

ـ تعاليها أغاظني .. تصور انها قالت لى : انتبه لدراستك ياشاطر ؟!

ورغما عني ضحكت .. ونسي هشام نفسه وشاركني الضحك .

★ ★ ★

هجر ابى الحقل ولزم سجادة الصلاة ، سلم كل شيء الى شقيقه حجازى واستسلم للأحزان .. امى لاتكف عن البكاء ولولا كثرة الداخلين والخارجين عليهما من أهل النجع ، لقضى عليهما .. وصمم عمي عرابى على أن اذهب الى الماذون لكى ارد الجازية الى عصمتى ، فرفضت .. طلب عمي عرابى من ابى أن يتدخل ، لكن أبى نظر اليه طويلا ، كأنه ذاهل عما حوله ، ثم قام ووقف على السجادة ورفع يديه الى أعلى يقيم الصلاة ..

همس لى عمي عرابى :

ـ هل تريد القضاء على ابيك ؟ .. ألم يقل له الطبيب ان قلبه مريض وعليه أن يتجنب الزعل ؟

ذهبت انا وعمي عرابى وابن عمي بشير الزنديق الى عمي الشيخ عبدالحميد الماذون .. سوف اعيدها الى عصمتى لأن أبى وأمي يحتاجان الى وجودها معهما الآن ، وسوف أطلقها بعد زوال حزنهما .. لكن من الذى اخبرها عن شوشو ؟

استقبلنا عمى الشيخ عبدالحميد المأذون فى بيته بترحاب .. قال وهو يعدل من وضع عمامته الصغيرة :

ـ والله وبالله لولا اعزازى لعامر مارضيت الطلاق .. وعلى كل حال الصلح خير .. سلامات ؟

ـ الله يسلمك .

فتح الدفتر وضرب جبهته وقال : اخ

ـ ماذا حدث ؟

عدل من وضع الجبة القديمة ذات الخطوط الداكنة وقال :

ـ لاتوجد عندى قسائم .

ـ متى تأتى بها ؟

جال فينا بعينيه الضيقتين وقال :

ـ بعد يومين ثلاثة سأذهب الى المركز واحضرها .. سلامات ؟

ـ الله يسملك .

ـ ما اخبار الأولاد ياعرابى ، وأنت يابشير ، هل مازلت تردد ذلك الكلام الذى يبعث بأصحابه الى السجون ؟

قال له عمى عرابى :

ـ خلنا الآن فى موضوع القسائم .. متى نحضر اليك ؟

ـ بعد أسبوع .

قلت لنفسى ، ونحن ننصرف ، هذا حسن .

★ ★ ★

اخترقنا الشارع الموازى لحديقة المحطة .. شوشو شاحبة الوجه كأنها لم تذق النوم منذ أيام .. شعرها تجمع فى ضفيرتين ، حين تنعكس عليهما أشعة الشمس تتغير ألوانهما .. أخرجت من جيبى

علبة صغيرة مبطنة بالقطيفة ومددتها اليها ..

- ماهذا ؟

- هدية بسيطة .

- فتحتها فظهرت السلسلة الذهبية .. أشرق وجهها بتلك الابتسامة التى أحبها .. قالت :

- شكرا ، لكن ..

- لكن ماذا ؟

- أكلمك عنى .

- ألم أقل لك فى لقائنا الأخير ، لا أريد أن أعرف إلا شيئا واحدا .. هل تقبليننى زوجا ؟

- أليس من الواجب أن تعرف تاريخى ؟

تضاحكت محاولا إضحاكها :

- أنت عمرك كله لايزيد على عمر كتكوتة .. منذ متى كان لك تاريخ ؟

لم تبتسم .. صمتت طويلا قبل أن تقول :

- هل تعرف مثلا اننى لم أكمل تعليمى ؟

- أنا أيضا لم أسر فى تعليمى كما تمنيت .. أنا مدرس ابتدائى فى بلدنا .. وكان راتبى مضحكا قبل أن أعمل فى الشركة التى يديرها خالك ..

- ألا تسأل عن السبب ؟

- هه .. قولى .. اللهم الهمنى الصبر .. أنا عارف انى سأسمع كلاما ليس له أى تأثير على حبنا .

- انا فصلت من المعهد الثانوى التجارى بسبب زيارة زوجة شاه

ايران للمعبد الفرعونى .

توقفت مشدوها وانا اسالها :

- هل تعرفين بشير الزنديق ؟

- بشير من ؟

- قصدى بشير عبدالعزيز .. واحد من أولاد عمى .. فصلوه من المدرسة الثانوية لنفس السبب ..

- لا .. هناك أكثر من مدرسة ومعهد اشتركت فى استقبال الشاهبانو والسيدة جيهان السادات .. وكلها ، أولاد وبنات ، اهملت النشيد الذى طلبوا منها إلقاءه ، وانطلقت باناشيدها هى .. ربما على غير موعد وعلى غير اتفاق .

- ليكن .. هل هذه هى المسالة التى تشغلك ؟

ظلت تسير بجوارى صامتة .. احيانا تنظر الى حديقة المحطة واحيانا تنكس راسها .. قلت :

- خالك ينفق عليك وعلى والدتك لان والدك توفى وكان فقيرا ؟ .. انا ايضا أهلى فقراء .. هل هناك مشكلة أخرى ؟

صمتت لفترة قبل ان تقول :

- هل تعرف أننى لم اكن اتوقع ان احبك ؟

- وما السبب الذى جعلك ترتكبين هذه الغلطة ؟!

لم تجب .. نظرت الى جانب وجهها الذى يضفى عليها لونا آخر من الجمال ، فانشطر قلبى حين رايت الحزن يشمله .. ظللنا نسير صامتين الى أن وصلنا الى بداية الشارع الذى نفترق عنده .

★ ★ ★

اعتدت أن أحمل معى هدية يوميا الى بيت عمى الأستاذ دسوقى

كيلا اعيش عالة عليه .. قال لى ونحن نتفرج على التليفزيون فى بيته :

ـ من رايى ان نؤجل استئجار الشقة الخاصة بك الآن مؤقتا ..

ـ لماذا ؟

ـ والدك ووالدتك يحتاجان الى وجود زوجتك معهما على الأقل لشهرين او ثلاثة .

لم اشأ ان اخبره ان الجازية تقيم عند اهلها الآن فاستطرد :

ـ يمكنك ان تنقل ملابسك الى الحجرة الخاصة بك ، أو اذا أردت أن تشارك هشام فى حجرته فانت حر .. البيت بيتك ولك فيه كل مايجلب لك الراحة .

ـ شكرا ياعمى .

ـ من رايى ان تقيم عندنا يوما بعد يوم على الأقل ، لكى تذهب الى عملك فى الصباح الباكر .. بالذات لأن العمل الآن سيمتد الى قرى بعيدة جدا .

صدقت .. المفروض ان ابيت هنا يوميا .. كيف ابيت فى بلد يفصلنى فيه النهر عن شوشو ؟ .. البيت اصبح باردا هناك بعد غياب الجازية .. ثم ان الناس حول ابى وامى ليل نهار والحمد لله .. إذن لابأس من الاقامة فى البندر على ان اذهب الى البلد كل ثلاثة أيام .

★ ★ ★

ـ كنا نعلم أن الشاهبانو سوف تزور معبد كوم امبو .. عرفنا ذلك من مجموعات العمال والأوناش والجرارات ومواد البناء التى تجمعت على شاطىء النيل لبناء ميناء ترسو عليه الباخرة التى ستقلها .. قبل وصولها بأسبوع دخلت علينا ناظرة مدرستنا وقالت لنا سنستعد جميعا لاستقبال زوجة شاه ايران والترحيب بها يابنات .. فهى امبراطورة صديقة تحب مصر والعرب ! .. كانت الناظرة تقول ذلك وهى تحاول السيطرة على نفسها ..

لكنها فقدت أعصابها فجأة وقالت لاتصدقوا ماذكرته لكم ، لأن أوامر صدرت به .. وما الامبراطورة إلا عدوة لمصر والعرب ، والموت أهون لى من هذا الموقف ، ثم غادرت المكان وهى تزمجر .. لغطت الطالبات وقالت لنا إحدى المدرسات إن الشاه حينما زار السد العالى ، اضطر المسئولون الى تغطية تمثال جمال عبدالناصر لكيلا تقع عين جلالته على مايعكر صفوه ! .. وفى البيت ضربت أمى صدرها بيدها وقالت لى :

ـ ترحبين بصديقة اسرائيل ؟

صمتت شوشو وكنا وصلنا الى منتصف الطريق الموازى لحديقة المحطة وصوت راديو بعيد يأتينا منه لحن سيد درويش « زورونى كل سنة مرة » قلت :

ـ واضح أن والدتك لها اهتمامات سياسية .

ظهر على وجهها انها أرادت ان تقول شيئا عن أمها لكنها عدلت عنه ، فاستطردت بعد لحظة :

ـ فى اليوم الموعود كانت جميع طالبات مدرستنا يتأهبن لتنفيذ الخطة التى اتفقنا عليها سرا .. ولم نكن نعرف شيئا عن موقف المدارس والمعاهد الأخرى التى ستشترك معنا فى الاستقبال ..

حفظنا النشيد الذى يجب أن نلقيه للترحيب بالشاهبانو ، وفى نفس الوقت اتفقنا على النشيد الذى سوف نفاجئهم به وليحدث مايحدث .. ولعلمك .. هو نشيد معروف لم نعد نسمعه فى الاذاعات الآن .

صمتت فجأة وتوقفت عن السير ، رأيت وجهها يمتقع وهى تنظر الى الشارع المتقاطع مع شارعنا ، نظرت الى حيث تنظر ، رأيت عبدالودود الأفندى يتراجع بسيارته ، ناظرا الى الخلف ، وبجواره المرأة ذات العيون الحزينة ، صافحتنى شوشو مرتبكة ، وافترقنا .

★ ★ ★

ـ جاءنا رجل له هيئة العجائز المتصابيات ، يرتدى ملابس مثل التى نراها فى الأفلام للمايسترو .. جمعونا فى حوش المدرسة وقدموه لنا على

أنه واضع « اللحن » للنشيد الذى سنلقيه للترحيب بالشاهبانو .. وكان مدرس اللغة العربية معروفا بالسخرية مثل غالبية أهل قريته من أبناء جزيرة المنصورية .. قال لنا ، بعد انصراف المايسترو :

ـ يا أولاد .. امبراطور ايران من أعز الأحباب ! .. لاتظنوا أنه كان يمون اسرائيل بالبترول أثناء معارك أكتوبر عن سوء نية .. بل فعل ذلك لاتاحة الفرصة أمام أكبر عدد من جنودنا لكى يرزقوا الشهادة ! .. عليكم الآن أن تردوا له الجميل بتكريم زوجته لكى تضع هذا فى اعتبارها فتؤثر على زوجها مستقبلا ليضاعف من عدد شهدائنا !

صمت ابن عمى بشير الزنديق قليلا قبل أن يستطرد :

ـ اتفقنا ، أنا وأربعة من الزملاء ، وهم الذين فصلوا معى فيما بعد ، على الخطة ..

أوهمناهم أولا بحفظ النشيد المطلوب ، وحفظنا النشيد الذى سنفاجىء به الشاهبانو .. وكانت المدرسة قد قسمتنا الى مجموعتين مجموعة تكون داخل المعبد ، ومجموعة عند طرف الميناء ، لكنها استبعدت مجموعة ثالثة ، فاتفقنا مع هذه المجموعة الأخيرة على أن تجهز مقاطف الحجارة والزلط بحيث اذا رأتنا نواجه متاعب مع الشرطة ، تتدخل فورا وتقذف الموكب كله بالحجارة ، وهذا ماحدث بالفعل ..

ـ حدثنى عن دور البنات ..

ـ البنات بدأن النشيد المعادى أولا ، فوجدنا أنفسنا نهمل النشيد الذى استعددنا به ونردد النشيد الذى انفجرت به البنات ، ثم حدثت الاضطرابات .. ضربتنا الشرطة بقسوة ، لكن حملة مقاطف الزلط أنقذونا .. جاءوا بسرعة من تحت شجر اللبخ الذى فى طريق « البيارة » فشغلوا الشرطة عنا الى أن خرجنا من المعبد وشاركناهم قذف الحجارة .

تدخل ابن عمى جعفر الباجس وقال بصوته المبحوح :

ـ يوم زيارة« البربرطورة » كان من الأيام التى مثل القطران ! .. فقد كنا

زرعنا أرضنا البحرية كلها طماطم ، وكانت خمسة قراريط .. ظللنا أنا وأبى نحرثها ونعزقها ونشمسها طوال الصيف ، وزرعنا معها شجر الخروع لأن ورقه العريض يحمى الطماطم من البرد ، لكن جاءت عشر ليال باردة قضت على نصف الطماطم ، فحزنت وحزن أبى وحزنت أمى كأن أحدنا مات .. لأن حالتنا المالية كانت مثل الطين ، وكان أملنا فى الله وفى زرعة الطماطم هذه .. فاذا ضاعت وضاع معها ما أنفقناه عليها من ذريعة وسماد بلدى وسماد كيماوى غير الجهد الذى بذلناه ، فقل علينا السلام لسنتين أو ثلاث على الأقل .. وبعد عذاب لايعلمه إلا الله طرحت البقية الباقية منها وفرحنا لأنها ستعوض لنا شيئا من المصاريف .. وعندما طابت جنيناها ووضعنا الثمار فى حوالى عشرين مقطفا ، واستأجرت قاربا وضعت فيه المقاطف واتجهت الى البندر لكى أبيعها للتجار .. ونحن فى منتصف النهر ، فوجئت بلنشات كثيرة مشحونة بالعساكر تحيط بالقارب ، وقالوا لى ممنوع العبور .. سألتهم عن السبب ، قالوا لاتقلب دماغنا ، عد بالقارب الى البر الثانى دون سؤال .. قلت لهم الطماطم ستتلف ان لم أعبر الآن ، قالوا يظهر انك لن تسمع الكلام إلا اذا قذفنا بها فى البحر ورميناك فى الحبس ، وكان أحد العساكر حلو اللسان ، قال لى : ارجع يابن المركوب !

حمامة رأسى دخلت وطلعت ولم أعد فاهما شيئا ، عدت الى شاطىء بلدنا وعرفت من الناس الذين منعوهم من العبور أن ملكة بلاد العجم ستزور المساخيط فى البر الثانى .. وقفت مع الواقفين من الصباح حتى صلاة الظهر فى انتظار وصول هذه « البربرطورة » التى واضح أن قدمها « نادى » علينا .. ومن حظى المطين أن الجو كان شديد الحرارة فى ذلك اليوم ، وبدأت الطماطم تنتفخ وتفوح منها روائح تدل على أن الأمل فى بيعها مثل أمل أبليس فى دخول الجنة .. ووصلت باخرة كبيرة من تلك التى تحمل سياح الخواجات ، رست على السلالم الجديدة أمام مبنى المساخيط .. ولم أر ملكة العجم التى قيل ان جيهان السادات كانت ترافقها لبعد المسافة بين الشاطئين .. فقط كنت أرى العساكر يملأون الشاطىء الآخر ولكن فى حجم النمل ، وطوابير أخرى كثيرة قيل انها لأولاد وبنات المدارس .. سمعت الزمامير والطبول فى البر الثانى ، وفاحت الطماطم ،

وقال لى الناس الذين ينتظرون العبور معى ، طماطمك لاتصلح للبيع ، فانهمكت فى القائها فى النيل وأنا فى حالة تشبه الجنون ، ثم كشفت رأسى ونظرت الى السماء وقلت يارب المظلومين ، أظلم من ظلمونا ياعالم بالحال .. قبل أن انتهى من دعائى ، سمعت مايشبه الضجة والصراخ والزعيق ورأيت الناس تجرى هنا وهناك حتى لكأن الناس يذبحون بعضهم فى البر الثانى .. أى والله .. الله استجاب وعدت الى البلد بالمقاطف فارغة الله .. يتلتل أموات البربرطورة وأموات الذين عرفونا بها !

وضحكنا رغما عنا ، حتى أمى ابتسمت ، ربما لأول مرة منذ وفاة زاهر .

- وماذا كان موقف الامبراطورة ؟

ضحك بشير وهو يقول :

- كانت تولول كما تفعل المرأة فى نجعنا اذا تخيلت أن عفريتا ظهر لها فى الظلام !

- أتت علينا لحظة صمت ، تحرقت خلالها شوقا لرؤية شوشو .

★ ★ ★

- صباح الخير يا أستاذ عبدالودود ..

- هه ؟ .. أهلا ياعامر . كيف حالك ؟ .. سلامات ؟!

ماله ؟ .. لماذا هو مضطرب زائغ العينين هكذا ؟ .. ذقنه نابتة وملابسه غير معتنى بها على غير العادة ، ماذا حدث له ؟

اتجهت الى حجرة رئيس الحسابات ، همست له :

- ما حكاية الأستاذ عبدالودود ؟

مال السيد عبدالسلام بعنقه النحيل الطويل الشبيه بعنق مالك الحزين وهمس : فيما بعد نتكلم فى الموضوع .

اتجهنا الى قريتنا ، أنا والسائق عون ، حصلت الأموال من التجار ، وبالقرب من بيت عمى الشيخ رزق التقى بنا ابن عمى عبدالمجيد الغباشى ، أسند كفيه على نافذة السيارة وانحنى يخاطبنى :

- ما رأيك لو توليت أمر مبيعات شركتكم فى البلاد التى تقع غرب النهر ؟

- اتفق مع الأستاذ عبدالودود ..

تراجع بظهره الى الوراء وهو يفرد قامته ويضرب بخيزرانة فى يده على طرف ثوبه :

- أنا أقول بدل تعبكم ، أتولى عنكم هذه المهمة نظير عمولة ..

- الأستاذ عبدالودود فى يده الموضوع ..

أخرج علبة سجائر أمريكية ، سحب منها سيجارة وقال :

- مستعد أدفع التأمين اللازم ، سواء بالجنيه أو بالدولار . من أحد الدروب ظهرت الجازية ، عليها فستان طويل غامق الحمرة مرصع برسوم بيضاء لها شكل الزهور ، شعرها انسدل وراءها فى ضفيرة غليظة ، حين لمحتنى أدارت وجهها الى الناحية الأخرى ، فقال عبدالمجيد :

- متى تصطلحان ؟

- عندما يريد الله .

- فيه بنى آدم ، يابن العم ، يملك هذا الجمال ، ويتخلى عنه ؟

اختفت الجازية فى درب جانبى ، وظهر شقيق أبى حجازى بجسده المدملج ، عليه ثوب صوفى أسود من النوع الذى يرتديه العمد والأعيان ، ألقى بالسلام ثم انتحى بالغباشى ، أخذا يتهامسان لفترة ، اتجها بعدها الى الدرب المؤدى الى بيت عمى الشيخ عبدالرحمن العطشان ، والد الناعسة ..

اتجهت بالسيارة الى بيتنا ، وعند الساحة ، أمام المضيفة ، رأيت جمعا من الناس يلتفون حول عمى حافظ تارك الصلاة وهو فوق حماره الأسود ، أمامه كرتونة بداخلها جهاز تليفزيون ، قال مواصلا شتائم سابقة لم أسمعها جيدا :

- ملعون أبوكم يانجع فاضى !

أجابه ابن عمى قاسم ، شقيق بشير ، بصوته الغليظ :

ـ اخرس قطع لسانك .

ضغط عمى حافظ على جانبى الحمار بساقيه الرفيعتين مثل بوصتين ، فتوقف الحمار ، قال يرد على قاسم بصوت هادىء جدا تتخلله ضحكات تهكمية فبدا كممثل فكاهى :

ـ أنت بالذات ياشيخ قاسم ، لو كنت بهيمة وعرضوك فى السوق ، وحق لا إله إلا الله ، أدفع فيك أكبر مبلغ حتى لو أدى الأمر الى ثمن شوال بصل !

ظهر الغضب على وجه قاسم المستطيل ذى الوجنات الناتئة ، اندفع بقامته الطويلة ، تعثر فى ثوبه الصوفى البنى الذى اشتراه ضمن ثيابه الجديدة غالية الثمن ، لكن بعض الواقفين أمسكوا به فشلوا حركته ، قال بلهجة المقهور :

ـ سأعتقك كرامة للعرب .

اقترب منى ابن عمى جعفر الباجس بقميصه المترب ، المرقوع فوق كتفه الأيمن ، قال ضاحكا :

ـ عمك حافظ زعلان لأنه باع العجل قبل أوانه واشترى جهاز تليفزيون .

ـ العجل الذى كان يدخره ليجهز به سعدية ؟

ـ بنته الصغيرة (لوزة) كانت تتفرج على التليفزيون فى بيت الغباشى ، فطردتها زوجته ولما أخبرته وهى تبكى ، حلف بالطلاق أن يشترى جهاز تليفزيون خلال ثلاثة أيام !

سمعنا ضحكات صادرة عن عمى حافظ ، هدأ الآن وانشغل مع الجموع الملتفة حوله تداعبه ويداعبها ، وكفاه تنبسطان على جانبى الكرتونة فى حنان ، قال له عمى الشيخ رزق :

ـ لكنك غلطان فى بيع العجل قبل أوانه .

ـ كيف أصبر ياشيخ رزق إذا كان هذا النجع الخربان ، ملأ البيوت بهذه البلاوى ؟

ـ لو تقدم أحد للبنت الكبيرة ، تبيع البقرة ولايبقى عندك غير هذا الحمار الذى تركبه .

أطلق عمى حافظ ضحكة صافية ، اهتز لها شاربه الذى يبرمه الى أعلى ولايتناسب مع وجهه النحيل وقال :

ـ وماله ؟ .. على رأى المثل ، فقرى البلد ، حيلته جحش ... حا !

ضحك الواقفون ، وأكثرهم من الشباب ، أعلاهم صوتا كان ابن عمى جعفر الباجس الذى شمر عن ساعده الأسمر القوى ولوح بقبضة يده ، محييا عمى حافظ :

ـ الأهلى حديد !

لكن حين مرت (كاملة) الغجرية ، على رأسها المقطف الخوص ناصع البياض ، الذى زينته برسوم نباتية بخوص أخضر ، تبيع فيه الروائح العطرية والسلاسل الفضية لنساء النجع ، دارت أعناق الشباب تتأمل ملاءتها الحريرية السوداء ، تتماوج مع الهواء على جسدها الممسوق ، التفتت بوجهها الأحمر الفاتن ذى الشفتين الممتلئتين على شكل القلب ، مرسلة نظرة عابرة من عينيها الزرقاوين ، تنهد جعفر الباجس وقال :

ـ اللهم ألطف بحالنا .

تضاحك الشباب ، احتجت ملامح عمى الشيخ رزق ، استدار بثوبه القديم ، الذى اتسع على قامته الطويلة والنحيلة التى انحنت للزمن ، أعطاهم ظهره ، ثم خطا فى اتجاه بيته وهو يقول فى أسى :

ـ احترام كبار السن فى النجع ، انتهى زمنه ، صدق الله العظيم ، اقتربت الساعة وانشق القمر .

سلمت على أبى وأمى وبقية الجالسين فى البيت ، ودخل عون معى ،

قدم لأبى العزاء وجلس بجواره ، ولملم عمى عرابى ثوبه الكحلى ، جيد التفصيل ، وتربع فوق سرير الحبال ، بدا بين الجميع فى سمات زعيم القوم ، بعمامته الكبيرة ذات اللفة الخاصة التى لاتشبهها لفة فى بقية النجوع ، قال لى عون فيما بعد ، حين وقع بصرى على وجهه المهيب وثيابه الأنيقة ظننته عمدة بلدكم ، وقال لى عمى عرابى وهو يعدل المسند وراءه :

- عمك الشيخ عبدالحميد المأذون طلع لنا فى الأنظرون .

- ماله ؟

- أعاد لعبدالبارى زوجته المطلقة ، ولما عاتبته بشأنك أنت والجازية ، قال انها القسيمة الأخيرة ، عثر عليها مصادفة ولايوجد عنده غيرها !

ومن قال لك اننى أرغب فى اعادتها ؟

- لا أظنه يكذب ياعمى .

- ربما تعلم الكذب بعد أن شاب .. على كل حال ، إمش مع الكداب ، لحد الباب ، أنا صابر عليه .

تولى حراستنا ، حتى المعادى ، أولاد الأعمام جعفر الباجس ، وسليمان ابن الشيخ رزق ، وثلاثة أخرون ، لكن هذا الغريب الأطوار المسمى ببشير الزنديق ، رفض توصلينا بحجة أن أصحاب شركتنا من الرأسماليين الطفيليين .

★ ★ ★

عبدالودود الأفندى مازال فى نفس حالة الاضطراب التى رأيته عليها فى الأيام القليلة الماضية ، صحبنى الى بيته وهو يتودد لى بطريقة غير معهودة طوال الطريق : أنت مثل ابنى تماما ..

- شكرا يا أستاذ ..

- لاحظ أنا أقول الصدق ياعامر .. اعتبرنى مثل عمك دسوقى بك ..

- واكثر ..

يصمت فجأة ويتنهد بصوت عال ويخاطب نفسه بكلمات مثل « قدر » وبعد كل مرة يتنبه لوجودى ويبتسم لى قائلا : سلامات ؟

وصلنا الى بيته ، وكالعادة استأذن فى أن ينهى بعض أعماله ، جلست فى الصالون وحدى ، قلبى يتراقص ، منذ بضعة أيام لم أر توأم الروح ، دخلت فتاة ثائرة الجسد ، ترتدى فستانا أبيض فوق الركبة بقليل ، تبث أنوثة طاغية ، تسبقها ابتسامة عريضة :

ـ أهلا بالأستاذ عامر !

ـ أهلا وسهلا ..

من أين جاء عبدالودود الأفندى بهذه الأنثى التى تتثنى فى مشيتها بهذه الطريقة ؟

ـ أين شوشو ؟

ـ فى مصر ..

ـ مصر ؟ .. منذ متى ؟ .. ولماذا ؟

ثنت عنقها بطريقة مثيرة وقالت بصوت خافض جدا كأنها قطة مترفة تريد أن تندس فى حضن صاحبها :

ـ يعنى لأن (الناس) تحبك لاتسأل عنهم وتسأل عن شوشو وحدها ؟!

ـ ناس من ؟

ابتسمت ولم تقل شيئا ، لكن عينيها العسليتين الجميلتين مضتا ترسلان إشعاعا قويا كان يمكن أن يدور له رأسى لولا انشغالى بشوشو :

ـ لماذا ذهبت الى مصر ؟

ـ تزور أختها ..

ـ لها أخت فى مصر ؟

ـ طالبة فى الجامعة .. كتبت لها بأنها مريضة فسافرت اليها .

- الجامعة فى مصر أم فى أسيوط ؟

تلعثمت قليلا قبل أن تقول :

- فى مصر ، فهى تعيش مع خالتها هناك .

- ومتى تعود ؟

عادت تثنى العنق البديع فى اغراء وقالت بصوت دافىء :

- هم الناس موش قد المقام ياسى عامر ؟!

- قد المقام وزيادة .

- أشكرك ..

نطقت « أشكرك » بصوت خافت خالطته بحة وقد تورد خداها فى حين كان كتفها الأيمن يتحرك فى اغراء مع حركة عنقها :

- أنت قريبة الأستاذ عبدالودود ؟

- بنت أخته ..

- يعنى بنت خالة شوشو ؟

- هه ؟ .. آه .. آه .. بنت خالتها !

- متى تعود شوشو ؟

- لماذا تسأل عنها وحدها يا أستاذ ؟

- متى تعود ؟

- يعنى لازم أرد ؟

- لو سمحت .

- بعد أسبوع .

لماذا لم تخبرنى عن سفرها ؟ .. هل هذا موقف منها ياترى ؟ .. هل

اغضبتها دون ان أدرى ؟

تضاحكت ذات الجسد الثائر تنبهنى لوجودها ، أشارت الى عصير الجوافة وقالت بصوت ناعم :

- اشرب يا أستاذ .

مضت تكلمنى وانا ذاهل الى أن دخل عبدالودود الأفندى .

★ ★ ★

- ٧ -

سرنا فوق الجسر الذى يشق الحقول ، انا وابن عمى بشير الزنديق ، أعواد القمح يبست ، وبدأ الرجال بمناجهلم المعقوفة فى حصادها ، أكثر الأرض مكشوفة الآن ، المواشى والغنم فى مطاولها ترعى الحشائش الشيطانية وتخصب الأرض الى أن يحين موعد زراعة الذرة الرفيعة ، وشوشو طال غيابها أكثر مما يجب ..

- رأينا سعدية بنت عمى تارك الصلاة ، تخرج من حقل أبيها ، تصعد الجسر ، كل البنات فى سنها تزوجن وانجبن ، انفرجت شفتاها الممتلئتان عن شبه ابتسامة ، كأنهما فى انتظار قبلة طال غيابها ، صدرها الناهد يكاد يخترق الثوب الأحمر الذى انسدل على قوامها الذى يشبه التمثال الرشيق ، وجهها الأسمر ، حلو التقاطيع تندى بالعرق ، وفى الجو شاعت رائحة الأرض التى شققتها الشمس تنتظر الماء ، اختلطت برائحة صادرة من هامات النخيل الذى أخرج طرحه فى نتوءات ذات لون بنى فى انتظار اللقاح ، ابن خالى محروس أشار الى سعدية ذات مرة وقال : هذه أجمل بنت رأيتها فى حياتى ، لكن المركز مهم ! .. كيف أقدم أباها - بقراريطه وهلاهيله - وأقول لضيوفى ، هذا هو صهرى المبجل ؟! .. الرجل الذى أصاهره يجب أن يملك عشرة أفدنة على الأقل ، أو مايعادلها من الناحية التجارية أو الوظيفية ، لكن واحسرتاه لأننى حرمت من هذه البنت الرائعة !

حين مررنا على أرض عمى عبدالمعبود ، تذكرت الجازية والأيام الخوالى ، عبدالمعبود باع الأرض الآن واشترى أرضا فى شمال البندر ، يزرعها لكنه يعود كل يوم الى بلدنا مع الأصيل ، ليخرج منها فى الصباح الباكر ، وعلى مبعدة كان ابن عمى جعفر الباجس يحرث أرضه ، أشار إليه

بشير وقال :

ـ انظر إلى محراث ابن عمنا جعفر الباجس ، ثم الى المحراث المرسوم على جدران الآثار الفرعونية ، تجدهما شيئا واحدا .. يعنى بدل أن نطور المحراث لنخفف من معاناتنا ونزيد انتاجنا ، بعنا عجولنا وبقرنا لنشترى بها الثلاجات والفيديو والتليفزيون لكى نتفرج على علية القوم وهم « يهمبكون » ونتفرج على أحدث ماوصل اليه رقص هز البطن والأرداف ، هذه هى التنمية الانفتاحية وإلا فلا !

كان ابن عمى جعفر الباجس يبدو عليه الارهاق رغم بنيته القوية ، وعلى مسافات متباعدة ، تناثر الأعمام وأولاد الأعمام يعملون فى الأرض ، أشار بشير اليهم وقال :

ـ أنظر الى هذا المجهود الشاق الذى يبذله أهلنا ، لمجرد الحفاظ على الحياة .. هل تعتقد أن مثل هؤلاء يمكن أن يخرج منهم من يفكر أو يخترع أو يبتكر أو يحسن اختيار ممثليه من النواب ؟

جلسنا فى ظل نخل آل بشير ، ولما حميت الشمس ، تراقص الهواء أمامنا كالنار التى تتعالى السنتها فى حريق ، وجاء عمى رزق أكبر النجع سنا وهو يمسح عرقه ، عليه قميص أبيض لفه الغبار ، فى يده منجل ويبدو عليه الارهاق ، سأل بشير وهو يجلس بجوارنا :

ـ ماهذا الذى سمعته ؟

ـ ماذا سمعت ؟

ـ هل صحيح أن الشيخ عبدالرحمن شكا لأخيك قاسم منك وطلب أن تبتعد عن بنته ؟

ابتسم بشير وقال : صحيح .

ـ ومارأيك أنت ؟

ـ الرأى رأى الناعسة .

ـ أبوها مصمم يزوجها لعبدالمجيد الغباشى ..

- أعرف ..

- لماذا لاتبيع بضعة قراريط وتتزوجها وتفضوا الموضوع ؟

- ربنا يهدى عمى عبدالرحمن .

تنهد عمى الشيخ رزق وقال :

- عبدالرحمن طمعان .. الغباشى أغرقه بالهدايا ..

- فعلا ..

- الناس تبحث عن السكر والشاى فى المشارق والمغارب ، والغباشى أهداه من يومين جوالَىْ سكر وصندوق شاى به أكثر من مائة باكو ..

- سمعت .

فى أقصى اليسار ظهر الجسر الذى تبدأ عنده أرض عباس بك الزعيم - عم توفيق بك - التى باعها لأحد كبار التجار فى البندر .. وخشى التاجر الكبير ان هو أجرها للمزارعين ألا يستطيع استعادتها منهم ، باع ترابها لأصحاب قمائن الطوب ، جرفوها حتى قامة رجل ، وهاهى الآن مستنقع كبير لتفريخ أرقى أنواع الناموس ، لكن شوشو طال غيابها أكثر مما يجب .

فى حقل عمى عرابى ، لمحنا ابنه عمر يحمل حزمة من الحطب فوق حماره ويتجه الى الجسر ، دون أن يلقى علينا بالسلام .. عمر يكره كل أبناء قبيلتنا ، رجالا ونساء ، ظنا منه انهم هم الذين أغروا أبيه بالزواج من امرأته الثانية التى هجر من أجلها أمه .. لكن عمى عرابى يقول انه تزوجها - أول بخته - ارضاء للمرحومة أمه ، فلما ماتت هجرها لأنه يكرهها ، ولما قال له عمى الشيخ يوسف ان الشرع يقضى ان يبيت عندها ليلة بعد ليلة ، قال ربنا يسامحنا !

جاء شقيق أبى حجازى الذى يزرع أرضه وأرضنا الآن ، بعد موت زاهر وزهد أبى فى كل شىء ، جلس بجوارنا ، ثوبه نظيف ، كذلك عمامته ، لم يعد يمارس الزراعة بيديه بعد أن تحسنت أحواله المالية من مشاركته لابن عمى عبدالمجيد الغباشى فى تخزين التموينات وتوزيعها ، فضلا عن أرض

عمى عبدالمعبود ، والد الجازية ، التى باعها للغباشى ويزرعها حجازى بالمشاركة ، وفى السماء كان أحد الصقور يفرد جناحيه ويطير فى مستوى منخفض ، لايرتفع كثيرا عن مستوى آل بشير ، انقض فجأة على عصفور أخضر ، وطار به بعيدا ، لكن غياب شوشو طال اكثر مما يجب .

قال شقيق أبى حجازى لبشير :

- ابعد عن بنت الشيخ عبدالرحمن .

- مامعنى ابعد عنها ؟

- يعنى لاتكلمها كيلا توقف حالها ويبتعد عنها العرسان .

ابتسم بشير وهو يقول :

- انا لا أكلمها إلا كما يكلم الشخص واحدة من بنات نجعه نالت شيئا من التعليم .

قلب شقيق أبى حجازى ثوبه الأبيض النظيف ، رأى بقعة خضراء ظهرت فيه من اثر العشب ، وقف ، تناول جوالا وفرشه ، جلس فوقه بعد أن لملم ثيابه وقال :

- الناس يقولون انك تنتظرها يوميا عند المدرسة ، وتسير معها على طريق النيل حتى مدخل النجع ..

- اى اثنين اذا تصادف والتقيا ، يمكن أن يسيرا معا فى الطريق ، مادام كثير من الناس يمشون حولهم ، ثم انها بنت عمى أحميها بدمائى ، وكل النجع يعرف أننا مخطوبان منذ طفولتنا .

- خطوبة النسوان القديمة ، غير صالحة لهذا الزمن .

ظهر الاستياء على وجه بشير ، تمتم بكلمات لم أفهم منها غير « منطق متناقض » واضطجع عمى الشيخ رزق على العشب فصبغ ثيابه جيدا باللون الأخضر قبل أن يقول لحجازى :

- ولماذا لاتقول لصاحبك الغباشى يبتعد عنها ؟

ـ شريكى ذهب بالطريق الحلال ، طلب يخطبها من أبيها على سنة الله ورسوله ، لكنه لاينتظرها وهى خارجة من المدرسة ، لسنا فى بلاد الانجليز .

تذكرت الأيام التى كنت أنتظر فيها الجازية أثناء خروجها من المدرسة ، الناس من حولنا يرقبوننا فى سرور ، يتوقعون لنا حياة سعيدة ، لم تبقَ على الدخلة غير بضعة شهور ، الأعمام يقولون لى : ضع الجازية فى عينيك ياولد لأنها غالية علينا ، والعمات يقلن لها : عامر عزيز علينا ، حافظى عليه يابنت . آخر مرة رأيتها فيها ، كانت فى سيارة بيجو مع أمها وأبيها ، فى طريقهم الى البندر ، تظاهرت بأنها تنظر الى شىء ما فى الطريق حين تلاقت نظراتنا ، تظننى متعلقا بها ، عوضنى الله خيرا منك يابنت عبدالمعبود ، فقط غيابها طال أكثر مما يجب .

بقرتنا المبرقشة مربوطة فى عريشة شقيق أبى حجازى ، تجتر فى هدوء وصغيرتها تتقافز حولها ، لبنها يحمله الينا حجازى كل صباح ، جاء كلبا زاهر وتمسحا بى ، يرحبان ، يهزان ذيليهما ويصدران أصواتا تدل على اعزازهما لى ، طاف زاهر فى خيالى وتماسكت بقدر الطاقة ، على مقربة ظهر عمى حافظ تارك الصلاة ، يشق حقلنا فى طريقه الى جلستنا ، عليه قميص رث وعلى رأسه عمامة كانت بيضاء ، أصدر صوتا يدل على الحسرة وهو يتأمل حقلنا ويقول :

ـ حسبى الله ونعم الوكيل فى الظالمين !

ابتسم أكثر الجالسين فشعرت بالغيظ فى حين استطرد هذا الحافظ تارك الصلاة :

ـ لو كانت أرض جدى معى الآن ، لما تأخرت بناتى فى الزواج ، كان تقدم لهن أربعة من أعيان البلد ، مادام أبوهن من كبار الملاك !

ـ أنت الذى أوقفت حال بناتك ، بنتك الكبيرة مثلا تقدم لها ثلاثة ، هم ......

ثم نسى أسماءهم فأسعفه جعفر الباجس :

ـ صالح الطويل ومحمود الكامل وحمدان المقمل .

أكمل عمى الشيخ رزق :

ـ لكنك رفضتهم جميعا .

أجاب عمى حافظ :

ـ كل هؤلاء ليس فيهم من يقدر على اعالة نفسه ، وحمدان المقمل مثلا ، يكفيه لقبه !

ضحكنا جميعا فاستطرد تارك الصلاة وهو يتنهد :

ـ أنا عملت كل جهدى فى استعادة أرض جدى .. منذ عشرين سنة ذهبت الى أحد المحامين ودفعت له ثمن خمس نعجات ، فذهب المحامى الى الحكومة وقال لها حافظ مصمم على استعادة أرضه من العائلة الظالمة .

قال جملته الأخيرة وأشار ناحيتى وناحية شقيق أبى حجازى وأكمل :

ـ فذهب أفراد العائلة الظالمة الى محامٍ أكبر ودفعوا له ثمن عشر نعجات ، فقال القاضى من حق واضع اليدِ على الأرض أن يستمر فى زراعتها مادامت النعجات الخمس لاتملك مستندات كافية ! .. وهكذا انحازت الحكومة إلى العائلة الظالمة وخرجت انا من (المولد) بضياع أرضى وفوقها الخمس نعجات !

ضحكوا جميعا ، آلمنى ضحكهم ، وتجهم وجه شقيق أبى حجازى ، ثم وقف ونفض ثوبه وقال وهو يغادر الجلسة :

ـ نحن لانرد على الكلاب إذا نبحت .

أجابه تارك الصلاة بلهجة تنم عن قلة الأدب :

ـ الكلاب هم الذين يأكلون حقوق الناس .

قمت انا أيضا وغادرت الجلسة ، لا طاقة لى على تحمل المهاترات ، سيما وأن شوشو طال غيابها أكثر مما يجب .

عند مدخل المضيفة ، يجلس عمى الشيخ يوسف وحفيده موسى يقرأ له : « اقبل على القوم على فرس له ذنوب حتى اذا كان بين الصفين قال : نحن حتى الآن اخوة وعلى دين واحد وملة واحدة مالم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا امة وانتم امة ، ونحن ندعوكم لخزلان الطغاة الذين يسملون اعينكم ويقطعون أيديكم وأرجلكم ويمثلون بكم ويرفعونكم على جذوع النخل - فقاطعوه وسبوه وقال له شمر بن ذى الجوشن : اسكت أسكت الله نأمتك ، ابرمتنا بكثرة كلامك »

★ ★ ★

فى منتصف الليل ، استعد هشام ليتسلل خارج البيت .. ولما رآنى جالسا فى الفراش ، سألنى : غيرت رأيك ؟

أجل .. أنا فى حاجة الى تغيير نمط حياتى .. شوشو لم تعد من القاهرة ، والجازية غاضبة ، وحياتى أصبحت جافة ..

تسللنا معا ، ركبنا سيارة أجرة دخلت بنا عزبة تقع فى طرف البندر ، بيوتها تشبه العشش .. دفع هشام بابا فانفتح على فناء مكشوف غاص باكوام من ورق القصب اليابس .. سمعنا صوت امرأة فى نهاية الفناء يقول :

- اهلا ياهشام .

أغلقنا وراءنا الباب ، قادتنا المرأة الى حجرة واسعة بداخلها حجرة أخرى .. على الأرض أريكة متهالكة وحصيرة بها ثقوب كثيرة محروقة الحواف ..

على ضوء المصباح الكهربى الذى يهبط من السقف ، رأيت المرأة .. فى الثلاثين ، ترتدى فستانا أحمر لامعا ، بدت لى جميلة فى هذه اللحظة ، الكحل يعطى عينيها جاذبية ، ممتلئة الجسد قليلا ، قال لها هشام وهو يقدمنى :

- ابن عمى ، مدير عام احدى الشركات المشهورة !

رحبت المرأة على عجل وقالت لهشام بصوت مأساوى :

ـ سمعت عن قتل سميرة ؟

ـ شيء مؤسف ياسامية .

ـ أنا خائفة .

تساءلت مندهشا :

ـ من التى قتلت ومن الذى قتلها ؟

عض هشام شفته السفلى وهو يرمقنى دون أن تلحظه المرأة ، فلذت بالصمت .. اتجهت سامية الى الحجرة الداخلية فقال لى هشام هامسا :

ـ أرجوك .. لاتطرق هذا الموضوع أمامها .

ـ من التى قتلت ولماذا ؟

ـ واحدة سيئة مثلها ، أغلبهن يأتين الى بندرنا هاربات من قرى المراكز المجاورة ، ويأتى أقاربهن لقتلهن .. هاهى قادمة .. امنع الكلام فى الموضوع وإلا انقلبت الليلة الى غم .

جاءت سامية تحمل نارجيلة وضعتها أمامنا ثم جاءت بطبق من الصاج عليه كمية من الفحم ، صبت عليه شيئا من الكيروسين وأشعلته .. أخرج هشام من جيبه ورقة سلوفان ، فتحها فظهرت القطعة الداكنة فى حجم عقلة الأصبع ، وضع منها شيئا فى حجر النارجيلة وأعطى للمرأة المبسم وسألها :

ـ لماذا أنت وحدك ، أين بدرية ؟

أجابت بعد أن أخرجت الدخان من أنفها :

ـ فى زيارة بنت عمها .. هذا رابع حادث هذه السنة ياهشام ، اننى أرتعش .

قال هشام مغيرا مجرى الحديث :

ـ كيف حال صديقنا عمرو ؟

ـ منذ شهر لم أره ..

ثم عادت الى الموضوع الذى يشغلها :

ـ كادوا يقتلون الرجل معها .. الرصاصة مرت بجوار أذنه .

انزعجت لهذا القول ، انتهزت فرصة دخولها الحجرة الأخرى وقلت لهشام :

ـ ولماذا لايحدث لنا مثلما حدث لصديق المرأة التى ذكرتها ؟

ضحك وقال ساخرا :

ـ ليت هذا يحدث لكى أستريح منك !

جاءت سامية وهى تحمل طبقا عليه كمية من البرتقال وقالت معاتبة :

ـ تضحك ياهشام ؟ .. المفروض تحزن على سميرة .

اعتذر هشام :

ـ كنت أضحك على حكاية ذكرنى بها عامر .. وعلى فكرة .. إذا جاء عامر هنا وحده ، فعليك أن تكرميه وتوصى عليه بدرية .. انه ابن عمى كما قلت لك .

وضعت طبق البرتقال أمامنا ، وتناول هشام واحدة وانهمك فى تقشيرها فى حين تفرغت المرأة للنارجيلة تشد من أنفاسها بشراهة وقالت له :

ـ قل لدسوقى بك يجد لى عملا بالحلال .

ـ على العين والرأس .

حلمت بمجموعة من حملة البنادق يقتحمون علينا بيت سامية ويطلقون علينا الرصاص .. حين سردت أحداث الحلم لهشام قال باستياء :

ـ دعك من أفكار أهل بلدكم المتخلفة .

لكن شوشو طال غيابها أكثر مما يجب .

★ ★ ★

- ٨ -

هشام يتحدث ، اثناء مشاهدتنا التليفزيون ، دون أن أتنبه له .. قال : الرجل الذى يشبه البالونة المسمى بعبد المعبود .

- عبدالمعبود ؟ .. ماله ؟

- انت نائم ؟ .. أقول لك كان يحادث أبى بصوت غاضب ويقول انه أوقعه فى مأزق ..

- أى مأزق ؟

- الله أعلم ، فأنا لم أسمع الكلام من أوله ، وبصراحة انا غادرت المكان لأن شكل هذا الرجل لايعجبنى !

أوقعه فى مأزق ؟ .. هل لهذا علاقة بطمع الرجل فى تزويج الجازية من اسماعيل بك فاذا بهذا الأخير يتزوج ابنة عمه ؟

جاءت الخادمة وقالت لى : البك استيقظ من نومة القيلولة ويريدك ..

جلست بجواره فى الشرفة المطلة على الحظيرة ، عيناه منتفختان من اثر النوم ، ظل صامتا لفترة قبل أن يحبك الروب الحريرى على جسده ويقول بود : انت تعرف انك بمنزلة أولادى ..

- أعرف ياعمى ..

- انت الآن وضعت قدمك فى أول السلم مع الطبقة المحترمة فى مجتمع البندر .. بالذات لأن مرتبك سيتضاعف خلال سنة ، كذلك سنجعل لك نسبة فى الأرباح .

انتشيت .. اجل .. هذه هى السعادة .. عما قليل تقف سيارتى الفاخرة أمام المضيفة بجوار سيارة الغباشى .

ـ زوجتك الحالية لم تعد تصلح لك ..

ماذا ؟ .. هل لهذا علاقة بما قاله هشام عن خلافهما هو وعمى عبدالمعبود ؟

ـ انت فى حاجة الى انسانة راقية تمثلك فى المجتمع الجديد .. مجتمع رجال الادارة وكبار الموظفين ورجال الأعمال والأعيان ..

كدت أقول اننى طلقت الجازية ، لكننى أمسكت فى آخر لحظة ولا أدرى لماذا ؟ .. لكن كيف كان عمى عبدالمعبود عنده دون أن يخبره بذلك ؟ .. لكن عليك أن تتخيل مستقبلك الباسم وشوشو تجلس فى صالون بيتك الفاخر مثل صالون توفيق بك ، تستقبل زوجات علية القوم .. زوجة المحافظ وسكرتير عام المحافظة ورؤساء المدن والقضاة ، تخيل الأصابع تشير نحوك قائلة : عامر بك . سبحان العاطى الوهاب ، لكن يجب أن تقطع صلتك ببشير الزنديق كيلا يفسد عليك متع الحياة بكلامه مثل : الناس الذين يبحثون عن حلول فردية دون الاهتمام بمجتمعهم ولا أدرى ماذا ؟

ـ ماقولك ؟

ـ ونعم الرأى ياعمى ..

عليك أن تخطط للمستقبل منذ الآن ، لكن مافائدة كل هذا مادامت شوشو ليست بجوارك ؟

شارع السوق بزحامه .. من هذه ؟ .. انها الجازية مع أبيها وأمها يقفون أمام شركة بيع المصنوعات ، يحملون حقائب من البلاستيك ، يبدو أنهم اشتروا ملابس جديدة وينتظرون سيارة أجرة .. على الجازية فستان بنى فضفاض وتلملم شعرها على شكل جرس مقلوب ، عليك أن تتظاهر بأنك لم ترهم فى زحمة السوق .

سمعت موسى يقرأ لجده أثناء مرورى أمام المضيفة :

« قال لأصحابه حين أحدق به جيش الكوفة : القوم لايريدون غيرى ، وهاهو الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا وتفرقوا فى مدنكم وقراكم حتى يفرج الله .

تصايح أصحابه يرفضون ، أعلاهم صوتا كان ابن القين :

ـ والله لو علمت أنى أقتل ثم أحيا ثم أحرق ثم أزر فى عين الريح .. يفعل بى ذلك سبعين مرة ، مافارقتك حتى ألقى حمامى دونك ، فكيف لا أفعل ذلك وهى قتلة واحدة ثم بعدها الكرامة ؟ »

فوجئت بأمى تبكى وعمتى فاطمة الغنامة تحتضنها محاولة تهدئتها ، قالت لى : أمك تريد اقلاق زاهر فى قبره بهذا البكاء مع ان الواجب أن تقرأ له الفاتحة لكى تنير له القبر .

جاءت عمتى مرزوقة ، والدة الغباشى ، ومعها زوجته بنت عمى زينب ، أخذتا تواسيان أمى ، وجاءت عمتى راضية فانتعش الجو حين بدأت فى اذاعة النشرة ، لكنها أزعجتنى حين قالت : العرسان يهربون الآن من سميحة بنت عرابى ، كل الناس تقول انها فقرية لأنها قتلت خطيبها ، وهى فعلا فقرية !

★ ★ ★

انطلقت بنا سيارة عبدالودود الأفندى فى اتجاه بيته ، وهو يقول لى :

ـ استعد للسفر الى القاهرة ..

ـ لماذا ؟

ـ ستتصل بالأستاذ عصام الصدفاوى .

ـ ومن عصام الصدفاوى ؟

ـ وكيلنا فى القاهرة .. سأعطيك عنوانه لتسلمه رسالة خاصة ومبلغا من المال .

ـ فقط ؟

ـ فقط .

ـ ولماذا لانبعث بالمال عن طريق البنك وبالرسالة عن طريق البريد ؟

ـ للأعمال الحرة أسرارها .. سافر اليه ونفذ كل مايطلبه منك ، ولاداعى لتناقشنى فى كل كبيرة وصغيرة .

قال ذلك وهو يبتسم ، ثم أردف بلهجة أبوية :

ـ عليك أن تخوض هذه الحياة العريضة يافتى لكى تكتسب خبرات ..

ـ متى أسافر ؟

ـ بعد ثلاثة أيام .

تركنى فى صالون البيت وذهب الى حجرة مكتبه .. دخلت الفتاة ذات الأنوثة المتفجرة بكوبين من عصير البرتقال .. سألتها عن عنوان شوشو فى القاهرة فقالت :

ـ لا أعرف .

ـ الجامعات الآن فى اجازة ، فلماذا لم تعد أختها ؟

ـ الغائب حجته معه .

ـ أختها فى أى جامعة ؟

ـ عين شمس ..

ـ ما اسم الأخت ؟

ـ قدرية ..

ـ فى أى كلية ؟

ـ الحقوق .

ـ أى سنة ؟

ـ لا أعرف .

ثم قالت بلهجة رقيقة معاتبة : كيف تسأل عن شوشو وحدها ؟

دخل عبدالودود الأفندى فانسحبت الفتاة .. ناولنى ظرفا أبيض منتفخا وقال : نفقات السفر ومبلغ آخر زيادة ، ربما احتجت لشراء هدايا عند عودتك .. وانا كلفت من يحجز لك فى قطار المجرى بالدرجة الأولى الفاخرة يوم السبت .

سألتنى أمى ان كنت قد أخبرت أبى بمشروع سفرى - ومابنتظرنى من مجد باذن الله - فقلت سوف أخبره ، وكانت بنت عمى الناعسة تجلس بجوارها ، ثوبها البنفسجى بدا رائعا عليها ، ودخلت علينا عمتى مرزوقة ، والدة الغباشى ، ثوبها الأسود ذو القماش الفاخر بدا واسعا على جسدها النحيل ، فى حين بدا فكها الأسفل بارزا أكثر مما يجب ، وقفت الناعسة وقالت لأمى « بعد اذنك ياخالة » لكن عمتى مرزوقة اعترضت طريقها : على وين ياست ناعسة ؟

-أساعد أمى فى تجهيز طعام العشاء .
- أمك تقدر تجهزه وحدها ..
- الواجب أساعدها ..
- أنت ماشية لأنى دخلت .
- لا ..

- وحق لا اله إلا الله انت ماشية بسببى ، وهذا عيب فى حقك يا أستاذة ، أنا سأكون نسيبتك .

ثم أضافت ضاحكة : يعنى حماتك كما يقولون فى تمثيليات (التلافازون) .

توقفت الناعسة صامتة فى حين كانت عمتى مرزوقة تسد عليها الطريق بوقوفها بين الجدار وصومعة الغلال وهى تقول :

- ربنا يجعلك من نصيب عبدالمجيد ويجعل عبدالمجيد من نصيبك .

ظهر الضيق على وجه أمى لكنها لم تقل شيئا ، وأمسكت عمتى مرزوقة بكم الناعسة وقالت :

- اقعدى شوية أرد روحى وانا أتملى وجهك الذى مثل السكر . امتزج الحياء والحرج فى وجه الناعسة ، لكنها جلست .



- ٩ -

أعوذ بالله من زحام القاهرة .. مع اننى دخلتها مع غياب الشمس ، إلا أن الناس يتصادمون فى الطرقات كأنهم يتعمدون اعلان الكراهية لبعضهم .. نزلت فى فندق قريب من المحطة ، الحقيبة المدكوكة بالجنيهات تقلقنى ، اتصلت بالأستاذ عصام الصدفاوى ، جاءنى صوته عبر التليفون مهللا :

- يا الف أهلا وسهلا .. هل يشغلك شىء ؟
- لا .
- تعال حالا .

دونت العنوان فى ورقة وهبطت وقفت فى ميدان المحطة أكثر من نصف ساعة أبحث عن سيارة أجرة ، يخيل لى أن شخصا ما يراقبنى وعينه على الحقيبة ، جاء الفرج وتكرم سائق تاكسى بالوقوف ، أوصلنى الى مصر الجديدة حين فتح الأستاذ عصام الباب ، تذكرته على الفور ، كنت أراه منذ سنوات فى البندر ، يثير المعارك فى كل مكان ، اختفى فجأة وسمعت انه يقضى فترة سجن فى قضية سرقة ، هاهو الآن أمامى بطوله الفارع وأنفه المعقوف وشعره الأكرت ووجهه فى لون البن المحروق ، لم يتغير فيه شىء غير امتلاء جسده قليلا ، وغير الأناقة المفرطة ، ولحسن الحظ هو يظن اننى لا أعرفه . قال لى ان ثمة توصية أن يكرمنى فسعدت بهذا ، شقته جديدة الأثاث ، لكنها فوضوية الطابع ، أخذ منى الحقيبة والظرف ودخل احدى الحجرات ، ثم عاد بسرعة وهو يقول :

- تعال نسهر معا .

قطعت بنا سيارته الهوندا مسافة كبيرة وسط الزحام الى أن وصلنا الى شارع تكثر فيه الملاهى ، قال :

- هذا هو شارع الهرم ، أعظم شوارع البلد !

دخلنا ملهى وتفرجنا على راقصة جميلة جدا ، وكان الرواد « ينقطونها » بالأوراق المالية الحمراء ، ولما انهت رقصتها ، قال لى الصدفاوى : تعال .

دخلنا معا فى حجرة فى الخلف ، وجدنا الراقصة تجلس أمام مرآة كبيرة ، صافحها الصدفاوى وقال لها وهو يشير لى :

- لايغرنك تجهمه .. هو ابن عمى قادم من البلد لتوه ، صعيدى صميم ويعجبك !

أطلقت الراقصة ضحكة خفيفة وقالت لى مداعبة :

- أنا أحب الناس الخام !

ثم همست لى بلطف :

- صح ياسمارة ؟

كانت الخمر قد لعبت براسى فقلت لها :

- مارأيك فى أن نتزوج ؟!

ضحكت وشاركها الصدفاوى الضحك وقالت وهى تميل الى الوراء فى دلال : وصلنا !

سألها الصدفاوى : ننتظرك فى السيارة ؟

- لدى موعد الليلة ، خلها غدا .
- قولى لزوزو تأتى معك .
- سأبلغها .

أوصلنى عصام الى الفندق وقال لى ان مهمتك فى القاهرة سوف تستغرق خمسة عشر يوما على الاقل .. ضايقنى هذا ونمت بكامل

ملابسى .. استيقظت فى الحادية عشرة صباحا ورأسى تطن بالصداع .. بعد أن أفطرت ، اتصلت تليفونيا بالبلد وقلت لمن خاطبنى أن يبلغ أبى بالمدة التى سوف أقضيها بالقاهرة ، وأعطيته عنوان الفندق ورقم التليفون .

★ ★ ★

دخلت من الباب الحديدى الكبير لجامعة عين شمس ، الطلبة الآن فى اجازة والمكان خال ، لمحت موظفا بدا لى انه صعيدى ، سألته :

ـ من اى بلد ؟

ـ اسنا .

ـ وانا من اسوان ، أبحث عن عنوان بنت خالى الطالبة فى الحقوق ، اسمها قدرية محمد حسين .

ـ أى سنة ؟

ـ بصراحة لا أذكر السنة .

ابتسم فى خبث وقال :

ـ بنت خالك ولاتعرف فى أى سنة ؟!

حين رآنى ألوذ بالصمت ، قال لى : تعال معى .

دخلنا مكتب شئون الطلبة ، استقبلتنا سيدة نحيلة ، يبدو عليها الحزن قالت :

ـ كيف أبحث فى كل السنوات مادمتم لاتعرفون السنة ؟

ـ لاتؤاخذينا يامدام فكرية ، هذا الرجل جاء من آخر الدينا .

انهمكت فى تقليب سجلات ضخمة فى شىء من الضيق ، ثم أغلقت آخر السجلات فى عصبية :

ـ الاسم غير موجود .

ـ هاتِ السجلات ونحن نبحث عنها .

ـ خذوا ، لكن بسرعة .

بحثنا فى عجلة فلم نجد الاسم ، شكرناها وخرجنا .

★ ★ ★

ما ان رآنى عصام ، وهو يفتح لى الباب ، حتى صاح :

- أين انت ؟ .. اتصلت بك أكثر من مرة فى الفندق .

أخبرته عن بنت خالى ، قال لى :

- عندنا شغل كثير .

انطلقنا بسيارته الى ان وقفنا أمام احدى العمارات ، وكان الصدفاوى يحمل حقيبة النقود ، صعدنا الى الطابق الأول ، ضغط جرس شقة مكتوب على بابها « هريدى الناصح .. مدير مبيعات المؤسسة المصرية العامة للصناعات الكبرى » فتحت لنا الباب فتاة فى الخامسة عشرة ، قالت

- عامر .. ابن أخت عبدالودود بك الأفندى !

رحب بى الرجل وقال : خالك هذا حبيبى .

مدير المبيعات رجل ربعة ، يخالط المشيب شعر رأسه ، وجهه مغولى القسمات مثل وجه ابن عمى قاسم ، لملم الروب دى شامبر الحريرى على جسده المدملج وجلس مع الصدفاوى على أريكة واحدة ، سمعته يهمس للصدفاوى :

- الجو غير مستقر ويستحسن نلتقى فى الخارج .

أشار الصدفاوى ناحيتى وقال :

- هو ليس بالغريب .

- ولو .. الجو مكهرب وصحف المعارضة تثير علينا الدنيا ، امنع اللقاءات هنا مؤقتا .

- نتكلم اليوم عن الصفقة الجديدة ، وبعدها نلتقى فى الخارج .

انفعل مدير المبيعات رغم خفوت صوته وهو يقول :

- لو أن مباحث الأموال العامة أحست بنا ، وجردت الفرع ، لاكتشفت عجزا بمليون جنيه ، فمن ينفعنى لو حدث هذا ؟ .. أنت أم الأستاذ عبدالودود الأفندى ؟

ابتسم الصدفاوى وقال :

- اطمئن ، فلوسك ستصلك على دائر المليم .
- متى ؟ .. بعد أن تقع الفأس فى الرأس ؟

مد اليه الصدفاوى الظرف الذى كنت أحمله ، وأشار الى الحقيبة وقال :

- الفلوس هنا ، واليك رسالة عبدالودود بك .
- كم ؟
- اقرأ الرسالة .

فتح الرجل الظرف وجرت عيناه على السطور بسرعة وقال :

- أين بقية الفلوس ؟
- ستصلك قبل أسبوع .

فتح الحقيبة ، بعد أن وضعها على ركبتيه ، ثم أغلقها بسرعة وقال :

- لاتظن أن نصيبى يكفى لعلاج مرضى ، انا واحد من سبعة .
- أعرف ، لكن ماذا عندكم الآن من بضائع ؟
- وماذا تريدون أنتم ؟
- كل ماعندكم ..

ثم ضحك وأضاف :

- ان شاء الله حتى تراب !

وضع مدير المبيعات الحقيبة خلف الأريكة التى يجلس عليها وقال :

- سيحضر اليك فى بيتك الأستاذ زيزو العجمى ومعه قائمة بالبضائع

التى سنتسلمها خلال هذا الأسبوع .
- متى ؟
- الساعة الخامسة بعد الظهر .

وقف الصدفاوى فقال له المدير وهو يصافحه :
- رجاء ، قل لعبدالودود بك لايؤخر الفلوس .
- من عينى .

وقفا يتهامسان لفترة فلم تصلنى غير كلمات متقطعة ، وكانا أثناء ذلك يضحكان .

خرجنا وشقت بنا سيارة عصام الزحام ثم أنزلنى أمام الفندق وقال :

- استعد الليلة لسهرة محترمة .. سأتصل بك تليفونيا فلا تخرج من الفندق إلا اذا تلفنت لى .

تناولت الغداء فى مطعم كباب ، وشربت شايا ، حاولت النوم قليلا ، بعد الظهر ، فلم استطع ، كيف العثور على شوشو ؟ .. ولماذا لاتكون أختها فى جامعة القاهرة ؟ .. يجب أن أذهب الى الجامعة غدا من أول الصباح ، الليلة ستكون فيها أشياء أرقى من أشياء الاخ هشام ، ويبدو أن الأيام القادمة ستكون مترعة بالسعادة ، لكن كيف العثور على شوشو ؟ .. وهل تتم السعادة إلا برؤية وجهها الحبيب ؟

دق جرس التليفون داخل حجرتى ، وقال لى موظف الفندق :

- مكالمة تطلبك من أسوان .

حين حول الخط ، سمعت صوت ابن خالى محروس :

- ياعامر .. تعال حالا .
- ماذا حدث ؟
- أبوك مريض .
- مريض ؟ .. كيف ؟ .. أى نوع من المرض ؟
- هو بخير ، لكنه أصر على أن يراك ، اركب القطار فى الحال وتعال ،

اياك أن تتأخر .

ظللت جالسا لفترة أحدق فى لاشىء .. اتصلت تليفونيا بعصام الصدفاوى فلم أجده .. حرت فى أمرى حيث لا أعرف له مقرا غير البيت .. مستحيل أن أسافر دون أن أنهى مهمتى هنا ، ومستحيل أن أصبر على الاقامة بالقاهرة بعد مكالمة ابن خالى .. يجب أن افكر دون انفعال .. موعد القطار فى الثامنة ، اذن أمامى أكثر من ساعتين ، اذا لم أعثر على الصدفاوى ، يجب أن اترك له رسالة وأسافر ولتنطبق السماء على الأرض .



نصف سكان النجع داخل بيتنا وفى الساحة التى أمامه .. النساء يبكين بصوت خافت والرجال يدخلون ويخرجون ويقولون :

ـ يارب الطف .

ابى راقد فوق سريره لايتكلم ، انحنيت فوقه :

ـ أبوى .

لم يجبنى ، قال له عمى عرابى وهو يقرب فمه من أذنه :

ـ عامر جاء ياخوى .

فتح عينيه وصعد من فمه صوت يشبه الذى يصدر عن المرء حين ينطق احدهم بخبر يسره ، رفع ذراعه ودار به حول عنقى ، قبلته فى جبهته ، لكننى احسست بيده تتراخى على صفحة عنقى وقد بردت كالثلج ، انزلقت يده ، أمسكت بها بسرعة وأرحتها بجواره ، حدقت فى وجهه بذهول ، خيل الى انه يبتسم ، لكن عينيه لاتنظران الى شىء ، ابعدنى عمى عرابى بسرعة ، وانحنى فوقه يغلق عينيه وهو ينطق بالشهادتين ، ثم بكى بصوت عال قائلا :

ـ أمر الله ياخوى .

صرخت امرأة ، ثم ثلاث نساء ، ومالبث الصراخ أن تفرع وتشابك ووصلت أطرافه الى عنان السماء .

هاهم المعزون يتقاطرون على المضيفة ، أكثرهم جاء فى الأيام الثلاثة الأولى ، عمى الأستاذ دسوقى وولده هشام والأستاذ عبدالودود الأفندى وعبدالسلام مدير الحسابات والسائق عون وجميع موظفى الشركة ، كذلك جاء توفيق بك وشقيقه طوسون ، والعمدة وعمى الشيخ الغضبان وكثيرون من رجال قبيلنا فى القرى المجاورة ، هاهم الناس يلغطون حولك ، وجودهم خفف كثيرا من الحزن ، وان كان الحزن الأكبر على الوالدة التى لا أعتقد انها ستتحمل الصدمتين معا ، جاءنى صوت عمى عرابى يقول لجاره : بنتى مرضت فعرضتها على ثلاثة أطباء فلم تتحسن ، لكن لما زرت بها مقام ولى الله الشيخ عامر ، شفيت فى الحال ، نظرة يا أهل الله !

وجاءنى صوت ابن عمى الغباشى يقول لعمى الشيخ حسين الكومى : شركائى كلهم من الموظفين الكبار فى البندر ، وهؤلاء أدرى منى بأمور الحلال والحرام لأنهم تعلموا أحسن تعليم !

وسمعت ابن عمى بشير الزنديق يقول لمجموعة من الموظفين : الحكومة الخفية التى تحكم العالم لن تسمح لأى بلد فى العالم الثالث أن يختار نوع الحكم الذى يريده ، ومن يحاول ذلك فسوف يتعرض للتدمير المعنوى والاقتصادى والعسكرى .. الأمل الوحيد فى أن تتولى الشعوب أمر نفسها ، لكن المشكلة فى أن أجهزة الاعلام المحلية هى التى تصيغ عقلية الشعوب صياغة سطحية حسب أوامر الحكومة الخفية !

وجاءنى صوت عمى الشيخ عبدالرحمن ، والد الناعسة ، يقول لجماعة من أقاربنا جاءوا من احدى القرى المجاورة :

ـ المرحوم عبدالولى حين سمع الخبر وضع يده على قلبه وقال : الحقونى ، سقط على الأرض أمام باب المضيفة فنقلوه الى البيت ، ولم ينطق بعدها بكلمة حتى قابل ربه ، حقا ان الأعمار بيد الله ، لكن كل شىء وله سبب .

ارتعش جسدى وانا أسأله :

ـ اى خبر سمعه أبى ؟

- خبر صاحبتنا .
- صاحبتنا من ؟
- ألم تسمع بزواج الجازية ؟

تنبه عمى عرابى لكلامنا فقال مؤنبا :

- قلنا ألف مرة اخفوا هذا الخبر عن عامر الى أن نبلغه به بالتدريج .. لماذا أخبرته الآن ؟

دافع عمى الشيخ عبدالرحمن عن نفسه :

- لم يقل لى أحد ، لماذا لم تحذرونى ؟
سألت عمى عرابى وانا ألهث :
- الجازية تزوجت من ؟
- تغور فى الف داهية .
- اسماعيل ؟

- بعد ثلاثة شهور ستراها تدور فى دروب البلد مثل (نورا) المجنونة .. وأنت تستطيع ، بعد انقضاء فترة الحزن على المرحوم ، أن تتزوج بأفضل منها ، إياك أن تهتم بالباطلة بنت الباطل .

اذن ، تزوجت سعادتها من اسماعيل بك .. لكن كيف حدث هذا بعد اقترانه بابنة عمه ؟ .. هل حدث خلاف بينه وبين عروسه فطلقها أم جمع بينها وبين الجازية ؟ .. وكيف رضيت صاحبة السعادة بدور الزوجة الثانية ؟ .. هل اعتبرت مجرد اقترانها باسماعيل بك شرفا ؟ .. على كل حال حياة القصور تغرى .. ثم ان اسماعيل بك شاب وسيم فلا بأس من أن تكون زوجته الثانية .. خالى كان محقا حين طلب منى استشارتها .. حتما كانت ستطلب الطلاق لتقترن بسليل الباشوات .. ثم اننى انشغلت عنها بشوشو .. قطعا هى غضبت وقررت الانتقام منى .. لكن من الذى أخبرها عن شوشو ؟ .. ماهذه الأحداث التى تدور حولى وانا غافل ؟ .. أبى مات كمدا بسببى .. لو رددتها لعصمتى لما عرضته للموت المفاجىء .. لكن الأعمار بيد الله .. غير قادر انا على فعل شىء وعمى الشيخ عبدالحميد

المأذون لاقسائم لديه .. ماذا يقول سكان النجع عنى ؟ .. قطعا هم يتهامسون .. الحق اننى فى حاجة الى عزلة أفكر فيها على مهل وأعرف ماذا حدث بالضبط .. متى تعود شوشو لكى أطفو على سطح الحياة ؟

قال لى ابن عمى جعفر الباجس هامسا :

ـ فى البداية قالوا ستتزوج من اسماعيل بك وفوجئنا بزواجها من توفيق بك !

ـ ماذا تقول ؟

ـ بعد سفرك بيومين ، قدمت استقالتها من المدرسة ، وهجرت البلد مع أبيها وأمها ، أقاموا فى البندر عند أرضهم الجديدة ، وسافرت هى مع توفيق بك الى الاسكندرية ، ويقال ان زوجته الأولى تركت القصر وسافرت الى أهلها فى إسنا ..

سمع عمى عرابى همس جعفر الباجس فصاح به :

ـ فضونا من هذه السيرة الله يرضى عليكم .

ران الصمت ولم يقطعه غير صوت موسى الصغير يقرأ لجده عمى الشيخ يوسف :

قال يوصى ولده وهو على فراش الموت :

ـ لاينازعك فى هذا الأمر إلا نفر من قريش .. الحسين بن على ، وعبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن الزبير بن العوام .. أما عبدالله ابن عمر ، فهو رجل قد شغلته العبادة ، اذا رأى الناس بايعوك ، بايعك واستراح .. وأما الحسين بن على ، فهو رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق إلا ويخرجوه عليك .. فان هو خرج وظفرت به ، فاعف عنه ، فان له حقا عظيما وقرابة من محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

أما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذا أمكنته

فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها ، وظفرت به ، فقطعه إربا إربا !

★ ★ ★

كيف رضيت بالزواج من رجل يكبرها بثلاثين عاما على الأقل ؟ .. ما الذى يدور فى رأس الجارية ؟ .. هل هى متهافتة الى هذا الحد فى الارتماء فى أحضان القصور ، أم أننى أخطأت فى حقها فدفعتها الى مايشبه الانتحار ؟ .. أين الخطأ ؟ .. هل هى جانية أم ضحية ؟ .. هل كانت تود الاقتران باسماعيل فلما أفلتت الفرصة رضيت بتوفيق بك ؟ .. وماذا عن توفيق بك نفسه ؟ .. هل كان يساومنى عليها من أجل ابنه أم من أجل نفسه ؟ .. هل اختلق حكاية مرض ابنه ؟ .. كيف أعرف الحقيقة ؟

- اسمع يابنى .. مادامت تزوجت على سنة الله ورسوله ، فلا دخل لنا ولاعيب فى حقنا .

صدقت ياشيخ عرابى ، لكن مهما يكن من أمر ، فأن أبى قد ضاع ، وهو الضحية الحقيقية لما حدث ومن قبله أخى .

★ ★ ★

انتهت أيام العزاء . هاهو صوت عمى الشيخ رزق يأتينى من بعيد ينقر على الدف .. أتخيله الآن فى بيته يجلس على حصيرة ويسند ظهره على سرير حبال ، هو لايمسك بالدف إلا اذا كان فى حالة حزن ، وما أكثر الأحزان .. هاهو صوته المنغم يصور البكائية التى قالها زعيم تونس ، خليفة الزناتى ، يرثى قومه ، وهم أحياء ، لأنهم « والسوا » وتركوه يحارب وحده ، فلم يفيقوا إلا بعد فوات الأوان ، بل إن تونس نفسها ، كما قال ، نَفَرَتْ من أولادها الذين آثروا مجالس اللهو على الدفاع عنها وهى « المرية » المشهورة بالخصب :

تونس المرية جفتكم ..
لتلطيشكم فى المجالس .
بكاسات مرة سقتكم ..
ويستاهل اللى يُوَالِسْ .

هاهو الزناتى ، فى لحظة يأسه ، يشك فى تونس ذاتها بأنها تعشق الخضوع للغزاة ، كلما احتلها أمير أجنبى ، غازلت اميرا أجنبيا آخر وخضعت له ، وهاهى الآن تتمسح فى « حسن » ملك الهلالية :

تونس دى بلد عشاقة

عشقت حسن السلطان .



- ١٠ -

وقف عبدالودود الأفندى بمجرد أن رآنى .. استقبلنى بحفاوة لم أكن أتوقعها .. دار حول مكتبه وعانقنى بحرارة وعزانى فى المرحوم أبى ثم قال لى ، بعد مجاملات طويلة :

- أنا عاتب عليك ياأستاذ ..

- لمـاذا ؟

- انت أخطأت لأنّك لم تنه مهمتك فى القاهرة .

- اتصلوا بى تليفونيا فجئت ، هل تريدنى أن أتأخر وابى على فراش الموت ؟

- أنا أعذرك .. وفاة والدك أوجعتنا جميعا ، وكان لابد أن تعود فورا .. لكن يجب أن نسجل عليك خطأ لا يغتفر على سبيل (المبدأ) فقط ..

صمت للحظة قبل أن يستطرد بلهجة خطابية :

- عملنا هذا يخدم مصر ، وخدمة مصر فوق كل اعتبار ، وأنت الآن عرضت الشركة لخسارة كبيرة ، لو قالوا لك جميع أهلك ماتوا ، فعليك أن تصمد فى موقعك وكأنك لم تسمع شيئا ، لأن مصر تأتى قبل الأب والأم وجميع الأهل .

- هل هذا معقول ؟

- افهمنى ياعامر .. حين تعرف ان اى واحد من أقاربك مريض جدا ، أو مات ، لا قدر الله ، فعليك أن تعود فورا .. هذا حقك وأنا أوافق عليه .. لكنى كنت آمل أن أجدك قوياً فلا تعرف العواطف طريقها الى قلبك ، خصوصا اذا تعلق الأمر بخدمة مصر .. هل فهمتنى ؟

اجبت بلا اقتناع : فهمتك .

صمت قليلا قبل أن يقول مترددا :
ـ مجلس الإدارة اجتمع واتخذ قرارا بشأنك .
ـ أى قرار ؟

وقف وهو يقول باسما :
ـ تعال معى الى بيت دسوقى بك .

استقبلنا عمى الأستاذ دسوقى بترحاب .. وجاء هشام ووالدته وواسيانى ، وأظهرا من العواطف الصادقة ، بالذات والدة هشام ، ما خفف عنى كثيرا .. وتناولنا طعام الغداء معا ، وأثناء ذهابى الى غسل يدى ، سمعت عبدالودود يقول لعمى بلهجة من يدافع عن نفسه :
ـ هو أحبها فعلا وهى احبته أيضا ، لكنى لم أكن أعرف ان القدر سيتدخل بهذا الشكل ، ويعقد المسائل .

لم أعرف عمن يتحدثان ، لكنهما صمتا عند عودتى ، وقال لى عمى الأستاذ دسوقى :
ـ ستتسلم عملا أخر فى الشركة ياعامر .
ـ أى عمل ؟
ـ فى الحسابات .
ـ لا دراية لى بعمل الحسابات .
ـ والدتك تحتاج الى وجودك معها فى البلد .. لذلك سنعفيك من الحضور مبكراً ومن تحصيل الأموال .. يمكنك أن تأتى لساعتين فى اليوم فقط .
ـ سأعود الى نفس عملى ياعمى .
ـ هناك شخص أخر حل مكانك .
ـ لكننى اتميز عن أى شخص آخر .. أعنى أن الذى حل محلى ، ستتعرض له العصابات وتضيع أموال الشركة بسبب عدم وجود "عزوة" له فى القرى .

قال الأستاذ عبدالودود الأفندى وهو يتناول حبة مشمش ويضعها فى فمه :
ـ زميلك الجديد من "الزوايدة" ، قبيلة توفيق بك ، وهؤلاء أقوى ناس

فى المحافظة ، أليس كذلك يادسوقى بك ؟

نقر عمى دسوقى على المائدة وقال دون أن ينظر ناحيتى :

- هذه حقيقة للأسف !

ضايقنى هذا فقلت :

- مالى أنا ومال شغل الحسابات ؟

قال عمى دسوقى وهو يبتسم لى :

- اختر أى عمل آخر يعجبك .. المهم أن تكون معنا .

وقف الأفندى وهو يقول :

- قرار مجلس الإدارة كان بشأن مرتبك .. اعتبر حضورك المفاجىء من القاهرة خطأ كبيرا ، وعلى كل حال أنا حافظت عليك بحيث يكون مرتبك الحالى ضعف المرتب الذى كنت تتقاضاه من عملك كمدرس ، بما فى ذلك الدروس الخصوصية ، مع مرتب زوجتك .

- معنى هذا سينخفض الى الربع ؟

غادر عبدالودود الأفندى البيت ، وقال لى عمى دسوقى :

- لا تهتم ، سأعوضه لك بطريقتى الخاصة بعد شهرين ثلاثة .

هل أقدم استقالتى ؟.. لكن هذا معناه أن تنقطع عنى أخبار شوشو وقد أحرم منها الى الأبد .. ما العمل ؟

★ ★ ★

عند طرف البلد ، على حافة المزارع ، سمعت حركة ورائى ، رأيت سيارات تقترب ، صعدت أحد الجسور ، موكب من ثلاث سيارات ، لمحت فى احداها ما خيل الىّ انها الجازية ، بجوارها توفيق بك ، تسمرت فى مكانى ، مرقت السيارات ، وفى البداية خيل الىّ اننى أحلم ، على كل حال هى خرجت من قلبى ، برز أمامى وجه شوشو ، كأن القلب يلوذ بها من هول الانفعال ، من اين والى أين ؟.. هذه ليست الطريق المؤدية الى القصر ولا الطريق القادمة منه .. هل هم ذاهبون الى زيارة احد أعيان القرية

المجاورة ؟، ثم مالى أنا ومالها ؟.. لم تعد تهمنى فى شىء ، يجب أن أكف عن التفكير فيها ..

سمعت ضجة فى المضيفة ، عند دخولى النجع ، دخلت لأجد عددا من الأعمام وأولاد الأعمام يلغطون ، لكنهم صمتوا حين رأونى ، كأنما أنا الوحيد الذى لا يجب أن يعرف موضوع المناقشة .

القيت بالسلام وجلست ، يتناثرون على الدكك فى حين تزن المراوح من السقف ، وقال عمى حافظ تارك الصلاة :

ـ ياعامر .. الموضوع الذى نتناقش فيه ، يخصك .

ـ يخصنى أنا ؟

ـ هذا الرجل المسمى بتوفيق بك ، أرسل يقول انه سوف يزور النجع غدا مع زوجته الجديدة .

نطق عمى حافظ "زوجته الجديدة" بعد تردد ثم صمت وراح يتلفت حوله فى حين طأطأ أكثر الموجودين رءوسهم ، وبعضهم تشاغل فى شرب الشاى ، والبعض الآخر مضى يحدق فى السقف ، وآخرون أشعلوا لفائف الدخان وتشاغلوا بقراءة ماهو مكتوب على علب السجائر ..

استطرد عمى حافظ :

ـ الجماعة هنا منقسمون ، بعضهم يرى أن نستقبله بصفته صهر القبيلة ، وبعضهم يرفض استقباله ، فما رأيك أنت ؟

جف حلقى والكلام يخرج منى كالحشرجة :

ـ لا رأى لى ..

قال شقيق ابى حجازى :

ـ زيارته لنا بهذا الشكل ، قلة أدب منه .

التفت ابن عمى عبدالمجيد الغباشى نحوه وقال :

ـ ما هذا التخريف ياحجازى ؟

تراجع شقيق أبى ، تضاحك قائلا :

ـ نسمع رأيك ياشيخ عبدالمجيد !

قال عبدالمجيد يخاطب الجميع :
ـ الزواج تم وانتهى الأمر ، ثم انه زواج على سنة الله ورسوله ، واذا كان توفيق بك تزوج بنت الشيخ عبدالمعبود ، فهذا شرف لنا ، اى واحد فينا ، اذا كان فى بلد غير بلدنا ، وجاءت سيرته ، سيقول انه متزوج بنت عمى ، هذا رجل له قيمته ومعروف فى الأربع والعشرين محافظة ، ولا تنسوا الخدمات التى يؤديها لنا فى كل المشاكل التى نتعرض لها فلماذا لا نستقبله ؟.. أنا شخصيا قررت أن ينزل فى بيتى اذا وافق وسأذبح له هو وكل ضيوفه .

وقف عمى عرابى وغادر المكان ، وقال شقيق ابى حجازى :
ـ المجاملة مطلوبة على كل حال ، خصوصا وان الزواج تم بالحلال !
قال قاسم :
ـ فعلا ، المجاملة مطلوبة !

قام عمى عبدالواحد ، وغادر المكان ، وتبعه ولده جعفر الباجس الذى قال وهو على العتبة :
ـ احرثوا فيها برجل حمار !

وقال عمى عبدالرحمن ، والد الناعسة :
ـ على كل حال الرجل طلب أن يزورنا ، والواجب أن نستقبله بما يليق به .

اتجه ابن عمى بشير الزنديق الى الخارج وهو يقول :
ـ الرأسمالية الطفيلية تحالفت مع الإقطاع القديم .

تساءل ابن عمى عبدالمجيد :
ـ ما معنى الراسمالية الطفيلية ؟

أجابه ابن عمى قاسم ضاحكا :
ـ لا تهتم ، هذا ولد عقله مخلول ويقول كلاماً غير مفهوم .

خرجت من المضيفة وسمعت عمى حافظ تارك الصلاة يقول :

قال عبدالمجيد يخاطب الجميع :
- الزواج تم وانتهى الأمر ، ثم انه زواج على سنة الله ورسوله ، واذا كان توفيق بك تزوج بنت الشيخ عبدالمعبود ، فهذا شرف لنا ، اى واحد فينا ، اذا كان فى بلد غير بلدنا ، وجاءت سيرته ، سيقول انه متزوج بنت عمى ، هذا رجل له قيمته ومعروف فى الأربع والعشرين محافظة ، ولا تنسوا الخدمات التى يؤديها لنا فى كل المشاكل التى نتعرض لها فلماذا لا نستقبله ؟.. أنا شخصيا قررت أن ينزل فى بيتى اذا وافق وسأذبح له هو وكل ضيوفه .

وقف عمى عرابى وغادر المكان ، وقال شقيق ابى حجازى :
- المجاملة مطلوبة على كل حال ، خصوصا وان الزواج تم بالحلال !
قال قاسم :
- فعلا ، المجاملة مطلوبة !

قام عمى عبدالواحد ، وغادر المكان ، وتبعه ولده جعفر الباجس الذى قال وهو على العتبة :
- احرثوا فيها برجل حمار !

وقال عمى عبدالرحمن ، والد الناعسة :
- على كل حال الرجل طلب أن يزورنا ، والواجب أن نستقبله بما يليق به .

اتجه ابن عمى بشير الزنديق الى الخارج وهو يقول :
- الرأسمالية الطفيلية تحالفت مع الإقطاع القديم .

تساءل ابن عمى عبدالمجيد :
- ما معنى الراسمالية الطفيلية ؟

أجابه ابن عمى قاسم ضاحكا :
- لا تهتم ، هذا ولد عقله مخلول ويقول كلاماً غير مفهوم .

خرجت من المضيفة وسمعت عمى حافظ تارك الصلاة يقول :

- مادام النجع يحكمه ابن مرزوقة ، قل علينا السلام .
- أمى الآن أغنى واحدة فى النجع ، كل يوم تتغذى بكيلو لحم ، وكل واحد يحفظ لسانه !

دخلت البيت ، وجدت الكثير من العمات حول أمى ، ما يعزينى انهن لا يفارقنها ، تخرج هذه لتدخل تلك ، يحملن اليها الطعام من بيوتهن ، كما تقضى التقاليد ، ويأكلن معها ليرغمنها على أن تتناول لقيمات ، وقالت لى عمتى مرزوقة ، والدة عبدالمجيد :
- وآخرتها فى أمك ياعامر ؟.. لا تكف عن العديد على عبدالولى وزاهر وتتمنى أن تلحق بهما ، هل هذا كلام ؟

حين رأتنى واجماً ، سألتنى فقلت : لا شىء .

حين ألحت أخبرتها عن زيارة الجازية المنتظرة ، بكت أمى وعددت على أبى :
"عمود بيتى والعمود اتهد .. خبرونى فى بيت مين اتشد" .

ثم انخرطت فى البكاء بصوت عال ، ومضت عمتى مرزوقة تواسيها ، تساعدها عمتى زوجة عرابى ، وجاء ابن خالى محروس وأخذ يهدئها ولما زادت فى البكاء ، لم يتمالك نفسه من البكاء هو أيضا ، فشاركته البكاء عمتى مرزوقة وزوجة عرابى وبقية النساء ، ولما توافد الأعمام وأبناء الأعمام ، كعادتهم حين أكون فى البيت ، ليخففوا عنى ، انتقلنا الى السقيفة التى فى مدخل البيت ، مضوا يتحادثون فى موضوعات شتى ، وبعضهم أشعل الجوزة ، وهمس لى ابن عمى جعفر الباجس :
- ما رأيك لو أطلقت الرصاص على توفيق بك عندما يأتى لزيارة النجع ؟!

دهشت ، وتساءلت بصوت سمعه الجالسون :
- أضربه بالرصاص ؟.. لماذا ؟

شعر الباجس بالحرج لارتفاع صوتى ، وتلفّت حولى فيما يشبه الذعر وقال :
- ليكف الكلام عنك فى النجع .

- ماذا يقولون ؟

- يقولون تزوج امرأتك غصبا عنك دون أن تفعل شيئا ، وهاهو يتحداك ويزور النجع وهى معه !

- لكنها تزوجت برضائها ، ثم اننى طلقتها قبل ذلك .

صمت الجميع وان ساد التوتر ، وقال شقيق أبى حجازى يدافع عنى :

- عامر كرهها وطلقها .. وسواء تزوجت أو لم تتزوج فهذا موضوع لا يهمنا .

شد عمى حافظ تارك الصلاة نفساً طويلاً من الجوزة ، ثم أخرج الدخان من أنفه ببطء قبل أن يقول :

- رجال البيت الظالم ليست لديهم حرارة الرجال ولا يغضبهم أى شىء حتى ولو أغتصبت نساؤهم !

أغاظنى كلامه فقلت له :

- أنا لم أخطىء فى حقك فى حياتى ، والواجب أن تعتذر .

لكن شقيق أبى حجازى هب بجسده المدملج ، وجذب تارك الصلاة من طوق جلبابه حتى أوقعه ، ثم لف الطوق حول كفه العريضة وقال له :

- لن أتركك حتى أخلص عليك .

انتفخ وجه تارك الصلاة وجحظت عيناه وبرز لسانه وأخذ يأتى بحركات من رجليه ، بعد أن رقد على السرير ، مثل التى تأتى بها الدجاجة المذبوحة ، وتدخلنا أنا وابن خالى محروس وآخرون وخلصناه بعد جهد ، وشهق تارك الصلاة شهيقاً عالياً وهو يهم بالخروج ويقول بلهجة بكاء :

- دائما تهينوننى لانكم اكثر عددا ، وأنا لا أخ لى ولا ابن ، لكن الصبر طيب يابيت واطىء !

لم تمض لحظات على خروجه حتى سمعنا الصراخ يملأ النجع ، هرولنا الى الساحة ، قال قائل ان الصراخ يأتى من بيت حافظ تارك الصلاة ..

دخلنا بيته ، وجدناه بالقميص والسروال ، يحمل فى يده حبلاً ليفيا

غليظا ، ينهال به على زوجته ، عمتى راضية ، وهى تولول وبناتها الأربع يولولن معها ..

أمسكنا به . وتجمع كثيرون ، وكانت عمتى راضية تقول باكية :

ـ الله يظلمك يابعيد كما تظلمنى دائما ، لم أخطىء فى حقه ياناس ، قلت له البنت الكبيرة ، سعدية ، فاتها الزواج ولابد توافق على زواجها من أى أحد ، انفجر بلا أى سبب ، الله موجود يخلص لى حقى من الظالم !

كانت تقول ذلك وتجمع ملابسها لتغادر البيت وبناتها يبكين فى حرقة ، وكانت سعدية بقميص خفيف ، ومشوشة الشعر ، وهى تجمع مع أمها الملابس .

وجاءت عمتى فاطمة الغنامة ، أمسكت بالملابس ومنعت عمتى راضية من الخروج ، ودخل عمى الشيخ رزق بقامته المقوسة ونهر عمى حافظ :

ـ النسوان يضربوهن ياحمار ؟!

وجاء عمى عرابى وقال انه لن يغادر البيت إلا اذا اصطلحا ، وثمة صينية شاى وأكواب متناثرة على الأرض ، وكان حمام البيت قد فزع وخرج من برجه ووقف فوق الجدار الطينى المائل ، يمد أعناقه الى أسفل ، يرقب الموقف وتصدر عنه أصوات سريعة خاطفة تدل على الفزع ..

★ ★ ★

سامية تجهز النارجيلة وتثرثر مع هشام الذى انهمك فى فتح الورقة المفضضة وتقطيع ما بداخلها الى أجزاء صغيرة فى حجم حبات الاذرة الرفيعة .. أجل ، لا سبيل أمامك فى الهروب من القهر غير بيت سامية ، انخفض مرتبك بطريقة مهينة ، يعاملونك بطريقة تدفعك الى الاستقالة ، تتحمل من أجل رؤية شوشو فى يوم ما ، ليكن الدواء فى الدخان الأزرق ..

قال هشام لسامية : أمثالك يؤدين خدمة كبرى للوطن !

أجابته غاضبة : أنا أشرف من أشرف واحدة .

كادت الجلسة تفسد لولا أن تراجع هشام وزعم لها انه يمزح ..

غابت فى الحجرة الداخلية قليلا ثم عادت تحمل طبقاً رصت عليه شماريخ العنب وقالت متشكية :
- العنب كاد يفسد ، ثلاجتى متوقفة لا أدرى ماذا حدث لها .

لملمت الثوب المزركش الفضفاض حول جسدها الممتلىء قليلا ، وتربعت على السجادة ، ومد لها هشام مبسم النارجيلة .

سمعنا طرقاً على الباب الخارجى ، انزعجت ، خرجت سامية الى الفناء المكشوف ، بعد أن أغلقت علينا باب الحجرة ، قلت لهشام :
- من هذا ؟

أجاب فى اطمئنان وهو يشد أنفاس النارجيلة :
- البر أمان !

سمعت صوت رجل فى الفناء ، نظرت من ثقب المفتاح ، رأيت على ضوء القمر رجلا قصير القامة ، قمحى اللون ، له وجه مربع وشارب كث ، يرتدى قميصا وبنطلونا ويضع على رأسه طاقية ، وقف يحادث سامية بصوت لم أسمعه ، سألنى هشام : من ؟

وصفت له الرجل فقال بلا اكتراث : زوجها !
- مــن ؟!

قال بعصبية من يضيق بسذاجتى :
- هل تظن ان أمثال سامية يستطعن العيش فى هذا الوضع دون أن يكون للواحدة زوج تحتمى به ؟
- وكيف يرضى زوجها أن ....

ضحك بصوت خافت وهو يقول :
- هو من رجال الأستاذ عبدالودود الأفندى ، وهو الذى زوجه من سامية .
- وما صلة الأفندى بسامية ؟
- كان فى يوم ما شغوفا بها ، ولما شبع منها تركها للمساكين من أمثالنا !

- يعنى زوجها عرفها بعد أن هجرها الأفندى ؟
- زوجها اقترن بها منذ أول يوم عرفها فيه الأفندى لتكون المسائل قانونية .. ولا تنس اننا نعيش فى عصر سيادة القانون !

عدت للنظر من ثقب المفتاح ، رايت الرجل يخرج وسامية تغلق وراءه الباب ، وقالت وهى تهل علينا بابتسامتها الساحرة :
- هل سمعتم ؟
- مـــاذا ؟
- عبدالودود اشترى قصر توفيق بك !
- دهشت للخبر .. نظرت الى هشام فاذا به يشد الأنفاس بلا مبالاة ، تساءلت :
- لماذا باعه ؟
- يقال ان الديون تراكمت عليه .
- وهل يقيم الأفندى الآن فى القصر ؟
- كلا .. سيقيم فيه توفيق بك حتى نهاية السنة .

هل الجازية حزينة الآن لتردى أوضاع زوجها المالية ؟.. مالى أنا وللجازية حتى أشغل نفسى بها .. عما قريب تأتى شوشو وتنتهى الجازية بالنسبة لى الى الأبد .

جذبت سامية مبسم النارجيلة من هشام قائلة :
- دعنى أعمر راسى !



سمعنا طلقات نارية وزغاريد اختلطت بصياح الصغار وهم يركضون فى الدروب فرحين ، وما لبث ان جاء الخبر :
- توفيق بك والجازية جاءوا لزيارة النجع .

ترامقنا انا وأمى فى صمت ، وجاءت عمتى فاطمة الغنامة ، وقفت قبالتنا وقالت وهى تلملم عباءتها :
- لا يكون عندكم جنس فكر ، عامر طلقها بمزاجه ويقدر يتزوج أحسن منها .

جلست تجاملنا وتتحدث عن رجال النجع الذين لم يعودوا رجالا ، حيث ان كثيرين ذهبوا يرحبون بتوفيق بك ، وتحدثت عن زوايدة بلدنا الذين خفوا لاستقباله على اعتبار انه ابن قبيلتهم ، وجاءت زوجة عمي عرابي ، قالت ان عرابيْ كان ممزقاً ، الواجب يحتم عليه أن يستقبل توفيق بك ، لكنه لم يستطع فلزم بيته ، وجاءت عمتى راضية زوجة حافظ وجاملتنا بكلمات رقيقة وقالت :

- حافظ قال لو الأمر أمرى ، أطردهم من النجع ، لكن اليد قصيرة ، وهو قاعد فى البيت الآن ، شرب ثلاثين حجر معسل من الغلب .

وبكت أمي وراحت تردد "عمود بيتى والعمود اتهد" وسمعنا طرقاً على الباب ، خرجت الى الفناء فدخل أولاد عمي بشير وجعفر الباجس وسليمان ابن رزق وجاء ابن خالى محروس ، واضح انهم جاءوا يشدون من أزرنا ، وجلسنا فى المدخل وكانت أصوات الدفوف والزغاريد تتناهى الينا كأنها فوق رءوسنا ، وسمعنا ضحكات عمتى راضية فى الداخل فصاح بها جعفر الباجس :

- ياعمة راضية ..
- أى والله ياسيد عمتك ؟
- الحقينا بكلمتين من كلامك الزين .

جاءت عمتى راضية تلتف بملاءتها التاريخية ، قالت تصوَّر والد ووالدة الجازية بطريقة كاريكاتورية :

- حضرة جناب عبدالمعبود بك كان مشغولا فى برم شنبه كأنه سبع "البرمبة" وحضرة جناب الست الكبيرة أم الست الجازية كانت تجلس مثل ملكة العجم التى زارت معبد كوم أمبو فى السنوات الماضية وأتلفت طماطم الشيخ عبدالواحد وولده جعفر ، حضرة جنابها نسيت أكل "البتاو" وتتكلم الآن عن نوع من الطعام لم أسمع به من قبل يسمونه "الجاتوه" .. قل لى يابشير ، هل الجاتوه هذا يؤكل ؟!

ضحكنا طويلا واستمرت عمتى راضية فى حكاياتها التى غطت - فى داخلى على الأقل - على أصوات الطبول والدفوف ، لكن .. كيف رأت عمتى

راضية كل هذا مع أنها تزعم أنها من الفريق الذى قاطعهم ؟!.. هل ذهبت لمجاملتهم وعادت بسرعة لتحتفظ بحقها فى أكلة جيدة هى محرومة منها أساسا ؟!

★ ★ ★

سرنا فى الطريق العام الذى سفلتوه دون مساس ببيوتنا ، أنا وابن خالى محروس ، الذى سألنى :

- لماذا تطيل المكوث فى البلد هذه الأيام ؟
- قالوا لى فى الشركة أن أعمل لساعتين فقط .
- حظك ياعم .. فلوس كثيرة وعمل مريح .

هو لا يعرف أننى أصبحت فقيرا الآن بعد الانخفاض الحاد فى مرتبى .. التقينا بابن عمى بشير الزنديق فى طريقه الى أحد النجوع ، سار معنا قليلا ثم فارقنا .. أشار اليه محروس وقال :

- هذا الولد غريب الأطوار .. يشغل نفسه بالدفاع عن القضايا التى يسميها عامة بينما خطيبته ستتزوج من الغباشى .

ازعجنى قوله ، تساءلت : من قال هذا ؟

- اتفق أبوها مع عبدالمجيد على أن يزوجها له ، اذا طلق الغباشى زوجته !

- لا أصدق .
- أنت حر ، لكن أنا عندى أخبار مؤكدة ان الناعسة لانت !
- لانت ؟!
- الفلوس تجعل الحديد يلين .

ضايقنى هذا فلذت بعالمى الداخلى .. كل شىء جائز فى هذا الزمن ، وإلا من كان يصدق ان الجارية تتزوج من رجل فى سن أبيها ؟.. ثم لماذا تشغل نفسك بغيرك وانت مطالب بحزم أمرك فى شأن شوشو ؟.. يجب أن تخطبها من خالها فى أقرب فرصة ، لكن أين هى الآن ؟.. هل انشقت الأرض وابتلعتها ؟

دخلت على خالى فوجدته يضع راسه بين كفيه متربعاً على سرير من الحبال فى صحن الدار ، عليه قميص ابيض متسع الياقة وامامه مائدة صغيرة عليها صينية شاى وعلبة الأفيون .. سأله محروس : مالك يابوى ؟

رفع راسه وقال :

ـ هذا المسمى بتوفيق بك .

ـ مالـه ؟

ـ تراجع فى كلامه .. يريد تسليمى قيراطا واحدا على أن أوقع له بالتنازل عن بقية القراريط ، وحين رفضت ، قال للرجل الذى يتوسط بيننا ، أمامه المحكمة .. بعد لحظة صمت قال محروس : خذ منه القيراط يابوى .

ـ لا ..

ـ خذه واعطنى إياه !

ـ لماذا ؟

ـ أبيعه وأبحث عن بنت الحلال !

حدق فيه أبوه بدهشة ، ولم أكن بأقل دهشة من خالى ، فاستطرد محروس موضحا : سأفسخ الخطبة الجديدة .. اتضح لى أن العروس ليست بالجمال الذى كنت أبحث عنه !

تنهد خالى بصوت مسموع وقال : العوض على الله فى المال والولد .

ثم وضع قطعة الأفيون فى فمه وسبح فى عالمه .

وقال موسى يقرأ لجده أمام المضيفة :

"وقف يرقب الصناع يعملون فى انشاء قصره الجديد وفوجىء بأبى زر الغفارى يقف الى جواره متطلعاً الى القصر فجفل ثم تضاحك وسأله :

ـ هل تراه حسناً ؟

ـ ان كان من مالك فهو الاسراف ، وان كان من مال المسلمين ، فهى الخيانة " .

★ ★ ★

ضجة فى الشارع الهادىء أخرجتنى ومعى عدد من موظفى الشركة

يتقدمنا رئيس الحسابات السيد عبدالسلام .. وقفت أمامنا ثلاث سيارات مارسيدس هبط منها توفيق بك وشقيقه النائب طوسون وعدد من أقاربهم ، بعضهم بالملابس الأوربية وبعضهم بجلاليب ذات نسيج فاخر .. خف عبدالودود الأفندى لاستقبالهم .. ينحنى بقامته النحيلة ويعتدل ويبتسم ويتضاحك ويقول جملاً غير مفيدة يضحك فى نهاياتها بلا سبب ، وجلسوا على المقاعد الجلدية ، جاءوا لهم بالقهوة وعصير الليمون ، ووصل عدد من كبار تجار البندر ، على رأسهم عبده الهوارى صاحب محلات المانيفاتورة فى كثير من مدن المحافظة ، وبشير الغنيمى صاحب محلات المواد الغذائية بالجملة ، كانوا يسمونه ملك البقالة ، الآن يقولون ملك السوبر ماركت !

رآنى توفيق بك وقال بلهجة ودود :

- سلامات ياأستاذ عامر ؟
- أهلا وسهلا .

دخلت مكتب الحسابات الذى أعمل فيه الآن ، قال السيد عبدالسلام يرد على استفسارات مرعوسيه :

- آل الزعيم يشاركون بعض التجار ، لكن بدون رأس مال !
- ولماذا يرضى التجار ؟
- اسم الأسرة الكبير ، يذلل أى عقبة مع المسئولين .
- ولماذا لا يعملون لحسابهم ؟
- قلبك أبيض !.. آل الزعيم يبيعون أملاكهم الآن للمحافظة على المظهر ، ويعيشون - أو يتعيشون - على اسم الأسرة القديم ، لكن الوزن المالى الحقيقى ، انتقل الى أمثال هذا العبد الودود الأفندى .
- لكن الأستاذ عبدالودود يعاملهم وكأنه يعمل عندهم .
- أسياده !.. هم الذين رفعوه بعد ان اكتشفوا انه من أمهر الخدم .. أى والله .. اسألونى أنا !

ثم استطال عنقه الرفيع حين أخذ يتلفت حوله فى ذعر ، فبدا برأسه الصغير الأصلع كالسحلية تطل من جحرها فى توجس ، قال بلهجة رجاء :

ـ نقل الكلام عيب !.. يخربوا بيتى لو عرفوا بكلامى !

ثم فجأة اتكأ الى الوراء وقال بثقة وهو يغضن مابين حاجبيه :
ـ لا يهمنى .. تحت يدى مستندات خطيرة تجعل من يريد ايذائى ، يركع !

اذن أنا أعمل عند توفيق بك دون أن أدرى .. عليك أن تقدم استقالتك فورا .. أجل .. لا كرامة لك ان لم تفعل .. الجارية وأبوها وأمها يضحكون منك فى سرهم ويقولون هو موظف عندنا .. الله الله .

تناولت ورقة وكتبت : "الأستاذ عبدالودود أحمد الافندى .. تحية طيبة .. لما كانت والدتى فى حاجة الى وجودى بجوارها الآن ، نظرا للظروف التى تمر بها بعد وفاة والدى وأخى ، فاننى أطلب قبول استقالتى وشكرا" .

لكن وشوشو ؟.. كيف التقى بها اذا أغضبت خالها بهذه الاستقالة ؟

وأنا أمزق ورقة الاستقالة سمعت السيد عبدالسلام يقول لمن حوله :
ـ ليت أسرة آل الزعيم هى صاحبة هذه الشركة .. على الأقل كنا شعرنا بقيمتنا لأننا نعمل عند البكوات والباشوات !.. لكن انظروا الى هذا العبد الودود الأفندى الذى أصبح يملك أكثر مما يملك جميع آل الزعيم .. كيف أقول اننى اعمل عند سائس سابق ؟!

تذكرت مناقشة دارت بين ابن عمى بشير الزنديق وبين بنت عمى الناعسة من أن طبقة الباشوات القديمة لم تكن تحس بوجود الفقراء حيث تعتقد انها مخلوقة من طينة مختلفة مستوردة من الخارج ، لكنها كانت تشجع الآداب والفنون وتسهم بأموالها فى تقدم العلوم ، فى حين ان الطبقة الانفتاحية الجديدة شبه أمية لا تعرف غير اللذات الحسية فضلاً عن احتقارها للفقراء كرد فعل للتنصل من الماضى .

تعالت الضحكات والسيد عبدالسلام يقول :
ـ آل الزعيم يهدمون أنفسهم بأيديهم .. أجدادهم خلفوا لهم أموالا طائلة ، لكن لن يمضى عليهم جيل آخر إلا ويكونوا موظفين عند أمثال

عبدالودود الأفندى .

تذكرت ما قاله ذات مرة ابن عمى بشير الزنديق عن رجل من علماء العرب القدامى ، أعتقد ان اسمه ابن خلدون أو شىء من هذا القبيل ، ان العائلات الكبيرة ـ بما فيها المالكة ـ تنتهى عند الجيل الرابع ، حيث ان الجيل الأول يؤسس ، والثانى يحافظ ، والثالث يهمل ، والرابع يضيع .

استطرد السيد عبدالسلام وهو يتحسس صلعته :

ـ طوسون بك يرافق فى القاهرة ممثلة اعلانات تليفزيون أجنبية ، باع من أجلها مساحات كبيرة من أرضه ، وتوفيق بك تزوج من مدرُسة درجة ثانية ويقال ان نفقات عرسها هى التى وراء بيع القصر !

دق قلبى بعنف وأنا أختلس النظر للوجوه علّ أحدها ينظر ناحيتى كزوج سابق للمدرسة "الدرجة الثانية" ولما لم يحدث هذا ، هدأت نفسى قليلا ، وان كان جسدى قد سرت فيه رعشة ..

تضاحكوا حول السيد عبدالسلام الذى أردف :

ـ بلغنى انه غير سعيد معها حيث انها صغيرة السن ، ممتلئة بالحياة ، فى حين يلهث هو كحصان البوليس العجوز الذى ينتظر ضرب النار ، ويقال انها طلبت الطلاق !

دارت الدنيا بى فى حين تعالت الضحكات ، واذا بالأستاذ عبدالودود الأفندى يقف فى مدخل الحجرة وينهر عبدالسلام :

ـ فتحتها قهوة يامغفل ؟!

عم الوجوم فتمتم عبدالسلام فى لعثمة :

ـ آسف ياسعادة البك .



- ١١ -

الأرض مكشوفة بعد أن أزيلت عنها الأذرة الرفيعة ، الفصول تتوالى دون خبر عن شوشو ..

الأعمام وأولاد الأعمام متناثرون فى الحقول ، يغيرون مرابط البقر والأغنام لتنظف الأرض من الأعشاب الضارة ، تمهيداً لزراعة القمح ، ولا أعرف كيف أعثر على شوشو ؟

الناعسة تجلس تحت العريشة التى تتوسط حقل أبيها ، بجوارها سعدية بنت حافظ حولها بضع بنات من النجع ، وعلى مبعدة جلس بشير الزنديق مع شقيقه قاسم بجوار الشونة التى يخزن فيها الغباشى بعضا من بضائعه التموينية .. بشير يلتفت الى الشرق وقاسم ينظر الى الغرب ، كلاهما أعطى ظهره للآخر ، ولا يبدو أن حديثاً ما يدور بينهما ..

عمى الشيخ يوسف يمسك بمقود بقرة يمشى بها فوق الجسر وكأنه يرى ما حوله ، وحفيده موسى يسير خلف البقرة يضربها برحمة كلما حاولت التلكؤ ..

أغنام عمتى فاطمة الغنامة تغطى مساحة واسعة ، وولداها يرقبان فى يقظة ، يُعيدان الحملان الى أمهاتها كلما حاولت التوغل فى الحقول التى مازالت مخضرة .

- سلام عليكم ..

أهلا يابشير ..

وضع الصحيفة والكتاب وبضع مجلات على الأرض المعشوشبة ، ولملم جلبابه الأبيض وجلس :
- ما أخبارك مع عمك دسوقى ؟

لا داعى للحديث عن انخفاض المرتب وتغير المعاملة :
- من أحسن ما تكون !
- أنا اتعجب والله ، كيف تطيق الاختلاط بهذا الرجل ؟
- هو عمنا على كل حال .
- أنا لا ارتاح له .. فهو من النوع الذى يبتسم لمن حوله فى كل الأحوال دون أن تعرف ما يدور بداخله .
- لله فى خلقه شئون .
- الأعمام يقولون انه لم يكن يخالطهم ، فاضطر الى ذلك ليحمى نفسه من مضايقات المزارعين جيرانه .. نفس تفكير الطبقة التى وصفها "فلوبير" بأنها تفكر فى حقارة !

هل أسأله عن الرجل الذى ذكره ، أم اتظاهر بأننى أعرفه ؟
- فعلا ، صدق "فولتير" فيما قال .
- فلوبير وليس فولتير !

ملعون أبوك وأبوه !
- مضبوط ، فلوبير !

الناعسة تدير عنقها ناحيتنا ، يبدو انها تفكر فى المجىء للجلوس معنا ، والشائعات تملأ النجع بأن الغباشى كسب الجولة ، قال بشير :
- بدأت أجرب حظى فى الحياة الأدبية ..
- مـاذا ؟

تناول مجلة لم أسمع بها من قبل اسمها "الآداب" فتحها وهو يتساءل :
- هل أسمعك آخر قصيدة نشرتها ؟

لمحت اسمه مكتوبا فى أعلى الصفحة ، مضى يقرأ فلم افهم حرفاً مما قال ، سألته :

ـ أهذا شعر ؟!
ـ شعر حديث .
ـ أين القافية ؟
ـ لا توجد قوافٍ فى الشعر الحديث .
ـ بصراحة لم افهم شيئاً ، كنت اتمنى لو سمعت شعرا حقيقيا يشبه الذى كان مقررا علينا !

طوى المجلة وهو يبتسم دون أن يعلق .

موجة من الحمام ، حامت فوق النيل ثم عادت لتحط فى الحقول ، وأسراب العصافير تملأ الفضاء وهامات النخيل ، زقزقة تعبر عن فرحة الحياة ، لكن شوشو طال غيابها اكثر مما يجب .

امتطى ابن عمى قاسم حماره واتجه الى النجع ، الحمار قوى مرفوع الرأس كالجواد ، من النوع الذى يركبه الأعيان ، اشتراه منذ شهر فقط ، تحسنت أحوال قاسم المالية مثل شقيق أبى حجازى ..

أقبلت الناعسة .. جلبابها الفضفاض أعطاها رونقا ، وضفيرتها السوداء اللامعة ، تمردت على الخمار الأبيض الملفوف على راسها ، وانسدلت على كتفها من الأمام ، وقال بشير مهللا بلهجة مرحة :
ـ ثلاث أهلنات ، وأربع سهلنات !

اهتز عودها اللدن وهى تجيبه ضاحكة :
ـ والثعلب فات ، فات !

جلست بجوارنا وصوت أم كلثوم يتناهى الينا من عريشة عمى عبدالواحد والد جعفر الباجس :
"معللتى بالوصل والموت دونه .. إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر" .

قال بشير يخاطبنى وان كان فى الحقيقة يخاطب الناعسة :
ـ عارف ياعامر .. مع ان بيت أبى فراس هذا ينضح بالأنانية ، وشتان ما بينه وبين بيت أبى العلاء المعرى :
"فلا هطلت علىَّ ولا بأرضى .. سحائب ليس تنتظم العبادا" .

إلا أننى أحبه الآن لأنه يعبر عن حالتى ، فالحب بطبيعته أنانى .

ابتسمت الناعسة دون أن تقول شيئا ، تحت عينيها تجاعيد خفيفة تشى بقلة النوم ، يخيل اليَّ أنها ازدادت نحولا مثل بشير ، جاء ابن عمى جعفر الباجس ، عليه صديرى على اللحم فوق السروال أظهر عضلاته الفولاذية ، وجهه الأسمر المستدير يعبر عن السعادة ، على رأسه طاقية ضاع لونها الأصلى ، ظهرت على حوافها خصلات من شعره المفلفل ، فى يده جهاز راديو يعمل بالبطارية ، قال باسما :

ـ عندى أوامر من عمى الشيخ عبدالرحمن أن أبلغه اذا جلس بشير بجوار الناعسة ..

حين لم يبتسم أحد ، ظهر عليه الخجل ، قال فى لعثمة :

ـ أنا فرحان لأن عمى عرابى أصلح مابين عمى حجازى وعمى حافظ .

ـ متـــى ؟

ـ أمس .. أرغم عمى حجازى أن يقبل رأس عمى حافظ ، ثم اصطلحا بعد ممانعة استغرقت شهرين .

بقرتنا المبرقشة تشارك فى اجتثاث الحشائش الضارة ، بدت فى هيكلها العريض كأنها ملكة البقر ، تشاركها فى مهمتها ابنتها ذات الحمرة الغامقة ، أوصى على شرائها ابن عمى سليمان ، بطل أكتوبر ، ما يحزننى أن كلبينا اختفيا ، ثمة شائعة بأن شقيق أبى حجازى شنقهما ليلا ودفن جثتيهما بعد أن ربى كلاباً جديدة أكثر طاعة له .. ذات مرة ضرب أحدهم كلبا منهما بعصا غليظة وهو راقد ، كاد المرحوم زاهر يقتله .. ماذا يقول الآن فى قبره وقد قتلت كلابه ؟..

ثم شراع أبيض ظهر لنا نصفه الأعلى ولم نر المركب لانخفاض مستوى النهر ، بدا منظر الشراع وهو يظهر ويختفى خلال أشجار السنط ، كأنه جناح لطائر خرافى يشق الأرض ..

فريد الأطرش يغنى الآن "الحياة حلوة" .. خاطبه ابن عمى جعفر الباجس :

ـ أحمل الفأس وتعالَ اكحت معنا فى الأرض ، لتعرف ان كانت حلوة أم

هى مثل القطران !

★ ★ ★

عند ساحة المناصير ، رايت طابورا من الصبيان والبنات يحملون أجزاء من دولاب وموائد صغيرة ومقاعد خيزران وأطباقا من الخوص وحُصرا ملونة وأسرَّة حبال وصُرَر ملابس واوانى نحاسية وأشياء أخرى مشابهة ، يخرجون من بيت ابن عمى عبدالمجيد الغباشى ، تساءلت : ماهذا ؟

ـ عبدالمجيد الغباشى طلق زوجته ..

ظهرت بنت عمى زينب ، زوجة الغباشى ، ومعها أمها عمتى خديجة ، كانت زينب تطأطىء راسها وقد بدا عليها الأعياء وهى تتعثر فى ثوبها الأسود الطويل فى حين مضت أمها تقول كأنها تخاطب نفسها بصوت عال :

ـ الناعسة اشترطت عليه يطلق بنتى .. ماذا تنتظرون من واحدة تخالط الرجال دون أن تغطى شعرها وتذهب الى البندر فى أى وقت يعجبها وتسافر بالقطار بمفردها بحجة انها موظفة ؟!.. هل تعتقدون انها مازالت بكراً ؟!.. كل الناس تقول ان بشير الزنديق الكافى يقضى معها الليالى الطويلة فى بيوت البندر المعروفة بفسادها ، وبنتى ضاعت لأنها شريفة بنت شريفة ، وليست مثل مرزوقة التى انجبت ولدها من الحرام !

حين مررت بالمضيفة ، سمعت موسى يقرأ لعمى الشيخ يوسف :

"أيها القوم ، ألا تقبلون منه خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟.. دعوتموه حتى اذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه ، وأخذتم بكظمه ، وأحطتم به من كل جانب ، فمنعتموه التوجه الى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح فى أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضراً ، وحلتم بينه وبين نسائه وصبيانه وأصحابه وبين ماء الفرات الجارى الذى تتمرغ فيه خنازير المجوس وكلابهم ، وتركتم أهله قد صرعهم العطش لا سقاكم الله يوم الظمأ ؟.. عندئذ زحفت

نحوه رجالهم من حَمَلَة الرماح" .

أمى وجمع من العمات يجلسن على الحصر المفروشة على الأرض باستثناء عمتى فاطمة الغنامة التى جلست ـ بوجهها الصبوح ـ على سرير حبال وحدها ، وثوبها الفضفاض ـ القديم والنظيف ـ يعطيها ، مع امتلاء جسدها ـ منظراً فخماً كأنها ملكة العمات .. قالت :
ـ عبدالمجيد الغباشى افترى على نعمة ربه ، لو طاف بلاد المسلمين والنصارى لن يجد واحدة مثل زينب .. أنجبت له أربعة أولاد ليس فيهن بنت واحدة !

لكن أمى لم تستطع أن تجيبها لدخول عمتى مرزوقة ، والدة الغباشى ، التى سمعت طرف الكلام فتمتمت : كل شىء قسمة ونصيب .

دخلت عمتى راضية ووجها النحيل المبتهج يشى بأن فى جعبتها سيلاً من الأخبار عن طلاق بنت عمى زينب ، لكن ملامحها تحولت الى العبوس حين وقع بصرها على عمتى مرزوقة فقالت مترددة ، بعد أن غيرت موضوع النشرة : عبدالمعبود وزوجته فى البلد .

لوحت عمتى مرزوقة بيدها وهى تجلس على الحصيرة وتستند بكوعها على طرف السرير الذى تجلس عليه عمتى الغنامة : سمعنا .

ظهر الضيق على وجه عمتى راضية فاستطردت بصوت خافت :
ـ يريد بيع أرضه الجديدة فى البندر واستعادة أرضه القديمة من "الشيخ" عبدالمجيد .

كشرت عمتى مرزوقة عن أنيابها : بعيد عن شنبه !

خلعت عمتى راضية ملاءتها ووضعتها فى حجرها بعد أن جلست على الحصيرة بجوار أمى وقد بدا عليها القهر لافساد عمتى مرزوقة نشرة أخبارها فقالت متنهدة :
ـ بعض الناس يقولون كلاما كثيرا الله أعلم بحقيقته .
ـ أى كـلام ؟
ـ يقولون الجازية طلقوها ..

كأنما طارت حمامة مذعورة من صدرى : سألتها وأنا الهث :
- من قال لك ؟
- التى أخبرتنى طلبت أن أكتم اسمها .
- طلقوها فعلا ؟
- من شهرين ..
- من شهرين ولا نسمع ؟

لم تجب ، وإن كان الابتهاج قد عاد الى وجهها وهى ترى الأعناق تستدير ناحيتها ، لكن عمتى مرزوقة قالت :
- أنا عارفه السبب ..
- تحولت اليها الأنظار فاستطردت :
- عبدالمعبود لم يكن يعطى أمه نفقات فى أخر أيامها فدخلت مقام ولى الله الشيخ ادريس ودعت عليه أن يركبه الشقاء هو وذريته ، فقبلت الدعوة !

وبرغم اقتناع عمتى راضية بقولها هذا إلا أن الضيق ظهر على وجهها فانفعلت تخاطب عمتى مرزوقة :
- لما الواحدة تتكلم ، واجب على الناس تقفل خشومها !
- أنا أقفل خشمى ؟

نطقت عمتى مرزوقة تساؤلها وتحفزت للقتال ، لكنها هدأت حين رأت بنت عمى الناعسة تدخل علينا فقالت لها :
- تعالى جنبى ياحبيبة أمتع نظرى بوجهك الحلو بدل الوجوه العكرة !

قبل أن تجلس الناعسة وجدتنى أقول لها :
- أنت صديقة الجازية وعندك الخبر الأكيد ، صحيح طلقوها ؟

تطلعت الينا بعينيها العسليتين وغيرت مجرى الحديث :
- المشكلة الآن فى عمى عبدالمعبود ، يريد استعادة أرضه التى فى البلد ولا يعرف كيف يستردها ..

قالت لها عمتى مرزوقة وهى تبتسم فى وجهها :

ـ خطيبك اشتراها بماله ويزرعها .. من قال الأرض المباعة تُرَدّ ؟

وقعت كلمة "خطيبك" فى أذنى موقعا غريبا .. نظرت الى الناعسة فلم أر على وجهها استنكاراً، لكن رايت سلسلة ذهبية عريضة تتدلى على صدرها لم أرها عليها من قبل ، وسألتها أمى :

ـ هل صحيح خبر الجازية ؟

ترددت الناعسة قبل أن تقول : الله أعلم .

ـ لكنك صديقتها وتزورينها كثيرا ..

ـ لم أرها من ثلاثة شهور ..

ثم غيرت مجرى الحديث :

ـ عمى عبدالمعبود سيموت من القهر اذا لم يستعد أرضه الأولى ..

أجابتها عمتى مرزوقة :

ـ اذا لم يجد موتى سبقوه الى المقابر ، فليرجع !

كانت عمتى راضية فى قمة الغيظ لانشغال الجميع عنها ، تناولت ملاءتها واندفعت الى الخارج مزمجرة :

ـ لو جئتكم بأخبار جديدة ، استاهل ضرب المركوب !

★ ★ ★

وجدت عمى عرابى فى بيته يجلس على سرير حبال وأمامه كومة من المستندات يقرأ فيها ، قلت :

ـ ما معلوماتك عن عودة عبدالمعبود ؟

ظل يحدق فى وجهى لفترة قبل أن يقول :

ـ لما سمعت ذهبت لزيارته فوجدته يرقد على الفراش وجسده يرتعش بسبب السخونة ، حاولت أعرف منه ما حدث ، لكن الرجل ، فيما يظهر ، يحس بالقهر ولا يريد أن يبوح بأسراره ، لكننى فهمت انهم أعطوه أرضاً ملحة غير صالحة للزراعة ، وبعد أن حاول زرعها اكثر من مرة ، اضطر الى عرضها للبيع بالخسارة ، والآن يريد استعادة أرضه القديمة لكن الغباشى

يرفض ، والصراحة أنا أشفقت على عبدالمعبود رغم أننى لا أحبه أصلاً ، فمنظره يجعل قلب الصخر يلين .

– هل صحيح الجازية طلقوها ؟

تردد عمى عرابى ، كمن فوجىء بالسؤال ، قبل أن يقول :

– الحقيقة أنا لم أسأله عن هذه (المسعله) فقط قلت له كيف حال الأستاذة جازية ياشيخ عبدالمعبود ، فلم يرد ، لكن زوجته تنهدت وقالت "لولا الخوف من شماتة الأعداء" .. ولم تكمل بقية كلامها .

– يعنى طلقوها ؟

أجاب بلهجة من يخفى شيئا :

– الكداب ملعون ، أنا غير متوكد من هذه (المسعله) لكن بانت لى علامات من كلام عبدالمعبود وكلام زوجته ، ان الجازية غير مرتاحة ، أو ربما هى تعيش فى بيت غير البيت الذى يقيم فيه توفيق بك ، أو ربما هو طلقها لكن خجلها من العودة الى البلد ، وخجله هو أيضا من الموضوع ، جعلاهما يتفقان على أن تعيش فى البيت الذى أعطاه لأبيها وأمها فى البندر ، مع استعداده للانفاق عليها لغاية ما يعدلها ربنا .

– خجلها هى وعرفناه ، فما سبب خجله هو ؟

صمت عمى عرابى طويلا قبل أن يجيب :

– يبدو ان الرجل كبر فى السن ولا مقدرة له على بنت شابة مثل الجازية ، فلما طلبت الطلاق ، رفض ، ثم اتفقا على أن تعيش فى كوم امبو لفترة بدل كلام الناس .

– يعنى هى التى طلبت الطلاق ؟

– الله هو العليم .. كل هذه اشاعات الواحد لا يقدر يحكم فيها ، لكن العلامات التى ظهرت لى من حديثى مع عبدالمعبود ، كانها طلبت الطلاق وربما يكون طلقها أو اتفقا على أن يعيش كل واحد بعيداً عن الآخر ، وسمعت من يقول انه قرر تزويجها لواحد من أقاربه !

– وهى رضيت أن يزوجوها لأى واحد ؟

– ربما خجلها من العودة الى النجع مهزومة ، جعلها توافق على هذا

الحل ، يعنى مثل الذى يكره حياته ويرمى نفسه فى بحر النيل ، ماذا تسمون من يفعل هذا ؟.. انتحر ؟.. تقدر تقول انها قررت الانتحار !.

لماذا أشغل نفسى بالجازية ؟.. لتذهب الى حالها ولأسر أنا فى طريقى ، لكن يجب خطبة شوشو من خالها للتخلص من تأثير بنت عبدالمعبود .. تناهى الى مسمعى صوت موسى يقرأ لجده :

خطب على بن ابى طالب فى آخر أيامه فقال :

ـ دعوتكم الى حرب هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، سراً وإعلاناً ، قلت أغزوهم قبل أن يغزوكم ، فما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا ، تخاذلتم وثقل عليكم قولى حتى شنت عليكم الغارات ، عجباً من تضافر القوم على باطلهم ، وفشلكم فى حقكم ، ترمون ولا ترمون ، ويغار عليكم ولا تغيرون ، اذا قلت هيا نغزوهم فى الشتاء ، قلتم هذا أوان قر وصر ، وإن قلت نغزوهم فى الصيف ، قلتم امهلنا حتى ينصرم عنا الحر ، فراراً من الحر والفر ، بل أنتم من السيف أفر ، ياأشباه الرجال ولا رجال ، ياطغام الأحلام وعقول ربات الحجال .

★ ★ ★

الحمير تزحم شارع السوق .. عليها مقاطف الخضراوات وشباك البصل الأخضر وأجولة الحبوب ، اليوم يوم السوق ، اختلطت الحمير بأحمالها مع السابلة والسيارات الخاصة والشاحنات وعربات الكارو ، هل تتزوج الناعسة من الغباشى كما تزوجت الجازية من توفيق بك ؟.. هل جاءت شوشو من مصر وأنا لا أدرى ؟.. ربما حاولت الاتصال بى وفشلت .. هل يوافق خالها على زواجى منها بعد انخفاض مرتبى ؟

يجلس خلف مكتبه ، أمامه أحد موظفيه يقدم اليه أوراقاً باحترام مبالغ فيه :

ـ صباح الخير ياأستاذ عبدالودود ..

لم يجب .. خاطب الموظف بلهجة آمرة : ارسل اليه برقية قل له اشحن فوراً .

مضيت أعمل فى حجرة داخلية فى عمل روتينى ممل بجوار السيد عبدالسلام الذى كان ينفخ لسبب لا أدريه .. كل شىء تغير حولك ، حتى عمك الأستاذ دسوقى أصبح يلقاك بفتور ولولا حرارة لقاء هشام ووالدته لما وجدت رغبة فى دخول بيته .. هاهو عبدالودود الأفندى يجلس وحده فاحسم أمرك معه وإلا انفجرت مرارتك :

- أكلم سيادتك فى موضوع مهم ياأستاذ عبدالودود .
- أى موضـوع ؟

ماهذا الوجه البارد الذى تلقانى به ؟.. أين تلك الابتسامات والترحيبات وحرارة المودة ؟

- طالب القرب منك فى ابنة أخت سيادتك .
- ابنة أختى ؟

لماذا جحظت عيناك هكذا ؟

- شوشو .. الآنسة شوشو .
- شوشو من ؟
- الآنسة المحترمة التى كنت التقى بها فى بيت سيادتك .
- أنت كنت تلتقى بابنة أخت لى اسمها شوشو ؟!

هل الرجل يمكر بك أم أنك كنت واهماً ولم تلتق بها أصلاً ؟!

- أعنى الآنسة التى كانت تقدم لى أكواب العصير فى اللحظات التى كنت فيها سيادتك تنهى بعض شئونك الخاصة فى حجرة المكتب .

تراجع بظهره الى الوراء متكئاً على المقعد وارتفع حاجباه وقال بلهجة من تذكر :

- آه .. انت قصدك البنت شوقية التى كانت تأتى لمساعدة أمها !
- أمــهــا ؟!
- أمها كانت تأتى لتطبخ لنا .. انها ابنة الطباخة !
- مستحيل أن تكون ابنة الطباخة .. شوشو طالبة فى المعهد التجارى ..
- طالبــة ؟

- أعنى قبل أن يفصلوها بسبب تزعمها لمظاهرة معهدها ضد الشاهبانو ..

- طالبة ؟.. مظاهرات ؟.. شاهبانو ؟

ثم أطلق ضحكة ساخرة وقال :

- يجوز .. نحن فى زمن كل أبناء الرعاع يلتحقون فيه بالمدارس ، ويشتركون فى المظاهرات أيضا !

وأنت ؟.. من أى طبقة ياترى ؟!

- أين هى ياأستاذ ؟

- سافرت هى وأمها الى بلدهم الأصلى .

- ما اسم بلدهم ؟

- لا أعرف .. هؤلاء الناس يتنقلون بين المراكز ولا يستقرون فى مكان .. لكن لماذا تضيع وقتى فى هذه المواضيع ؟.. انتبه لعملك !

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى .. عدواً له مامن صداقته بد .

من قال هذا ؟.. غير مهم .. هل هذا العبد الودود الأفندى يقول الحق عن شوشو ، أم أن فى الأمر سراً ؟.. كيف تعرف الحقيقة ؟

- هل تعرف واحدة اسمها شوقية ، ولقبها شوشو كانت تقيم فى بيت الأستاذ عبدالودود الأفندى ياحاج شعبان ؟

- لا ..

- ألم تسمع بها أبدا ؟

- كـــلا .

اليأس هو عدوك .. عليك أن تبحث عنها وتسأل كل من تعتقد أنه يعرفها ..

- اسمها شوقية محمد حسين ، كانت طالبة فى معهدكم .

- منذ فصلت ، انقطعت عنا أخبارها .

- هل يمكن أن أعرف بلدها الأصلى ؟

- الســويــس .

- كلا ، هى صعيدية ، وليست من السويس .

ـ انت حر !

البنت ذات الأنوثة المتفجرة اختفت .. فى كل مرة تذهب الى بيت هذا العبد الودود فلا تجدها .. هل كذبت عليك عندما قالت انها تزور أختها فى القاهرة ؟

ـ كانت تشترى الأشياء من جمعيتكم هنا ..
ـ كثيرات يشترين من هنا ، فلا يمكننا معرفة الجميع .

ان لم تعثر عليها فسوف يقضى عليك .

ـ اسمها شوقية ، وهى جميلة جدا ياعم عبدالراضى .
ـ هل تريد أن تحولنى الى قواد على آخر الزمن ؟!

إن إحساسى يقول لى اننا سنلتقى ، أجل ، وسنكتب قصتنا معا .

ـ لا أعرفها ، ثم ان الأستاذ عبدالودود يعرف الكثيرات من جميع الأعمار .
ـ لكنك تعرف الكثير عنه .
ـ هذا رجل غامض لا يمكن معرفة شىء عنه .. تصدق بالله اننى لا أعرف بيته حتى الآن ؟
ـ بيته بجوار القصور الجديدة ، شرق البندر .
ـ ذلك البيت الخاص ، أما البيت الذى تقيم فيه زوجته ، فلا أعرف عنه شيئا ، وأنا أراهن من يزعم انه يعرفه !

★ ★ ★

ماهذا ؟.. ما الذى جاء بهؤلاء الى هنا ؟..

عند المعادى ، التقيت بوفد من الأعمام ، يرتدون أحسن ثيابهم ويهبطون الى اللنش .. حوالى عشرة منهم عمى عرابى ، وعمى الشيخ رزق ، وعمى الأستاذ عبدالرحمن العطشان ، والد الناعسة ، وعمى عبدالمعبود ..

ـ أين كنتم ؟

انزعجوا حين وقعت أبصارهم علىّ :

- كنا فى عزاء ..

قالوها فى نفس واحد ونبرات أصواتهم تشى بدفاع أصحابها عن أنفسهم .. لو كانوا من صغار السن ، لظننت انهم كانوا فى مغامرة بالبندر ويخشون أن يعرف آباؤهم بها .. قال عمى عرابى موضحا :

- عمدة "إقليت" توفيت زوجته ، فعزيناه .. دنيا !
- ولماذا لم تخبرونى ؟
- انت مشغول فرأينا اعفاءك .

اجابة تدعو الى الشك .. جرت العادة ، منذ مات أبى ، أن أحل مكانه فى هذه الأمور ، أو على الأقل أعرف بخروج الوفد للتعزية ، فأين كنتم بالضبط ياترى ؟

نزلت معهم فى اللنش ، وعبرنا النيل دون أن يتحدثوا - كما هى العادة - عن أى شىء مما رأوه فى مضيفة عمدة "إقليت" .. واضح أن ثمة سراً لا تريدون منى أن أعرفه .. ماهو ؟.. ثم ما مصلحتهم فى اخفائه عنى ؟.. على كل حال عندى من الهموم ما يكفينى ، فلأنس الأمر كله .

★ ★ ★

- هى من بلدنا أصلاً ..
- وما الذى جعلها تمشى فى طريق الحرام ؟

أجاب المحامى ممدوح ، الذى يزور السيد عبدالسلام كثيراً :

- زوجها كان فى وظيفة (ملاحظ) فى احدى شركات المقاولات ..
- أين هو الآن ؟
- استشهد فى حرب الاستنزاف ..
- أنا لله وأنا اليه راجعون ..
- كنت ضابطا احتياطيا ورأيته بعينى يبث روح الوطنية فى العمال الذين كانوا يبنون دشم الصواريخ .. وكانت الطائرات الإسرائيلية تقوم بغارات مكثفة على الجبهة ويموت العشرات يوميا من هؤلاء العمال .. هذا الرجل كان يقودهم تحت القصف ويشحنهم بالحماسة فيتبعونه .. كان يمتلك موهبة الزعيم ومازالت نبرات صوته ترن فى أذنى ، وفى اليوم الذى

استشهد فيه ، أحسست بأن أبى هو الذى مات .. كلما تذكرته الآن ، أقول لنفسى : هذا هو "الوطنى" الحقيقى ، فأنا مضطر للوقوف على خط النار لأننى مجند اجبارياً ، فما الذى يجبره هو على مواجهة الموت ، مادام قادرا ، كمدنى ، على مغادرة الجبهة فى الوقت الذى يشاء ؟

- ياسبحان الله ..

- هل تتخيل انه نهر المسئول الكبير الذى زار الجبهة وخطب فى العمال واعداً إياهم بزيادة الأجور ، قال له كلامك هذا يجلب العار ، فاضطرب المسئول الكبير واخذ يتلعثم فى كلامه ؟

- ياعبدالسلام ..

هب عبدالسلام واقفاً حين سمع صوت عبدالودود الأفندى ، عدل من وضع سترته المتهدلة ، هرول فى اتجاه مكتب الأستاذ عبدالودود ، وانصرف المحامى ..

حين عاد عبدالسلام كان يزمجر :

- سفلة .. عملتم فيها سادة على آخر الزمن .. نسيتم حمل الروث من تحت خيل أسيادكم .. تحكمتم فينا .. كل أول وله آخر .. آخرتكم سوداء بإذن الله .

وكلام كثير آخر يشبه هذا ، يخاطب به نفسه وكأننى غير موجود بجواره ..

بعد فترة قال لى دون أن يرفع رأسه عن الأوراق أمامه :

- هل أقول لك على سر ؟.. هل تذكر اليوم الذى كان فيه هذا العبد الودود الأفندى مضطربا وسألتنى عن سر اضطرابه ؟

- أذكره ..

- أتدرى ما السبب ؟.. قتلوا احدى عشيقاته فى ذلك اليوم وكادوا يقتلونه معها .. هل تعرف من هى ؟.. انها زوجة الملاحظ الشهيد الذى كان يتحدث عنه الأستاذ ممدوح المحامى الآن ..

- لا قوة إلا بالله ..

- زوجها الجديد القواد ، أهداها له فصارت من عشيقاته .
- واأسفـاه ..

بصق على الأرض وقال :
- تفوووه .. السفلة يلوثون حتى الشرفاء ليصير جميع الناس على شاكلتهم فلا يعيرهم احد .

رن فى أذنى صوت العمدة وهو يقول إن خال الأولاد الثلاثة الذين زعموا ان "زاهر" شريكهم فى سرقة العجول ، تنازل عن حقه بمساعدة توفيق بك على أساس انه أخطأ فى اتهامهم .. هل العمدة يكذب بسبب خصومته لآل الزعيم ، أم أنه صادق وبذلك يكون زاهر قد ضاع بلا ثمن ؟

★ ★ ★

ما هذه الضجة ؟.. لماذ يهرول الصغار فى الدروب ويتصايحون ؟

خرجت لأجد الجميع يتجهون صوب بيت عمى عبدالرحمن العطشان .. فى صحن الدار جمع من الناس حول الناعسة التى كانت تتكلم وتبكى فبدا وجهها الصبوح مثيراً للاشفاق .

ابوها يجلس على سرير واضعاً راسه بين كفيه وحوله عدد من الأعمام واولاد الأعمام .. قال عمى عبدالحميد المأذون :
- انت غلطانة ياأستاذة .. هل يصح أن ترفضى كل من يتقدم لك بالزواج ؟

أجابته بصوت خالطه البكاء : هذه حياتى ياعمى ومن حقى أن أملكها ..

رفع أبوها رأسه وصاح : حياتك ، حياتك ، قلبت رءوسنا بحياتك ، الله يلعن الزمن الذى جئت لنا فيه !

قال شقيق أبى حجازى متهكماً : هذا كلام جديد علينا .. عشنا وشفنا البنات لها راى فى هذه المواضيع !

اجابته بنفس اللهجة الباكية : لست بالجاهلة ولابد أن اقرر مصيرى بنفسى .

ضرب ابوها كفاً بكف وقال يخاطب الواقفين :
ـ تريد أن تعيش بلا زواج ، هل سمعتم عن مثل هذه الحكاية ولا حتى في تمثيليات التليفزيون ؟

تدخل ابن عمي سليمان ابن رزق :
ـ الأستاذة من حقها تقبل أو ترفض ، والإنسان سيعيش مرة واحدة .

لمعت عينا الناعسة العسليتان وهي ترمق سليمان بامتنان ، لكن شقيق أبي حجازي ثار فجأة ودفعه في صدره قائلا :
ـ ومن الذي استشارك أنت ؟

اختل توازن سليمان حين انزلقت العكازة التي يستند اليها فتهاوى بطريقة انزعج لها الجميع بما فيهم حجازي .. سليمان من القوة بحيث لا يجرؤ حجازي على مثله لولا ساقه التي هزمت عزته .. سارعت أنا وعمي عرابي وابن عمي جعفر الباجس وانهضناه ، ومضى حجازي يعتذر وينفض له ثوبه ووضح الأسى على وجه سليمان المستطيل وترقرق الدمع في عينيه دون أن يسيل ، وداري عمي عرابي الموقف بسرعة حين وجه كلامه لعمي عبدالرحمن : فهمونا على "مسعلة" الأستاذة ناعسة ، من الذي تقدم لها ورفضته ؟

يبدو أن الإجابة صعبة على عمي عبدالرحمن ، فقد أعاد وضع رأسه بين كفيه ولوح شقيق أبي حجازي بذراعه في الهواء في احتجاج صامت وهو يتقدم نحو برج الحمام ويسند كفه عليه معطياً ظهره للجميع ، ونسى الواقفون سليمان حيث مضوا يحدقون في وجه عمي عبدالرحمن دون أن يتفوه أحد بكلمة .

أعاد عمي عرابي السؤال فلم يجب أحد .. تقدم عمي حافظ تارك الصلاة الى الامام ، جلس على أحد الأسرة ووضع ساقاً على ساق وأجاب بلهجة تهكمية وهو يبرم شاربه ويرفعه الى أعلى :
ـ ابن مرزوقة !

انفجر ابن عمي جعفر الباجس ضاحكاً فهجم عليه أبوه قائلا : إمشِ من

هنا يابن الكلب !

خرج جعفر الباجس وهو يواصل الضحك ، وتساءل عمى عرابى مخاطباً الناعسة : هو ياأستاذة ؟

- نـعــم ..

قال عمى عرابى يخاطب والدها : شوف ياشيخ عبدالرحمن .. كل شىء يجوز فيه "الغصبان" إلا هذه "المسعلة" .. الشرع امرنا ان نستشير البنت ، فاذا لم ترض بالعريس ، نرده ، واذا سكتت تكون موافقة .. أو كلامى فيه غلط ياعرب ؟

اجاب عمى حافظ بلهجة حماسية : كلام زين .

جاءت من الداخل عمتى فهيمة ، والدة الناعسة ، قالت :

- البنت لا تريد عبدالمجيد ياشيخ عرابى وأبوها مصمم عليه وكل يوم لنا كلام ومشاكل .

رفع عمى عبدالرحمن رأسه ونهر زوجته :

- لا تحشرى نفسك فى هذه المواضيع !

ثم التفت الى عرابى وقال : أنا أعطيت كلمتى للرجل ولا أقدر اسحبها !

سانده شقيق أبى حجازى وهو يستدير مواجهاً عرابى :

- فعلا ، والرجل يربطوه من لسانه !

قال عمى عرابى متضاحكا :

- كيف تعطون الكلمة الله يجازيكم من غير ما تستشيروا أصحاب "المسعلة" ؟..

أشرق وجه الناعسة ، رغم دموعها ، بدا جمالها فى شكل جديد ، قال عمى عبدالرحمن بصوت خافت :

- أنا قلت لها عيب فى حقى أرجع فى كلامى فسكتت ، والسكوت علامة الرضا .

تدخلت أمها وهى تلتف بملاءتها الحريرية :
ـ هى سكتت بعد أن بكت بسبب تصميمك وقولك عيب فى حقى ، الناس تقول عنى إيش ، لكنها ستموت من الغلب .

صاح فيها زوجها : لا تقاطعينى فى الكلام ياامرأة .
ـ أنا لم اقاطعك ، ويافرحتى بعبدالمجيد لو بنتى عملت فى نفسها حاجة .

عم الصمت ، وأعاد عمى عبدالرحمن وضع رأسه بين كفيه ، ومضى شقيق أبى حجازى يضرب جدار بُرج الحمام ضربات خفيفة لكن بعصبية ، وقال عمى حافظ كأنه يخاطب نفسه :
ـ طلاق ثلاثة مركوب بشير برقاب الناس الذين تعرفونهم !

انفجر الصغار ضاحكين ، وصرخ فيه شقيق أبى حجازى :
ـ إياك والغلط !
ـ أنا ذكرت اسمك أو اسم غيرك ؟
ـ قلت الناس الذين تعرفونهم !
ـ مادمت لم اذكر أحداً بالاسم ، فأنا حر ، واللى على رأسه "فلعه" يلمِّس عليها !

قال عمى عرابى ينهرهما : فضونا من كلامكم الفارغ ، وخلونا فى "المسعله" الأصلية .. ياشيخ عبدالرحمن .. ياجماعة .. الحق ظاهر والباطل ظاهر .. الأستاذة غير ملزمة بالكلمة التى أعطاها الشيخ عبدالرحمن لزيد أو عبيد ـ مع احترامها له ـ طالما هى لم توافق .. هى إنسانة متعلمة ومخها واسع ولا يصح نعاملها مثل نسوان زمان .

قال عمى عمى عبدالرحمن بصوت خالطته حشرجة : والرجل الذى طلق زوجته ؟
ـ من طلق زوجته يردها ، ولا يصح نتسبب فى خراب البيوت .
ـ ويبدو ان عمى عبدالرحمن أحس بذلة لسانه ، فقال متلعثما :
ـ أنا لم أتسبب فى خراب البيوت .. أعوذ بالله من هذا الكلام .. انا

فوجئت به يطلق زوجته .. والله العظيم لم أكن أعرف .

ـ خدمتك لنا ، تشاركنا فى صلح الرجل مع امرأته .

ـ مستعد والله !

خيم الصمت من جديد ، وظهرت ابتسامة خفيفة على شفتى الناعسة ، لكنها دارتها ، ولوح حجازى بذراعه واندفع الى الخارج دون أن يقول شيئا ، وقال عمى عرابى يخاطب زوجة عمى عبدالرحمن :

ـ اعملوا لنا براد شاى لكى نتكلم فى المسعله على رواقة .

خرجت ومعى عمى عبدالحميد المأذون ، وكنا نسند فيما بيننا ابن عمى سليمان الذى كان يغمض عينيه ويئن الى أن أوصلناه الى بيته ، وكان عمى المأذون يشتم عمى عرابى طوال الطريق بصوت خافت ويقول انه رجل بطال !



- ١٢ -

صبت سامية الكيروسين على الطبق الصاجى الملىء بالفحم وأشعلت عود ثقاب ، وذهبت الى الحجرة الداخلية وعادت تحمل النارجيلة وطبق البرتقال .

من الداخل سمعنا حركة فسألها هشام :

- من بالداخل ؟

عقدت مابين حاجبيها وصاحت :

- وانت مالك ؟!

ابتسم لها هشام فعادت لها ابتسامتها وقال :

- طول عمرك قلبك أبيض ياسامية !
- أنا عارفه نفسى قلبى أبيض !
- لهذا السبب ، يعلم الله ، أحبك اكثر من نفسى !
- تشكـر .
- من بالداخل ؟
- بنت أخى ، جاءت لزيارتى .
- بسبب حبى لك ، أحب كل أقاربك !
- ياابليـس ؟!
- لابد أن نقوم بالواجب مع الضيفة المحترمة .. قولى لها تأتى لكى نقدم لها فروض الولاء والطاعة !
- اذا لم تسكت ، فاننى ساغضب .
- ياعالم .. ياناس .. واحد يريد أن يكرم ضيوف أصدقائه ، هل يشكر

على ذلك ، أم يعاقب بالغضب عليه ؟

- هى بنت بنوت !

- وماله ؟.. هل نحن سنناسبها ؟!.. مجرد ترحيب بالضيفة لا اكثر ولا اقل !

- لا ..

- لـكـــن ..

كشرت سامية عن انيابها وقالت فى حسم :

- أنا قلت لا ، يعنى لا ، كلمة واحدة .

اذعن هشام :

- موافق .. لا داعى لزعلك يابنت الخال !

قبيل مغادرتنا بيت سامية بلحظات ، اطلت "الضيفة" من الحجرة الداخلية ، فارتعش جسدى .. كانت ذات الأنوثة المتفجرة التى رايتها أكثر من مرة فى بيت عبدالودود الأفندى .. عليها قميص شفاف وشعرها مهوش وعيناها خائفتان .. ما معنى هذا ؟

قلت لهشام ونحن نشق طريق السوق :

- البنت التى فى الداخل ، عند سامية ، لمحتها وأنا خارج .

- حلـوه ؟

- نـعـــم .

- لنا جولة ثانية بشأنها مع سامية !

- رأيتها من قبل فى بيت الاستاذ عبدالودود الأفندى .

- أصدقك ، فهو رجل ذواقة !

ما معنى هذا ؟.. قالت انها بنت أخت الأفندى ، وشوشو قالت ايضا انها ابنة اخته ، فهل شوشو كانت على هذه الشاكلة ؟..

متى ينقضى العمر ليستريح المرء ؟

★ ★ ★

لم اعرفها لاول وهلة حين التقيت بها فى أحد الدروب .. سميحة بنت

عمى عرابى .. ترتدى ثوبها بلا عناية ، وشالها الأصفر فى غير وضعه الطبيعى ، مال طرف حتى كاد يلامس الارض ، وارتفع طرف بقرب راسها ، وعظام وجهها برزت كأن العمر تقدم بها فجأة ..

حاول الا اظهر الشفقة وانا القى عليها بالسلام فتمتمت بما لم أسمعه ..

هل أنت حزينة على زاهر أم بسبب هذه الشائعة اللعينة التى تطاردك متهمة إياك بالنحس ؟

فى البيت وجدت كاملة الفجرية تشكو لأمى وللعمات والدموع على خديها :

ـ قلت لها ياراضية أنا محتاجة للفلوس ، قالت لى : احمدى الله لأن واحدة بنت أصل مثلى تنازلت لتقترض من غجرية خسيسة مثلك !..

وانخرطت فى البكاء فتألق جمالها بشكل مذهل حينما احمرت وجنتاها ـ ولمعة الدموع فوقهما ـ وقالت لها أمى : اصبرى ياكاملة .

ـ صبرت ثلاثة شهور وزوجى قال لى سأطلقك اذا لم تستعيدى منها الفلوس ..

وقالت لها عمتى فاطمة الغنامة :

ـ اطمئنى .. اذا لم يخلص الله لك حقك فى الدنيا ، سيخلصه لك يوم الموقف العظيم .

وفى المضيفة ماج المجلس حين حاول الكثيرون من الأعمام أن يثنوا ابن عمى عبدالمجيد الغباشى عن شراء بيوت عمى الشيخ رزق المرهونة عنده .. لكن الغباشى ، الذى كان يحس بالهزيمة لرفض الناعسة له ، هدد قائلا : فلوسى تشترى بيوته لمرة ونصف مرة .. إما أن يعيدها ، أو يبيع نظير مائة جنيه أخرى ـ سادفعها لله ! ـ أو يحدث فيها قتيل .

تطلعت الأنظار الى ابن عمى سليمان الذى كان يحتضن عكازته ويطأطىء رأسه فى حزن ، فى نفس الوقت رفع عمى الشيخ رزق راسه من فوق ركبتيه وقال :

ـ اكتبوا له السندات التى يريدها ياعرب .

وتولى عمى الشيخ عبدالرحمن العطشان كتابة العقود التى تنازل فيها عمى رزق عن كل بيوته ، وتأسف النجع كله لما حدث ، وسمعته البيوت وهو ينقر على الطار طوال الليل ، ويروى بصوت ذبيح مبحوح ، حسرة خليفة الزناتى على ضياع تونس .

★ ★ ★

تكنس البيت بمقشة بدائية من سباط النخل ، عليها فستان قديم متآكل الأطراف افقدها الكثير من بهرجتها لكنه جعلها أكثر اثارة ، سألتنى بلهجة عدائية : يانعم ؟!

- أريد مقابلة الفتاة التى كانت عندك .

ضيقت عينيها وتساءلت بسخرية : والسبب ؟

- أريد الاستفسار منها عن واحدة أعرفها .
- هى غير موجودة ..
- اين ذهبت ؟
- لا اعرف ..

- الم تقولى انها بنت أخيك ؟
- نعم ، وذهبت الى بيت اهلها .
- اين بيت أهلها ؟
- الله هو العليم !
- انا رأيتها من قبل فى بيت عبدالودود الافندى .
- ليست هى .
- انا متأكد انها هى ..
- وانا متأكدة انها ليست هى !
- صدقينى .. انا لا أريد أى شىء غير السؤال عن واحدة تهمنى ..

انفجرت سامية وهى تلوح بالمكنسة فى وجهى :

- اسمعنى ياخوى .. شغل صاحبك هشام لا ينفع معى أنا .. قلت البنت صغيرة يعنى صغيرة .. عاوزاش كتر كلام !

ليس أمامك إلا أن تذهب اليها فى بيت الأفندى .. لكنك ذهبت من قبل ولم تجد أحداً ، فكيف العثور على شوشو ؟

هاهو الشارع الذى كنا نسير فيه معا .. هذه الأشجار تشهد ان قصة حبنا قد حدثت ولم تكن حلما أو وهماً .. هاهو بيت سائس اسطبل التفتيش السابق يلوح من بعيد ، أتمنى أن يجيب أحد على طرقى هذه المرة ، وإلا فقل على دنياى السلام .. صوت موتور سيارة خلفك يعكر هدوء الشارع ، سر بحذاء الأشجار لتفسح لها الطريق .. يالله .. انها سيارته المرسيدس .. توارى خلف هذه الشجرة حتى يمر .. من هذه التى بجواره ؟.. واحدة تشبه الجازية .. هل هى الجازية ؟.. انها هى .. هل خاننى النظر وخيل الىّ انها هى ؟.. مستحيل أن تكون هذه التى مرقت أمامى امرأة أخرى غير الجازية .. رباه .. هل أضحت من خليلات افندى ؟.. هل انت يقظ أم أنك تحلم ؟.. وأين أبوها ؟.. انه لا يطيل الاقامة فى البلد ، هل تحول الى قواد ؟.. ما العمل الآن ؟.. هل تنقاد للتقاليد فتقتلها وتقتل الافندى ، وتتحول الى واحد ممن يأتون من القرى المجاورة لقتل قريباتهم اللاتى سقطن ؟.. تتجاهل الموقف برمته بادعائك للمدينة على أساس انها حرة فى حياتها ؟.. لكن كيف حدث لها هذا التحول دون أن يتحرك أحد فى البلد ؟.. هل يجهلون تحوّلها ؟.. معقول ؟.. هل عرفوا وتجاهلوا الموقف ؟.. أهذا ممكن ؟..

هاهى سيارة عبدالودود الافندى تعود .. يقودها وحده هذه المرة .. هل أوصلها الى وكر الملذات وجاء لاحضار شىء ما ثم يعود اليها ؟..

هاهو الخفير يضطجع على العشب ، تحت عريشة البوص ، لو منعك من الدخول فاقتله !.. هاهو يحرك راسه محدقا فيك ، يبتسم لك رافعاً كفه الى محاذاة راسه ، حسنا فعلت !..

لنصعد الدرجات ثلاثا ثلاثا ، وليكن الطرق على الباب حاداً ، هكذا ..

امرأة يبدو عليها البؤس ، فى حدود الخمسين ، فتحت الباب :

ـ من تريد ؟

ـ الجازيـة !

جاء صوتها من الداخل :
- من يازنوبــة ؟

هو صوتك .. لا أشك فى انه صوتك .. تعالى يابنت عبدالمعبود الباطل .

المرأة البائسة تبدو عليها الدهشة ، تراجعت فى صمت .

جاءت الجازية .. شهقت :
- عــامــر ؟
- ماذا تفعلين هنا ؟

تمالكت نفسها بسرعة :
- ماذا أفعل ؟.. أنا فى بيتى .
- بيتك ؟
- أنا زوجة عبدالودود كما تعلم .
- أعـلـــم ؟
- طبعا .. كل البلد تعلم .. ألم يقولوا لك ؟
- من هم ؟
- أعمامى وأولاد أعمامى .. كلهم حضروا كتب كتابى ودخلتى ، الأستاذ دسوقى وعرابى وعبدالرحمن ورزق والغباشى وقاسم .. ألم يقولوا لك ؟

هل تقول الحق أم تكذب ؟.. ولماذا تكذب ؟.. واضح ان الدنيا تتغير من حولك وانت ممعن فى غفلتك ..

لاول مرة رأيت الروب الحريرى الذى ترتديه ، وطريقتها الفذة فى تنسيق شعرها ، حلقات رائعة كل حلقة أصغر مما تحتها ، وجهها كالعهد به فى الحُسن وان شابه شحوب خفيف ..
- يعنى انفصلت عن توفيق بك ؟
- أنا التى طلبت الطلاق .

ظللت للحظة أحدق فيها دون أن أقول شيئا ، قالت :
- تتعجب طبعا .. تظن اننى سأعود الى البلد مكسورة الجناح ليشمت بى نجعنا الذى لا عمل له غير التهكم على المهزومين .. كلا .. أهون على

الإنسان أن يموت ولا يعرض نفسه للشماتة ..

ثم غيرت نبرة صوتها :

ـ أسفة ياعامر .. لو كان عبدالودود هنا ، لقلت لك تفضل بالدخول ، لكن ، ولا تؤاخذني ، وجودك لن يكون مريحا بالنسبة له ..

استطردت بعد لحظة صمت :

ـ كثيرون يزورونني من الأعمام وأولاد الأعمام .. بالذات عمى الشيخ عرابى وعمى الأستاذ عبدالرحمن وابنته الناعسة ، وأولاد عمى عبدالمجيد وقاسم .. اما انت ، فوضعك مختلف ياعامر .

هى تتكلم وانا اقف امامها دون أن اجد ما اقوله ..

مشاعر متناقضة تعصف بى دون كلمة تخرج من فمى .

استطردت بلهجة أسفة :

ـ أنا لم اخطىء فى حقك .. انت الذى بدأت اللعب والجرى وراء بنات البندر .. اخبارك كانت تصلنى اولاً بأول ..

ـ انت التى بدأت الخصام باجازية .. نفورك كان واضحا منذ مرض زاهر .

ـ كلا .. انت الذى بدأت .. غرقت فى الخمور والمخدرات ومصادقة شوشو وسوسن ، وجاءتنى أخبار البيت الذى استأجرته انت وبعض اصحابك فى البندر ، تحضرون بنات الغوازى يرقصن لكم طوال الليل !

ـ انــا ؟

ـ نعم ، انت ، لا تظن اننى مغفلة ، ولو احسست بانها نزوة تعود بعدها لى ، لما فارقتك ابدا .. قد نغضب مع بعضنا او نتنافر ، لكنا سنعود الى الوئام ، لكننى احسست بانك ستغدر بى ، عواطفك كانت مع واحدة اسمها شوشو ، يقال انها سليلة الغوازى ، تستطيع أن تلعب بعقلك خيرا منى !

ظللت لفترة أحدق فيها وهى تحدق فىّ دون كلام ، اخيراً قالت ، كمن تريد انهاء المناقشة ، بصوت غاية فى الأدب :

- اكرر اسفى ياعامر .. لا استطيع ان اقول لك تفضل بالدخول .

★ ★ ★

اين انا ؟.. اعتقد اننى ضللت الطريق .. اجل .. هذا شارع مخالف للشارع الذى كان يجب أن نسير فيه .

قالت لى امى :

- كلنا نعرف انها تزوجت من الرجل المسمى بالأفندى !
- ولماذا لم تقولى لى ؟
- ولماذا اقول لك ؟.. هى لن تنفعك ، وانت لم تعد تتأثر بها .

اجلت بصرى فيمن حولها ، نكست عمتى راضية راسها ، تشاغلت زوجة عمى عرابى فى تنظيف ثياب طفلها ، رفعت عمتى فاطمة الغنامة راسها وقالت :

- تزوج ياعامر .
- ان شاء الله .
- عندى لك عروسة اجمل من الجازية .
- العروسة موجودة .
- من هى ؟
- ستعرفينها قريبا .

ذهبت لمقابلة عمى عرابى ، قال لى بلهجة آسفة :

- الحقيقة انا خفت يكون توفيق بك طلقها وتعيش فى البندر من غير زواج .. خصوصا وانها مر عليها اكثر من ثلاثة شهور ، منذ حدث الطلاق دون أن تعود الى البلد .. خفت ايضاً لان عبدالمعبود مرتبك فى مسألة الأرض غير الصالحة للزراعة ، سيما وانه اصلاً رجل "حمار" يمكن ميعمل اى حاجة ويجصلب لنا العار .. لكن مادامت تزوجت على سنّة الله ورسوله ، فلا عار علينا .. حقا ان عبدالودود الافندى هذا لا اصل له ولا فصل ، لكن المال يدارى عيوب الرجال .

- يعنى انت حضرت زواجها من الافندى .

ـ نعم ، وكان معى الكثيرون من اهالى النجع .. وانت رايتنا .. كنا هناك فى اليوم الذى قلنا لك فيه كنا نعزى عمدة "إفليت" .
ـ ولماذا لم تقل لى ياعمى ؟
ـ ولماذا اقول لك ؟.. يعنى انت ناقص زعل ؟.. انت فى حالك وهى فى حالها ، وانا رايى ان تسارع بالزواج .. عندى لك عروسة جميلة ، ما رأيك ؟
ـ عروستى موجودة .
ـ من هى ؟
ـ قريباً ستعرفها .
ـ على بركة الله ، لكن هى من بلدنا ؟
ـ لا .

وجاءنى صوت موسى يقرا لجده عمى الشيخ يوسف :
"ولم يكن قد بقى غيره بعد ان قتل كل اصحابه واخوته واولاده ورجال اهل بيته .. فاتجهوا الى فسطاطه الذى فيه اهله وبناته واخواته ونساء اصحابه ، فمشى نحوها لكنهم حالوا بينه وبين الفسطاط ، فقال لهم : ويلكم ، إن لم يكن لكم دين ، ولا تخافون يوم المعاد ، فكونوا فى امر دنياكم احراراً ذوى احساب .. امنعوا سفهاءكم من دخول رحلى ـ فطعنه سنان بن عمرو النخعى بالرمح فوقع ، ونزل بحر بن كعب فذبحه واحتز رأسه ، ووجد بجسده ثلاثة وثلاثون طعنة واربع وثلاثون ضربة ، وسلبوه ما كان عليه من الثياب ، فاخذ سراويله بحربن كعب ، واخذ قيس بن الأشعث قطيفته ، واخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود ، واخذ سيفه رجل من بنى نهشل بن دارم ، ومال الناس على الفسطاط فدخلوا على نسائه وانتبهوا ما فيه ، حتى ان المراة كانت تنازع على ثوبها عن ظهرها فتغلب عليه وتتخلى عنه .

★ ★ ★

حبك عمى الأستاذ دسوقى الروب دشامبير حول جسده وهو يسألنى :
ـ لماذا تصر على الاستقالة ؟
ـ المرتب لم يعد له قيمة ، ساعود الى التدريس .

ـ التدريس انسب لك فعلاً .. انت شاب ممتاز ونتمنى أن تتخرج على يديك أجيال صالحة !

صدقت يابن الأفعى !.. لكن مفهوم "الصلاح" لهذه الأجيال فى رأيى انه تقضى على أمثالك من رجال الطبقةض الجديدة ـ السماسرة كما يسميهم بشير ..

ـ ادع لى ياعمى !

ـ أنا أدعو لك باستمرار ، لكن إياك أن يكون سبب الاستقالة هو زواج عبدالودود بك من الجارية ؟

عليك أن تتظاهر بالدهشة وتنكر انك تعرف :

ـ وهل تزوجت منه ؟.. متى ؟

لماذا أغمض الرجل عينيه المنتفختين وهو يجيب :

ـ أعتقد انك التقيت بها وعرفت منها شخصيا !

ـ ياللحرج الذى أوقعت نفسك فيه .. أجل .. تلعثم :

ـ كنت أظن انها فى زيادة عنده هى وتوفيق بك !

تطلع الى بعض الصور المعلقة على الجدران وقال :

ـ أنا الذى قمت بتزويجها من الأستاذ عبدالودود ، بعد أن رفضت بشدة أن تعود اليك !

ـ هل تكلمتم بشأنى ؟

ـ الجو يميل الى البرودة اليوم !

تجاهل سؤالى أيها اللص الكبير ..

ـ فعلا بارد ياعمى .

ـ عموما أنا أؤيد استقالتك لأننى شخصياً غير راضى عن هؤلاء الناس ، وأفكر فى فض الشركة معهم .

واضح انك مرتاح لاستقالتى أيها المخادع وتقول كلاماً غير مافى نفسك .

ـ استودعك الله ياعمى .

ـ اقعد للغداء .

لماذا تقولها هكذا باسترخاء كأنك تطلب منى أن أصر على الذهاب ؟
ـ شكرا ، الحقحيقة أنا مرتبط بموعد فى البلد .

صافحنى بحرارة وهو يقول :
ـ شد حيلك ، ربنا معك .

ربنا ياخذك أنت وامثالك !
ـ الشدة على الله ياعمى !

★ ★ ★

التقيت بشقيق أبى حجازى وهو يقود حماته خارجا من بيته ، قلت له :
ـ قررت أن اتوكل على الله وازرع أرضى .
ـ عد الى التدريس أحسن .
ـ لا رغبة لى فى التدريس .

صمت طويلا وهو يعدل من وضع جلبابه الحريرى الذى يشبه جلاليب سكان البندر :
ـ المرحوم والدك أجر لى الأرض قبل وفاته !
ـ أجـرهـــا ؟!
ـ أنت تعرف انه هجر الدنيا ومافيها بعد صوت المرحوم زاهر .
ـ أعرف ، لكنه لم يؤجرها لك .
ـ بقرتكم عندى ، يمكنك أخذها اذا أردت ، أما الأرض فاننى احتاج اليها !
ـ وأنا أحتاج اليها .
انت عندك عملك .
ـ قلت لك لا رغبة لى فيه .
ـ صالح أصحاب الشركة فى كوم امبو ، هؤلاء فلوسهم كثيرة !
ـ قدمت استقالتى ولن أعود اليهم .
ـ خطأ .. هذا افتراء على نعمة الله !

- ماذا قلت ؟
- عن أى شىء ؟!
- عن الأرض ؟
- صراحة نحن عائلة واحدة ، لا يكصح أن تحاسبنى هكذا كأننا غرباء ، ثم ماذا يهم اذا كانت الأرض عندى أو عندك ؟!
- فعلا ، لا فرق ، لكن المشكلة اننى بلا عمل الآن .
- حاولت أن أتعامل معك باللين ، لكن لا فائدة ، يجب أن تعرف ان والدك ، رحمة الله ، كان يوقع لى على ايصالات المبالغ الايجارية !
- ثم امتطى حمارته واتجه الى الحقول وتركنى واقفا أحملق فى ظهره !

ذهبت الى عمى عرابى ، انتظرت حتى انتهى من الصلاة ورويت له مادار بينى وبين شقيق ابى فقال :

- القانون معه ، لكن اصبر علينا ، ربما هداه الله وتنازل لك ولو عن فدان واحد ، لكن عد الى التدريس !

★ ★ ★

لو استطعت أن تقنع سامية بأنك لا تريد من قريبتها ، ذات الجسد الثائر ، غير الاستفسار عن توأم الروح ، لو صلت الى نتيجة .. أجل .. لابد من سامية وان طال السفر ..

ماهذا ؟.. الباب مغلق وجندى بوليس يقف أمامه والصمت مطبق .. ماذا حدث ؟.. هل أسأل الجندى عن سامية أم ان ذلك يدخلنى فى مشكلة ؟

نادى المركز .. هشام يجلس الى مائدة وحده .. المكان شبه خال : ماذا حدث لسامية ؟

- هل عرف أحد ان لك علاقة بها ؟
- لا ..
- أحســـن ..
- هل اعتقلها بوليس الآداب ؟
- كلا .. أحد أقاربها أطلق عليها الرصاص .

ـ مـاتـــت ؟
ـ نجت ، لكنها ترقد فى المستشفى .
ـ اصابتها خطيرة ؟
ـ يقال ان رصاصة أصابتها فى فخذها واخرى فى كتفها ، نفس ما حدث لسميرة وابنتها ..
ـ سميـرة مـن ؟
ـ تلك التى كنت سعادتك تطلق عليها ذات العيون الحزينة .
ـ جرحت هى أيضا ؟
ـ مـاتـــت .
ـ ماتت ؟.. ذات العيون الحزينة ماتت ؟
ـ احفظ اعصابك يااستاذ .. نعم ماتت .. البقية فى حياتك !
ـ متى ماتت ؟.. ولماذا لم تقل لى ؟
ـ أنا قلت لك ..
ـ لم تقل لى ..

ـ الا تذكر ذهابنا الى سامية أول مرة .. حين قالت عن واحدة أطلقوها عليها الرصاص ؟.. انها هى وأنا قلت .
ـ أنت رفضت الكلام أمام سامية كيلا ترعبها ، ولم تتطرق الى الموضوع بعد ذلك .
ـ هاقد عرفت .. وعلى كل حال هذه الأمور اصبحت عادية جداً فى مركزنا .

يالله .. من يصدق ان تلك العينين الجميلتين تحولتا الى تراب الآن ؟.. قلت : مسكينة .

تنهد هشام وقال بلهجة تعاطف وهو يرشف من قهوته :
ـ هذه المرأة تعذبت فى حياتها .. كان زوجها يعمل فى المعمار ، وكان ....
ـ هل حقا كان يحمل "القصعة" على كتفه ، أم انك قلت ذلك عنها بتأثير غضبك عليها ؟

ـ كان يعمل فى المعمار فعلا ، لكن بدرجة (ملاحظ) ، واستشهد أيام الحرب مع اليهود على خط القناة ، فتركها هى وابنتها الصغيرة ، لكن رجلاً مخادعاً من بلدها الأصلية ـ من المركز المجاور ـ تزوج منها ، وبعد أن جردها من كل ما تملك ، تاجر بجمالها .. جاء بها الى مركزنا ووثق صلته بعبد الودود الأفندى ، فاستسلمت للأمر الواقع ..

ـ ولماذا لم تقاوم ؟

ـ يُقال ان زوجها الجديد كبلها بكمبيالات ذات مبالغ كبيرة دون أن تفطن .. المهم ظلت على هذا الحال الى ان أطلق عليها أحد أقاربها الرصاص هى وابنتها وعبدالودود الأفندى .. نجا الأفندى ونقلوها هى وابنتها الى المستشفى ، هذه ماتت بعد ساعات ، وتلك ماتت بعد شهر ..

ـ أيهما التى ماتت بعد شهر ؟

ـ الإبنة .. واأسفاه عليها .. كانت رائعة الجمال .. حاولت أعمل معها علاقة فلم تستجب .. عرفت فيما بعد أن شوقية بمجرد ان وعت ما حولها ، قاومت وضع أمها ، ولم تستسلم إلا بعد فصلها من المعهد بسبب تزعمها لمظاهرة ضد زوجة شاه ايران .

ـ زوجة شاه إيران ؟

ـ لماذا تصرخ هكذا ؟

ـ أتقول ان اسمها شوقية ، وفصلوها بسبب زوجة الشاه ؟

ـ كثيرون فصلوا فى ذلك اليوم ، لماذا تقف وتجلس وتقف ؟.. مالك ؟.. هل أنت مريض ؟.. لماذا تترنح هكذا ؟..



اسمك ؟

ـ عامر عبدالولى ..

ـ عملك ؟

ـ مدرس ..

ـ انت متهم بتدريس مواد غير موجودة فى المقرر .. قلت لتلاميذك ان

اللورد كتشنر وماريشالات فرنسا لازالوا يحكمون لكن تحت رايات جديدة ، فما قولك ؟

- هذا صحيح ..
- ياجعفر ياباجس ..
- نعم ياعم عرابى ..
- بسرعة الله يرضى عليك ، قل للشيخ يوسف يأتى ليتلو القرآن على راس عامر ..
- مـالـه ؟
- يقول كلاما غير مفهوم ، وجبهته حامية مثل النار .
- هل من اقوال أخرى ؟
- اريد أن أعرف الأسباب التى جعلت السيادة تنتقل الى آل عبدالودود الافندى ..
- نحن نغير الطبقة القائدة حين تتمرد علينا بأخرى لا صلة لها بما يحدث حولها ، فلا صبر لنا على قوانين ابن خلدون فى التطور الطبيعى ..
- وماذا عن نهر النيل ؟

- مـالـه ؟
- يتجه الى الشمال فى صمت ، حاولت أن أبثه شكواى فلم يعبأ ..
- كبحنا جموحه بالخزانات والقناطر والسدود ، وأجهزة الإعلام !
- أدخل ياشيخ يوسف .. عامر يخرف ، أخشى أن يكون تلبسه شيطان .
- الله الذى لا اله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ..
- انظروا ، عامر فتح عينيه ..
- هذه بركة كلام الله ..
- ادخل يابشير ..
- اشرب الليمون ياعامر ..
- لماذا انتشر الطين هكذا فى السقف ؟
- الحمد لله .. عامر يتكلم ..
- عامر عاد اليه وعيه .. قولوا لوالدته يمكنها الدخول عليه الآن .
- من أبيه جاء كل هذا الطين ؟

رفعوا رؤوسهم الى السقف وقال بشير :
- كــارثـــة .

قال عمى عرابى :
- هذه "أرضــه" .
- أرضه ؟.. قصدك النمل الأبيض ؟

اجاب عمى عرابى وهو يقف ويحدق فى السقف :
- لا صلة لى بهذه الأسماء الجديدة .. انها "ارضه" .. كان الواجب أن تخبرنا بها منذ بدايتها يابنى .

صعد فوق سرير الحبال ومد الخيزرانه يتحسس بها عروق الخشب وقال :
- العروق كلها مضروبة .. لو لمسها أحد ، سيسقط السقف كله .

قال ابن خالى محروس :
- نصف العروق فقط هى التالفة ، يمكن الاستفادة بالنصف الآخر .

قال بشير وهو يمد عصا يتحسس بها السقف :
- كلها تالفة .. لابد من هدم السقف كله وإلا امتد الوباء الى جميع بيوت النجع .

أيده عمى عرابى وهو يقول : اللهم احمنا بحماه .
- نهضت من سريرى ، تعاونوا فى اخراج الأثاث الى فناء البيت ، جاءوا بسلم خشبى ، صعد عليه الصغار من أولاد وبنات فى سن الخامسة عشرة ، دفعوا السقف بجذوع الحطب ، تهاوت العروق كأنها تراب مخلوط بدقيق ، ظهرت السماء صريحة تتلألا فيها النجوم ..

اشترك الباجس وسليمان فى وضع بقايا العروق فى صحن الدار ، جاء بشير بصفيحة كيروسين ، صبهضا فوقها ، أشعلت الناسعة عود ثقاب ، توهجت الوجوه على الضوء .

« تـمـت »

روايات الهلال تقدم

الصرخة الصامتة

تأليف

أوى كينزابورو

الحاصل على جائزة نوبل ١٩٩٤

ترجمة

ابراهيم محمد ابراهيم

تصدر : ١٥ مارس سنة ١٩٩٥

كتاب الهلال يقدم

حوار مع المستقبل

بقلم

د . محمود عبدالفضيل

يصدر : ٥ مارس سنة ١٩٩٥

رقم الايداع : ٢٢٧٣/ ١٩٩٥
I - S - B - N
977 - 07 - 376 - I